الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية الآداب واللّغات

قسم اللّغة والأدب العربي

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في العلوم: تخصّص أدب مغربي قديم بعنوان

الأدب الجزائري القديم من مطلع القرن الثاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري.

- جمع ودراسة

إعداد الطالبة :

أمينة بن عديس

إشراف :

أ د محمد مرتاض.

أعضاء لجنة المناقشة :

أ.د محمد طول	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د محمد مرتاض	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا
أ.د محمد زمري	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا
د. سعيد عكاشة	أستاذ محاضر أ	جامعة سيدي بلعباس	عضوا
أ.د أحمد موساوي	أستاذ التعليم العالي	المركز الجامعي النعامة	عضوا
أ.د بوقربة الشيخ	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران	عضوا

السنة الجامعية: 2014 2015

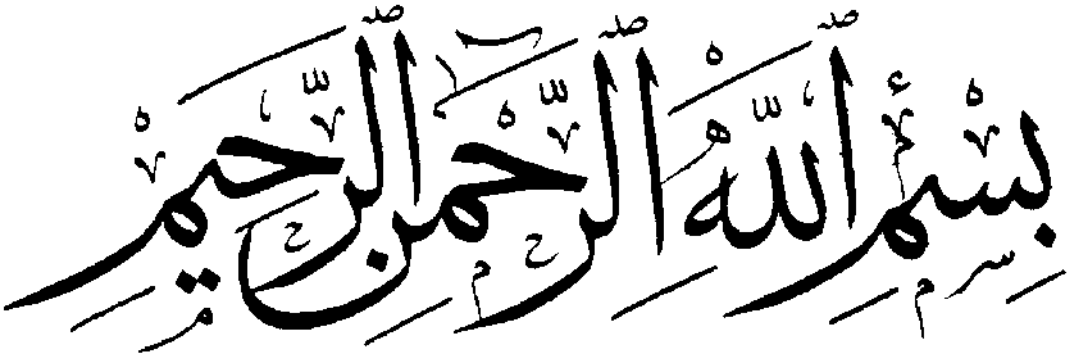
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء :

- إلى روح والدي الطاهرة رحمه اللّه، الذي أوصاني بالدّكتوراه وهو على فراش الموت، فأتمنّى أن أكون حقّقت له حلمه حتى ولو في القبر.

- إلى التي لا تفيها حقّها الكلمات بالوصف والعبارات بالشكر، ولو فديت عمري كله وفاء لجميلها لما كفى، أغلى ما في هذا الوجود أمّي حفظها اللّه.

- إلى أخواي و أخواتي رموز المحبة والسلام.

- إلى وطني الجزائر بلد السلم والوئام.

- إلى كل من ساعدوني بكتبهم القيمة وأفكارهم السديدة وأدعيتهم الخالصة.

إليكم جميعا يا من نقشت أسماءكم في القلب بأحرف من ذهب أهدي هذا العمل المتواضع.

كلمة شكر وعرفان

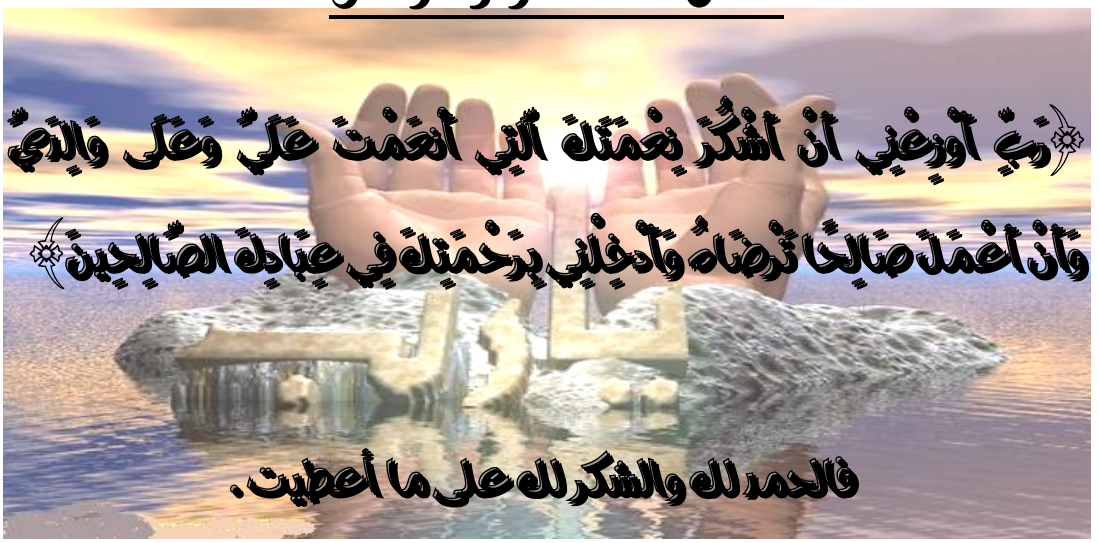

ومن لا يشكر النّاس لا يشكر اللّه، وإذا كان من العرفان شكر ذويه فإنّي أوجه تحية شكر وتقدير لأستاذي الدّكتور "محمد مرتاض" الذي أعدّه أبا روحيا، لما لمست فيه من سعة الصدر والأناة والصبر والرّزانة، وأنوّه بالجهد الصّادق الذي بذله في تقويم هذه الأطروحة وتقديم النصائح القيمة لاتسامه بالحكمة والخبرة العلمية، وإنني لأشعر بالاعتزاز أن أكون ممّن كتب اللّه لهم أن يتخرّجوا على يديه الكريمتين.

كما أتقدم بجزيل الشكر وأصدق الامتنان لرموز العلم والاحترام أعضاء لجنة المناقشة، الذين شرفوني بالاطلاع على هذه الرسالة وقراءتها وإبداء الرّأي القويم فيها.

وأجدّد شكري لكل من ساهم في إنجاح هذا العمل من قريب أو بعيد.

أمينة بن عديس.

مقدمة

تزخر الجزائر بتراث عربي إسلامي أصيل، شأنها في ذلك شأن الأمم الراقية العالية المجد، فهذا البلد ولود لرجال قاموا بحمل مشعل الثقافة والتنوير الفكري والأدبي، وساهموا في إثراء جميع الميادين التاريخية والثقافية والسياسية والاجتماعية والأدبية، لكن من المؤسف ألا نعرف عن هذا التراث إلا القليل لاسيما في المجال الأدبي الذي لايزال كثير منه في طي النسيان، والسبب يعود إلى تلقينا الأدب المشرقي والأندلسي في المتوسطات والثانويات، مع إهمال شامل وتجاهل كبير للأدب الجزائري، فلم نتلق ولا نصا لأديب جزائري قبل العصر الحديث، حتى اعتقدنا أنه لا وجود لهذا الأدب أصلا، لكن الاعتقاد زال بمجرد تخصصي في الأدب المغربي القديم، وملاحظة مدى الجهود التي يبذلها أساتذتنا الأفاضل في تذليل الصعاب وإضاءة الجوانب المظلمة، وغرسهم فينا حب إحياء التراث الأدبي الجزائري ضمن مستوى حضاري معين وعبر عصور زمنية متعاقبة.

لذا تولدت لدي رغبة وقناعة في معالجة موضوع: "**الأدب الجزائري القديم من مطلع القرن الثاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري – جمع ودراسة** ".

وتهدف هذه الدراسة إلى جمع ما أمكن من النصوص الأدبية وتحليلها مع استنباط لأبرز الخصائص الفنية من أجل تقديم صورة مبسطة عن هذا الأدب وإحيائه إبان تلك الفترة الزمنية التي كانت بمثابة الانطلاقة الحقيقية لمختلف الفنون والآداب في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وأخذت شكلها التام في القرنين الرابع الخامس الهجريين، وإجابة عن الأسئلة التي طرحت علي من فئات اجتماعية مختلفة منها : من هم أشهر أدباء تلك الفترة ؟

ما هي أهم الأغراض الشعرية والفنون النثرية التي عالجوها ؟ هل الأدب الجزائري نشأ عصاميا، أم كان مطابقا للأدب المشرقي؟

ومما حفزني على ولوج هذا الموضوع رغبتي الشديدة وحماسي الكبير في التطلع إلى تراثنا الأدبي لأنه يثبت هويتنا، إضافة إلى حاجة الباحثين لمثل هذه المواضيع من أجل إزاحة بعض المفاهيم العالقة في أذهانهم، فضلا عن مبادرة أستاذي الدكتور محمد مرتاض، بتشجيعه لي على الكتابة في هذا الموضوع، خصوصا وأنني كنت في ظروف جد صعبة عند تسجيله إذ صادفت وفاة الوالد الذي تمنى أن يرى هذا العمل، لكن قدّر الله وما شاء فعل.

وشأن أي بحث بكر، فقد تخللته بعض الصعوبات والعراقيل أجملها فيما يلي:

- ضيق الوقت، لأن البحث في الأدب الجزائري في أثناء مراحله الأولى يتطلب سنوات وسنوات نظرا لقلة المادة العلمية، لذلك لم أتمكن من تقسيم النصوص الأدبية شعرية كانت أم نثرية إلى أنواع، كما وجدت نفسي أمام عدد قليل من الأدباء في كل قرن.
- إحراق المكتبات، وكثرة الحروب والفتن وتخريب معالم الحضارة الجزائرية من قبائل بني هلال، كلها عوامل أدت إلى ضياع أنفس الكتب فحرمنا منها مجبرين.
- رفض بعض مالكي الكتب القديمة والمخطوطات تسليمها لنا خوفا عليها من الضياع، لكنهم نسوا بأنهم ضيعوا التراث بأيديهم، فغمروها في الدهاليز لتكون غذاء للفئران.

وجود بعض المصادر في أماكن يصعب علي التنقل إليها نظرا لظروف فوق طاقتي، فاستأنست في بعض الأحيان بالمصادر الثانوية.

لكن هذه الصعوبات لم تحل أمام سياسة الأمل وروح المثابرة على مواصلة البحث، وتقديمه على هذه الصورة إضافة إلى ما قدمه لي أستاذي الفاضل الدكتور محمد مرتاض من يد المساعدة وتحفيزه لي بخوض غمار البحث، ولا غرابة في ذلك من أحد رواد الفكر كرس حياته العلمية خدمة للتراث الأدبي المغربي بعامة، والجزائري بخاصة.

ولكي يكون عملي أكثر توثيقا استندت إلى مصادر، أهمها تلك التي كان لها فضل السبق في هذا الميدان وعنيت بإحياء التراث الأدبي الجزائري، من بينها كتاب الأدب الجزائري القديم للأستاذ عبد الملك مرتاض الذي خصصه للأدب في العهد الرستمي، وكتاب الأدب في عصر دولة بني حماد لمحمد بن أحمد أبو رزاق وتطرق فيه لمجموعة من النصوص النثرية والشعرية، وكتاب الدر الوقاد في شعر بكر بن حماد لمحمد بن رمضان شاوش، ومن القديمة كتاب أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير، وكتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكرياء، وكتاب رياض النفوس للمالكي، إلى غير ذلك من المصادر والمراجع التي أسهمت في إثراء هذا البحث.

ولقد اتبعت في إنجاز هذا العمل منهجا سرت على هديه، لتحقيق الهدف المرغوب فيه وللوصول إلى النتائج المرجوة، وهو المنهج الوصفي القائم على التحليل الذي أعانني على قراءة النصوص الشعرية والنثرية ووصفها من حيث الشكل والمضمون، مع تحليل ما احتوت عليه من أفكار ومعان وسمات جمالية وبلاغية.

ووضعت خطة سار على منوالها البحث اشتملت على مقدمة ومدخل وثلاثة أبواب مقسمة إلى فصول قلة وكثرة بحسب طبيعة الموضوع والمرجعية، بالإضافة إلى خاتمة، وقائمة المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

ففي المدخل تناولت نبذة عن الحالات السياسية والدينية والثقافية من مطلع القرن الثاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري.

وبما أن الشعر يسبق النثر في التوثيق أو كاد، فقد تطرقت في الباب الأول للأغراض الشعرية إبان تلك الحقبة من وصف وغزل ومدح وهجاء وزهد ورثاء وحكمة ما وسعني ذلك.

وخصصت الباب الثاني للنثر الجزائري آنذاك وما احتواه من فنون نثرية أهمها الرسائل والخطب والوصايا والتأليف، مع الإطناب في قرن والإيجاز في آخر لأسباب أبنت عنها في موطنها.

أما الباب الثالث والأخير فتحدثت فيه عن الخصائص الفنية التي ميزت هذا الأدب شعرا ونثرا.

وأنهيت البحث بخاتمة أجملت فيها أهم النتائج.

وما يمكن أن أقوله هو أن ما أقدمه الآن لا يفتح كل الأبواب، وإنّما هو محاولة منّي نتيجة جهود بذلت من قبلي، فأرجو أن تكون هذه الرسالة قد أعطت الموضو ع جانبا واضحا، وأن تكون نبراسا مضيئا أنار بعض الجوانب المظلمة، فإن أصبتفمن الله وإن أخطأت فمن نفسي والله وليّ التوفيق.

المدخل

نبذة موجزة

عن الحالات السياسية و الدينية

و الثّقافية من مطلع القرن الثاني الهجري

إلى نهاية القرن الخامس الهجري.

المدخل:

نبذة موجزة عن الحالات السياسية و الدينية والثّقافية

من مطلع القرن الثاني الهجري

إلى نهاية القرن الخامس الهجري.

أ- الحالة السياسية والدينية.

ب- الحالـــــة الثّقافيـــة.

أ- الحالة السّياسية والدّينية :

ما إن تأكّدالبرابرة من النّوايا الحسنة للفاتحين ومن صدق الرّسالة السّماوية التيّ حملوها إليهم وبدون أي غرض من الاحتلال والقوةوالجبروت حتىّ دخلوا في الدّين الإسلامي مقتنعين طائعين راغبين في تعلّم اللّغة العربية لحفظ القرآن لكريم وفهم الدّين الجديد.

ولقد تطرّق أحمد بن النّعمان إلى أسباب سرعة انتشار الإسلام، أجملها فيما يلي :

- تمثيل العرب الفاتحين قولا وفعلا- لتلك التعاليم الاخلاقية التّي اتى بها الدّين الجديد.

- رغبة البربر الشّديدة في حفظ القرآن الكريم جعلتهم يدركون معاني الإسلام ويؤمنون بتعاليمه التيّ تنادي بالمساواة والعدل والإخاء والحرية لا بقوة السّيف و العنف والتّمييز العنصري، كما كان يفعل الرّومان و الوندال من قبل.

- انصهار العرب الفاتحين في المجتمع المحلي دون اعتلاء و استشعار الأفضلية عليه في أي شيء، أي إنّ الفاتحين كانوا يتعاملون مع البرابرة معاملة حسنة كانهم إخوة لهم لا على اساس انهم عبيدو أعداء.[1]

إنّ هذه الأسباب التيّ ساعدت على نشر الإسلام،جعلت البرابرة يتعلّمون اللّغة العربية لغة الدّين الجديد لفهمه فكيف انتشرت اللّغة العربية أوبالأحرى كيف تعرّب البرابرة؟

[1] ينظر كيف صارت الجزائر عربية مسلمة – دار النّشر 1401ه،1981م،ص35 36.

يمكن حصر عوامل تعريب البربر في الآتي:

– تمسّك البربر باللّغة العربية وعدم تعصّبهم للّغة البربرية الّتي كانت لغة تخاطب فقط، وكانت رغبتهم شديدة في تعلّم العربية لانها لغة القرآن الكريم ولغة يمكن التّعامل بها مع بلدان المشرق و الأندلس.

– وجود خطباء وشعراء في جيوش الفتح كانوا يحادثون الأهالي باللّ غة العربية كوا لغة حضارة وثقافة.

- بناء المساجد أشهرها كما قال رابح بونار:" مسجد عقبة بن نافع وكان مسجد عبادة وجامع تعليم عال في اللّغة وعلوم الفقه والحديث وغيرها"[1].

- بعض السّمات المشتركة بين اللّغة العربية واللّغة البربرية في النّطق ومخارج الحروف.

- وجود العرب منذ نشأة أوّل دولة إسلامية جزائرية، وهي الدّولة الرّستمية بحيث كانوا يتوافدون عليها بكثرة من مختلف الأنحاء إذ يقول ابن الصغير:"ليس أحـ د ينزل ـم من الغرباء إلا استوطن معهم.حتىّ لا يركن دارا إلاّ قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي "[2].

- إضافة إلى نزوح قبائل بني هلال في العهد الحمادي الذين خرّبوا معالم الحضارة لكنّهم نفعوا البلاد المغاربية كثيرا من النّاحية اللّغوية إذ"حوّلوا تلك الحملة التّخريبية الانتقامية إلى رسالة ثقافية لغوية استفاد منها سكان شمال إفريقية عامة و أبناء الجزائر بصفة خاصة"[3].

[1] المغرب العربي: تاريخه وثقافته، الشّركة الوطنية للنّشر و التّوزيع،ط2،1981م ،ص53.

[2] أخبار الأئمة الرستميين،تحقيق د محمد ناصر، الأستاذ:بحّار إبراهيم بكير،المطبعة الجميلة،1986م ،ص32.

[3] الأدب في عصر دولة بني حمّاد، أحمد بن محمدأبورزاق،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر،1979م، ص124.

وما يمكن أن نخلص إليه، هو أنّ اللّغة العربية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدّين ،كونها لغة القرآن كما انها لغة الادب العربي عامة والجزائري خاصة، ذلك الأدب الذّي تخللته بعض الاضطرابات السّياسية والنّزاعات المذهبية في تلك الفترة .

ولا يخفى على أحد أنّ الحياة السياسية من مطلع القرن الثّاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري امتازت بكثرة الحروب والفتن أخمدت نيرانها بمشقة كبرى، فالدّولة الرّستمية تأسست في ظل الصّراعات السّياسية التي حدثت بين قبائل الصّفرية* والإباضية* بعد أن تفرّقت تلك القبائل كون كلّ واحدة منهما كانت تسعى لتأسيس إمارة خاصة بها: "و هذا ما سعت إليه القبائل الصّفرية بالمغرب الأقصى والأوسط، كبني يفرن بتلمسان وبرغواطة بتامسنا ومكناسة بسجلماسة أمّا القبائل الإباضية كهوارة ونفوسة وزناتة ولواتة ولمّاية ومزاتة فقد تمكنت من إنشاء إمارة في طرابلس سنة 140ه لكنّها سقطت عام 144ه تحت ضربات الجيش العباسي بقيادة محمد بن الأشعث"[1] الّذي قتل أبا الخطّاب في معركة حاسمة بسبب الصّراع على إفريقيا والقيروان، فلمّا سمع عبد الرّحمن بن رستم بالخبر و هو مايزال في مدينة قابس، قرّر العودة إلى القيروان لكنّه وجدها ثائرة ضدّه[2]، وبعد فشله هو ورفاقه الإباضيين في السّيطرة على القيروان، اتّجهوا إلى بلاد المغرب الأوسط، فنزلوا على قبيلة لماية ومرّوا بجبل سوفجج وتحصّنوا به، فوفد عليهم عدد كبير من العلماء والأنصار، إلاّ أنّ جنود ابن الأشعث فاجأم وحاصرت الجبل لكنّهم سرعان ما رفعوا الحصار لحصانة الجبل فانسحبوا، وعندئذ غادر

* من فرق الخوارج،الصفرية:نسبة إلى عبد الله بن صفار و الإباضية: نسبة إلى عبد الله بن إباض.

[1] دول الخوارج و العلويين، بوزياني الدّراجي، ج1 ، دار الكتاب العربي، الجزائر،ط1، 2002م، ص 63.

[2] ينظر الموجز في تاريخ الجزائر، يحي بوعزيز، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية،1999م، ص 97.

عبد الرّحمن هو و أصحابه الجبل و خرجوا يبحثون عن مكان منيع لإنشاء إمارة خاصة بهم ولبت دعوتهم، فقصدوا جهة تيهرت القديمة[1].

يقول بوزياني الدّراجي في هذا الصّدد: "وشرعوا في وضع خطّة لبناء مدينة تيهرت من جديد لأنّ تيهرت كانت منذ القديم ويرجع تاريخها الأوّل إلى العهد الرّوماني، ولكنّها اندثرت، وعليه فقد بنى الإباضيون مدينة أخرى تقع إلى الغرب منها وتعرف بتاقدمت"[2].

وهذا ما رواه البكري في كتابه موضّحا بأنّ الإباضية توجّهوا في بداية الأمر إلى تيهرت القديمة العليا لإعادة بنائها لكنّهم كانوا كلما بنوا شيئا في النّهار وجدوه مهدّما في اليوم الموالي، فصرفوا النّظر عن ذلك المكان وبنوا تيهرت الحديثة السّفلى وهي تقع غرب تيهرت القديمة بحوالي خمسة أميال[3].

فاستمر الرّستميون في التّشييد والتّطوير والعمران وكثر مساعدوهم من جميع الأنحاء إذ يقول ابن الصّغير: "ثمّ شرعوا في العمارة والبناء وإحياء الأموات* وغرس البساتين وإجراء الأنهار واتخّاذ الرّخاء والمستغلاّت وغير ذلك، واتّسعوا في البلاد وتفسّحوا فيها وأتتهم الوفود والرّفاق من كلّ الأمصار وأقاصي الأقطار"[4].

ولمّا اشتدّ أمر عبد الرّحمن بن رستم، قام الإباضيون بمبايعته سنة 160ه لما وجدوا فيه من صفات الورع والعدل والتّواضع.

---

[1] ينظر الموجز في تاريخ الجزائر،م س، ص 99.

[2] دول الخوارج و العلويين، ص 64،63.

[3] ينظر المسالك و الممالك، ج المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب دار الكتاب الإسلامي، د.ط، ص 68.

4 أخبار الأئمة الرستميين، ص 31.

*إحياء الأموات: يقصد السقي الأراضي.

وقد روى ابن الصّغير في سيره طريقة مبايعة عبد الرّحمن قائلا:« أخبرني غير واحد من الإباضية عمّن تقدّم من آبائهم قالوا: لمّا نزلت الإباضية مدينة تيهرت وأرادوا عمارا اجتمع رؤساؤهم فقالوا: قد علمتم أنّه لايقيم أمرنا إلاّ إمام نرجع إليه في أحكامنا وينصف مظلومنا من ظالمنا ويقيم لنا صلاتنا ونؤدّي إليه زكاتنا ويقيم فينا، فقلبوا أمرهم فيما بينهم فوجدوا كلّ قبيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدبّر أمر القبيلة ويستحق أمر الإمامة فقال بعضهم لبعض: أنتم رؤساء ولا نأمن أن يتقدّم واحد على صاحبه، فتفسد نيته وعشيرته على غيرهم فتفسد النّيات ويكثر الاختلاف ويقلّ الائتلاف، لكن هذا عبد الرّحمن بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه وقدكان الإمام أبو الخطّاب رضي لكم عبد الرّحمن قاضيا وناظرا فقلّدوه أموركم، فإن عدل فذلك الّذي أردتم وإن سار فيكم بغير عدل عزلتموه، ولم تكن له قبيلة تمنعه ولا عشيرة تدافع عنه، فاجمعوا رايهم على ذلك ثمّ نهضوا إليه بأجمعهم وقالوا: ياعبد الرّحمن رضيك الإمام في ابتدائنا ونحن الآن نرضى بك ونقدّمك على أنفسنا فقد علمت أنّه لا يصلح أمرنا إلاّ إمام نلجأ إليه في أمورنا، ونحكم عنده فيما ينوب من أسبابنا، فقال لهم :إن أعطيتموني عهد الله وميثاقه ليستطيبوا لي ولتطيعوني فيما وافق الحق وطابقه، قبلت ذلك منكم فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك، وشرطوا عليه مثلما شرط عليهم وقدّموه على أنفسهم وألقوا إليه بأيديهم»[1].

ويظهر جليا بأنّ اختيار عبد الرّحمن بن رستم كان صائبا، وهذا ما أكّده أبو زكرياء بقوله:«ولم ينقم عليه أحد في حكومة ولا في خصومة ولم يكن على يديه افتراق الإباضية يومئذ كلّها مجتمعة مؤتلفة»[2].

[1] ينظر أخبار الأئمة الرستميين،م س، ص25 و ما بعدها.

[2] كتاب سير الأئمة و أخبارهم المعروف بتاريخ أبو زكرياء، تحقيق:إسماعيل العربي،دار الغرب الإسلامي –بيروت لبنان ط 2، 1982م،ص83.

فظهرت بذلك أوّل دولة جزائرية مستقلّة في ربوع المغرب الأوسط [1] و" التي دامت قرنا وثلاثا وثلاثين عاما ،ومدّت نفوذها على المنطقة ما بين بلاد الزّاب وتلمسان وبلغ عدد أئمّتها ثمانية"[2].

كما أن نظّام الحكم كان شوريا، قائما على الكتاب والسّنة عملا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [3]

لكنّ الدوّلة الرستمية عرفت عدّة اضطربات سياسية بعد عهد عبدالرّحمن ، بعدما كانت تعرف الاستقرار والهدوء، وذلك راجع إلى العصبيات القبلية والافتراق الإباضية في عهد عبد الوهاب –لسنا بصدد ذكر الثّورات والفتن السياسية لأنّ البحث يتطلب صفحات وصفحات إضافة إلى وجود خلافات على الحكم وتنافس على السّلطة سيما بين الأئمة الرّستميين الأواخر، إلاّ أن تلك النّزاعات تمّ القضاء عليها بالحنكة والذّكاء السّياسي تارة، وبالقوة والسّيف تارة أخرى.

غير أنّ اختلاف الكلمة بين الشّعب والحكومة في عهد اليقظان بن أبي اليقظان أدّى إلى انحطاط الدّولة الرّستمية وضعفها، بحيث يقول مبارك الميلي:"فالشّعب كانت تعبث باتخاذه العصبيات القومية والتّعصّبات المذهبية، و الحكومة تعبث بها المنافسات السّياسية والاختلافات الدّاخلية"[4].

---

[1] ينظر دول الخوارج و العلويين، بوزياني الدّراجي،ص65.

[2] الموجز في تاريخ الجزائر ، يحي بوعزيز،ج1 ، ص97 98

- الأئمة الرستميون هم:عبد الرّحمن بن رستم 160هـ 776م، عبد الوهاب بن عبد الرحمن 171هـ 787م، أفلح بن عبد الوهاب، 190هـ 805م. أبو بكر بن أفلح : 240هـ 854م ، أبو اليقظان بن أفلح، 241هـ 855 م، أبو خاتم بن أي اليقظان: 281هـ 894م،يعقوب بن أفلح: 282هـ 895م، اليقظان بن أبي اليقظان : 294هـ 906م.

[3] سورة الشورى: الآية (38).

[4] تاريخ الجزائر بين القديم و الحديث،تقديم وتصحيح: محمد الميلي ج2 ،دار الغرب الإسلامي – بيروت لبنان ، ص 87.

فاتهت الإمارة الرّستمية بمجرّد تسليم اليقظان نفسه للعبيديين،مثلما يقول عبد الرّحمن الجيلالي : «خرج اليقظان مستسلما للعبيدين فقضوا عليه وعلى دولته سنة 296ه»[1].

وبذلك قامت الدّولة الفاطمية بعد القضاء على إمارة الأغالبة بالمغرب الأدنى، وإمارة الأدارسة بالمغرب الأقصى والإمارة الرّستمية بالمغرب الأوسط، فأسّس عبيد الله المهدي مدينة المهدية وجعلها عاصمة الدّولة «وكان المغرب الأوسط" الجزائر" هو الجناح الغربي لولايات الدّولة الفاطمية وأهمّها وقد اعتنت به الخلافة فاختارت له ولاّة حازمين يحكمون تيهرت والجهة الغربية منه، وانتخبت أسرة بني حمدون للجهة الشّرقية منه وقا عدا المسيلة*، ووفّقت في هذا الاختيار»[2].

أمّا نظام الحكم في العهد الفاطمي، فيقول عنه يحي بوعزيز أنّه كان «يستند على تدعيم فكرة الشّيعة ومقاومة العبّاسيين وبني أمية بالأندلس ، ويقوم داعي الدّعاة بدور رئيسي في تدعيم الدّولة من الجانب الدّعائي، ويفوق نفوذه في عهد الفاطميين سلطة رئيس الوزراء حاليا ويعتبر حقيبة أسرار الخليفة وأكبر مستشاريه »[3].

فكانت أعظم رتبة لداعي الدّعاة بحيث لا يفصلها إلاّ مقام قاضي القضاة أو الخليفة، فالدّولة الفاطمية لم يكن لديها وزراء في المغرب إلاّ بعد انتقالها إلى مصر.[4]

كما أن الدّولة الفاطمية استطاعت أن تفرض وجودها وتسيطر على أقطار المغرب، فكانت القبائل الكتّامية والصّنهاجية مؤيّدة ومناصرة لها، بينما حاربتها القبائل الزّناتية

[1] تاريخ الجزائر العام ،ج1،ديوان المطبوعات الجامعية 1995م ص176.

[2] المغرب العربي : تاريخه وثقافته، رابح بونار، ص184.

*المسيلة : من المنشآت الّتي أمر أبو القاسم بن عبيد الله المهدي أبا الحسن علي بن حمدون بتشييدها.

[3] الموجز في تاريخ الجزائر،ج1،ص143.

[4] ينظر تاريخ الجزائر العام، عبدالرّحمن الجيلالي ،ج1،ص215.

الّتي كانت نصيرة الأمويين، فوقعت معارك بين القبيلتين وكان النّصر حليف بلكين بن زيري ابن مناد* الصّنهاجي إذ هزم زناتة عام 361ه[1].

ومن المعلوم، أنّ غرض استيلاء الفاطميين على أنحاء المغرب هو تأسيس دولة بالمشرق، فكان لهم ما أرادوا في عهد المعز لدين الله الفاطمي بعدما أرسل جوهر الصّقلي الذّي أسّس مدينة القاهرة، فارتحل المعز تاركا مكانه على إفريقيا لبلكين بن زيري ، وبذلك انتقلت السّلطة من العرب إلى البربر[2].

فالظّاهر أنّ إمارة بني زيري أصبحت سيّدة النّفوذ بإفريقيا والمغرب الأوسط، وبدأت الدّولة الفاطمية تتخوّف منها، فحرّضت الكتّاميين على محاربتها، إلاّ أنّ الصّنهاجيين كانوا لهم بالمرصاد وانتصروا عليهم، لكنّهم في الوقت نفسه شعروا بدسائس الفاطميين وجاملوهم إلى أن أعلن المعز بن باديس *قطع الدّعوة للفاطميين وتحويلها للعباسيين سنة 440ه[3].

وفي حقيقة الأمر،فإنّ الإمارة الصّنهاجية انقسمت إلى قسمين منذ سنة 405ه، فأصبحت لصنهاجة دولتان دولة بني زيري بتونس فكانت عاصمتها المنصورية ثمّ المهدية والدّولة الحمادية بالمغرب الأوسط وكانت عاصمتها القلعة فبجاية، وكان ذلك بعد قيام عدّة حروب وفتن بين حماد ابن بلكين وبني أعمامه الزيريين انتهت باستقلال حماد بالجزائر واستقراره بها[4]: «فنشأت الدّولة الحمّادية في الشّرق الجزائري إذْ دامت حوالي قرنا ونصف من 405ه إلى 547ه»[5].

---

*زيري بن مناد: أنشأ مدينة أشير سنة 324ه وجعلها مركز المحاربة زناتة .

[1] ينظر الجزائر في مرآة التاريخ،عبد الله شريط ومحمد الميلي ،مكتبة النّهضة،قسنطينة ،ط1،1995م،ص70.

[2] ينظر الموجز في تاريخ الجزائر ، يحي بوعزيز ، ج1،ص142 143.

*خامس الأمراء الزيريين.

[3] ينظر الجزائر في مرآة التاريخ،عبد الله شريط ومحمد الميلي، ص66 67.

[4] نفسه ص 67.

[5] ذاكرة الجزائر: صفحات من تاريخ المقاومة الشعبية عبر العصور ،المتحف المركزي 1984م،ص57.

لكن بعد هذا الانقلاب السّياسي وَقطْعِ كلّ من الحماديين والزّيريين الولاء للفاطميين وتحويله للعبّاسيين، غضب المعز الفاطمي وقرر الانتقام من صنهاجة وذلك بإرسال قبائل الأعراب من بني هلال وزغبة وسليم نحو إفريقيا والجزائر[1].

فقامت تلك القبائل بتخريب معالم الحضارة إذ ترتّب عن نزوحها نتائج سيّئة، فكانوا عناصر فوضى واضطراب لما أحدثوه من انقطاع المواصلات بين المدن وانعدام الأمن فأثّروا سلبا على الميدان الاقتصادي والحضاري، وما كان على الزّيريين والحماديين إلاّ أن يلجأوا لسياسة السّلم والتّصالح مع الفاطميين لتعود الدولتان إلى حيويتهما ونشاطهما[2].

غير أنّ بني هلال زحفوا مرة ثانية على المغرب الأوسط، فأفسدوا معالم العمران وعبثوا بالأراضي الزّراعية، وخرّبوا القلعة وذلك في عهد النّاصر بن علّناس[3].

فقام النّاصر بن علّناس في بداية النّصف الثّاني من القرن الخامس الهجري بتأسيس مدينة بجاية سنة 460ه كصنوة لقلعة بني حماد، فسمّاها في بادئ الأمر بالنّاصرية ولكن غلب عليها اسم بلقايت البربري الّذي كان اسما لإحدى القبائل الأمازيغية وصحفت بالعربية وأصبحت تعرف ببجاية[4].

أمّا نظام الحكم، فكان يستند على الملك، وتداول على إمارة الدّولة الحمادية تسعة ملوك*.[5]

---

[1] ينظر تاريخ الأدب الجزائري،محمد طمار –الشركة الوطنية للنشر و التوزيع – الجزائر ص 70.

[2] نفسه،ص70.

[3] ينظر الكامل في التاريخ،ابن الأثير ج8 دار الكتاب العربي لبنان ط4 1983م ،ص101.

[4] ينظر الموجز في تاريخ الجزائر،يحي بوعزيز،ج1،ص157 158.

* الملوك الحمّاديون: حمّادين بلكين:405ه، القائدين حمّاد : 419ه محمد بن القائد: 446ه بلكين بن محمد بن حمّاد:447ه، النّاصر بن علناس:454ه المنصورين النّاصر:481ه ، باديس بن المنصور: 498 ه العزيز بن المنصور ، 498ه، يحي بن العزيز 515ه.

[5] ينظر تاريخ الجزائر العام ، عبد الرّحمن الجيلالي،ج1،ص291.

وبعدما كانت الدّولة الحمادية زاخرة بمظاهر الترّف والعيش الرّغد، مفعمة بالحيوية والنّشاط، بدأت تتسلل إليها الظّروف الصّعبة ومظاهر الضعف والانحطاط بسبب ضعف نفوذ ملوكها وانحلالهم لاسيما في عهد يحي بن عبد العزيز الّذي كان منغمسا في الشّهوات وظهور قوى الموحدين في المغرب الأقصى التيّ أخذت تنمو وتزحف إلى أن انتهى أمر الدّولة الحمادية سنة 551ه إذ سقطت صريعة في يد الموحّدين[1].

والملاحظ أنّه بالرّغم من الحروب والفتن السّياسية التيّ عرفت الجزائر في الحقبة الزّمنية الممتدّة من مطلع القرن الثّاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري، إلاّ أنّه تمّ تأسيس دولتين عظيمتين أولاهما الرّستمية وثانيهما الحمادية التيّ استفادت من سابقتها كثيرا.

كما امتازت هذه الفترة بتعدد الفرق الدّينية كون "الدّول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك أصلها الدّين إمّا من نبوة أو دعوة حق "[2] فكان العامل الدّيني سائدا وهذّب أخلاق ونفوس الدّين أنشأوا هاتين الدّولتين.

من خلال استعراضنا للحياة السياسيّة يتّضح أنّ الرّستميين كانوا على مذهب واحد ألا وهو المذهب الإباضي في عهد عبد الرّحمن بن رستم، ولكنّهم انقسموا إلى عدّة فرق في ولاية عبد الوهاب بن رستم بسبب كثرة الحروب والفتن، ومن بين تلك الفرق الإباضية والوهابية[3] والنّكارية[4] والخلفية[5] والنّفاثية[6] إضافة إلى فرق أخرى غير إباضية منها الصّفرية والمعتزلة[7]

---

[1] ينظر الموجز في تاريخ الجزائر، يحي بوعزيز، ج1، ص149.

[2] المقدّمة : تاريخ العلاّمة ابن خلدون ، ابن خلدون،دار الكتاب اللبناني بيروت – لبنان ص 277.

[3] الوهابية:انحازوا إلى حزب عبد الوهاب في الصّراع الّذي نشب بينه وبين النّكاروهم يذهبون إلى أنّ القرآن مخلوق و أنّ من أهمّ الواجبات الدينية الصّلاة و الزّكاة و الصّيام و الحجّ.

[4] النّكارية:أنكروا إمامة عبد الوهاب،وسموا بالملحدة لانهم الحدوا في اسماء الله تعالى.

[5] الخلفيةفرقة خلف بن السّمح الدّين ثاروا على عبد الوهّاب لامتناعه عن توليته طرابلس.

[6] النّفاثية: من أتباع نفاث بن نصر و الذّين ثاروا على ذات الإمام.

والمعتزلة[1] والمالكية[2] "وكان لهذه الطّوائف مساجدها وعلماؤها وحلق دروسها وكانوا بتيهرت يجتمعون للمناظرة والمباحثة في دائرة الأدب وقانون العلم بغاية الحرية "[3].

ممّا يدل على أنّ الدّولة الرّستمية كانت تتّسم باحترام حرية الفرق لدّينية الأخرى، ولو كانت غير ذلك، لفرضت المذهب الإباضي الخارجي على كافة السّكان، وإذا عاشت تلك الفرق في وئام وسلام إبّان العهد الرّستمي، فالوضع انتقل إلى خلاف ذلك في العهد الفاطمي، إذ أنّ الفاطميين* أرادوا أن يفرضوا على كثير من النّاس مذهبهم الشّيعي فأرسلوا الدّعاة لنشره.

وخير دليل على ذلك هو أنّ عبيد الله المهدي أمر بتغيير عبارة الآذان في الصّبح وذلك بحذف عبارة الصّلاة خير من النوم وجعل مكانه عبارة حيّ على خير العمل محمد وعلي هما خير البشر كما أمر بقطع صلاة التّراويح وصيام يومين قبل رمضان[4].فوجدت الأفكار الشّيعية طريقها طريقها إلى قلوب النّاس عن طريق الدّروس الّتي كان ينظّمها الدّعاة في مختلف أنحاء المغرب العربي.

أمّا الحماديون فقد اتّبعوا مذهب الإمام مالك، بعد أن ألغى حماد المذهب الشيعي، وفرض مذهب أهل السّنّة، لكن هذا لاينفي وجود مذاهب أخرى، إذ تعايشت طوائف شتى من النّاس بالرّغم من اختلاف مللهم وأجناسهم، فأهل باغاية وودة وسدراتة كانوا على المذهب الإباضي وقبائل كتّامة كانوا أغلبيتهم شيعة لكن تقلّص عددهم لمّا انتقلت

[1] المعتزلة: نسبة إلى واصل بن عطاء الغزال.

[2] المالكية: نسبة إلى مالك بن أنس.

[3] تاريخ الجزائر بين القديم و الحديث ، مبارك الميلي ،ج1،ص79.

* الفاطميون: أصلهم يسمّون هذا الاسم ويقولون أنّهم من سلالة فاطمة الزهراء رضي الله عنها،أمّا أعداؤهم يسمّونهم بالعبيديين وينّهمهم بالدّعاء انتسابهم إلى أهل البيت .

[4] ينظر الجزائر في التّاريخ من الفتح إلى بداية العهد العثماني، رشيد بوروبية، موسى لقبال، عبد الحميد حاجيات، عطا الله دهينة ، محمد بلفراد،م وللكتاب الجزائر، 1984م ،ص181.

خلافة الفاطميين إلى مصر، يقول رشيد بورويبة «لمّا غزا الفاطميون مصر وغادروا إفريقية، رافقهم عدد كبير من كتّامة ولم يبق منهم إلاّ عدد قليل نحو أربعة آلاف»[1].

كما اتّسمت دولة بني حماد باحترام حرية الأديان والمعتقدات، فالمسيحيون كانوا يسكنون قلعة بني حماد وكانت لهم كنيسة مريم العذراء بالقلعة سنة 507ه برئاسة القسّيس عزّون الذي كان يسكن بدار مجاورة للكنيسة وكانوا يسمّونه بالخليفة[2].

إضافة إلى وجود طائفة أخرى من المسيحيين ببجاية برعاية كاهن يدعى سرفاندوس، وقد حمّله النّاصر رسالة ودية إلى البابا جريجوار أخبره فيها بموافقته على تقليد الكاهن أسقفا ببجاية وبعتق عدد من المسيحيين الذّين كانوا رهائن له ووعده بتسريح آخرين[3].

أمّا «اليهود فكانوا بقلعة بني حماد ولاسيما بعد غزو الهلاليين وكانوا يمتهنون التّجارة والطب والصّناعة»[4].

فهذا العرض إن دل على شيء إنّما يدل على ذلك التّسامح الدّيني الّذي عرفته الجزائر في تلك الفترة بالرّغم من تعدد المذاهب والمعتقدات والفرق الدّينية.

[1] الجزائر في التاريخ م س،ص240.

[2] ينظر الأدب في عصر دولة بني حماد، أحمد بن محمدّ أبورزاق، ص 136.

[3] نفسه،ص نفسها.

[4] الجزائر في التاريخ،رشيد بورويبة و أصحابه ، ص 240.

ب الحالة الثّقافية:

لقد شهدت الجزائر إبّان تلك الفترة، قيام عديد من العواصم و المراكز العلمية والثّقافية والفكرية، ازدهرت فيها الحضارة العربية الإسلامية ازدهارا واسعا، وحدثت تطورات كثيرة في شتّى ميادين الحياة المتنوعة.

وكما هو شائع، فإنّ تيهرت تعد أقدم مركز ثقافي نشطت فيه الحياة الثّقافية والفكرية نشاطا كبيرا، فمؤسسها عبد الرّحمن بن رستم كان هو نفسه من العلماء المتضلعين في علوم الدّين والأدب والفقه، يقول صالح بن قربة: أسّس مسجدا كبيرا كمكان للصّلاة والتّدريس وقام بالتّدريس فيه على الرّغم من مشاغله الكثيرة»[1].

ولقد ذكر بحّار إبراهيم بكّير أنّ المصادر الإباضية تنسب إلى هذا الإمام كتابين، أحدهما في التّفسير و الآخر يتحدث فيه عن خطبه الّتي كان يلقيها كلّ جمعة[2].

فهذا يدل على أنّ عبد الرّحمن بن رستم كان عالما ورعا، متفقها في أمور الدّين، دائم الاتّصال بالرّعية، مهتمّا بمختلف العلوم وفي جميع الميادين.

أمّا ابنه عبد الوهاب فهو الآخر كان مثل أبيه في العلم والذّكاء والورع، فكان يلقي الدّروس في المساجد خصوصا بجبل نفوسة حتّى ألّف كتابا أسماه "مسائل نفوسة" وهو عبارة عن الفتاوى التي افتى بها الإمام عبد الوهب للإجابة عن المسائل الدّينية الّتي أشكلت على نفوسة[3].

والمعروف عن الإمام عبد الوهاب أنه كان شغوفا بقراءة الكتب ومطالعتها. قال أبو زكرياء متحدثا عن مواظبة عبد الوهاب وولعه بالعلم والمعرفة:«أنّ عبد الوهاب بعث ألف دينار

[1] عبد المؤمن بن علي، موحّد بلاد المغرب، مديرية الدّراسات التّاريخية و إحياء التّراث الجزائر، ص 89.

[2] ينظر الدّولة الرّستمية، دراسة في الأوضاع الاقتصادية و الحياة الفكرية، مطبعة لافوميك، الجزائر، ص 265 266.

[3] ينظر نفسه، ص267.

إلى إخوانه من أهل المشرق بالبصرة أن يشتروا له ا الكتب، فلمّا وصلتهم الألف، اجتمعوا واتفقوا ان يشتروا بها ورقا ويجعلوا من انفسهم الحبر وعولة الكتاب وأخذوا في النّسخ، فنسخوا له أربعين حملا من كتب، فبعثوا بها إليه، فلمّا جاءته نشرهوقرأها حتىّ أتى على آخرها بأجمعها، فقال: الحمد لله، ليست منها مسألة ليست عندي إلاّ مسألتين، لو سئلت عنهما قسّمتهما إلى نظائرهما من المسائل»[1].

وكما كان شائعا، فإنّ الأئمة الرّستميين عاشوا عيشة الورع والزّهد والتّقشف لأنّ همّهم الوحيد كان الظّفر برضا الله إذ يروي أبو زكرياء أنّه بلغه بأنّ الإمام عبد الوهاب « سمر ذات ليلة، هو وأخوه يتعلّمان مسائلالفرائض، فلم يصبح عليهما إلاّ وهما يورثان أهل المشرق و أهل المغرب وكانا في سمرهما يقدان مصباحا يجعل له عبد الوهاب الفتائل من عمامتهحتىّ أتى عليها »[2].

فهذه الرّوايـة تدل على مدى شغف الإمام عبد الوهاب بالعلم، وزهده في الدّنيا، كيف لا، وهو الّذي كان يدرس مع أخيه تحت نور الفتائل من أجل تعلّم مسائل الفرائض.

أمّا الإمام أفلح، فقد حَظِيَ عصره بتطور وازدهار ليس له مثيل، فقد كان عالما وشاعرا، إذ كانت له دراية بالحساب والفلك، وخير دليل على ذلك مايرويه الدّرجيني قائـلا: « بلغنا أنّه

[1] كتاب سير الأئمة و أخبارهم ص99 100.

[2] ينظر نفسه ص نفسها.

كان في العلوم مثقّفا وعلى أنواعه **متطلّعا، ولقد ذكر أنّه كان** يجلس لأربع حلق وذلك قبل **بلوغه الحلم**»[1].

ممّا يدل على أنّ الإمام كان شغوفا بالعلم منذ صغره كما أنّه حثّ **على دراسة الكتب** وقال : « **عليكم بدراسة كتب المسلمين لاسيّما** كتاب أبي سفيان **محبوب بن الرّحيل***»[2].

وله قصيدة طويلة في الحثعلى طلب العلم يبين فيها مدى أهمّيته و**المكانة العظيمة للعلماء**، ويحط **من قيمة الجهل والجاهل**، كما سنرى ذلك في الباب الأول **من هذا البحث.**

فالأئمة الرّستميون شجّعوا الثّقافة واعتنوا بها سواء الذّين ذكرناهم أو الذّين لم نذكرهم إذ كانوا « **يعقدون مجالس العلم والتّعليم يعلّمون النّاس ويلقون الدّروس عليهم بأنفسهم دروسا عامة بالمساجد** في فنون من العلوم **المختلفة**»[3].

وما يمكن قوله، أنّ دورهم كان بارزا في إنعاش الحياة الفكرية والثّقافية **لما قاموا به من جهود سواء بالحث** على طلب العلم أو بجلب الكتب من **المشرق وبناء المراكز الثّقافية والمساجد والمكتبات**، يقول عبد الرّحمن الجيلالي في هذا الصّدد:« لهؤلاء **الأئمة والولاّة عناية** شديدة بجمع الكتب النّادرة **وجلبها من أي مكان آخر فتكونت** لهم بذلك خزانة دار الإمارة **المشهورة بمكتبة قصبة المعصومة وكان فيها من نوادر المخطوطات ونفائس الكتب ما يؤسف**

[1] طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق وطبع إبراهيم طلاي،ج1، مطبعة البعث، قسنطينة،الجزائر (د ت) ص77.

* محبوب بن الرّحيل أبو سفيان من الأوائل الّذين كتبوا في سير الإباضية و التّابعين، أمّا كتابه فهو في تاريخ و آثار الحركة الإباضية

[2] الدّولة الرستمية ، بخّار إبراهيم بكّير ص 270.

[3] تاريخ الجزائر العام، عبد الرّحمن الجيلالي، ج1، ص174

لفقده اليوم»[1].إذ خرّ ا الفاطميون بعدما أخذوا منها أهم الكتب وأجودها، ففقدت هذه الخزانة العامرة ثلاثمائة مجلّد في ظلّ الاحتلال الفاطمي[2].

والمؤسف أنّ إحراق مثل هذه المكتبات يغطّي على معالم وخيوط، إذ بقيت الكثير من الحقائق التّاريخية والنّشاطات الثّقافية والعلمية والفكرية مجهولة بسبب ضياع أنفس الكتب الرّستمية.

لكن بالرّغم من الحروب والفتن الّتي عرفتها الدّولة الرّستمية، فإنّ هذا لم يمنع من تعليم شرائح المجتمع المختلفة، فكانت تيهرت دار هجرة للعديد من العلماء والمثقفين والأدباء والمفكرين المشارقة والأندلسيين، ومن أبرز الّذين استقر م المقام في تيهرت على عهد أبي اليقظان الفقيه ابن الصّغير المالكي، وعلى الرّغم من أنّنا لا نعرف الكثير عن حياته، سوى أنّه نزل غريبا على تيهرت، إذ اتّضح ذلك من خلال المناظرة التيّ جرت بينه وبين رجل من الإباضية حين قال له ذلك الإباضي: " من أين زعمت وزعم أصحابك وغيرهم من الحجازيين والعراق»[3]. فإنّنا نعلم أنّه أرّخ للأئمة الرستميين كتابا عنونه " أخبار الأئمة الرستميين" إذ يعتبر المصدر الوحيد لتاريخ الدّولة الرستمية اعتمدته فيما بعد المصادر الإباضية.

ولو لم تكن تيهرت منبع العلم والفكر والثّقافة ولو لم تكن سمعة الأئمة الرّستميين طيّبة ومكانتهم عالية سواء بين البلدان المجاورة وبين دُول المشرق والأندلس لمَا اهتم ابن الصّغير بها لهذه الدّرجة، وألف كتابا لأئمّتها، فحفظ لنا بذلك الكثير من الوقائع.

[1] تاريخ الجزائر العام، م س،ص75.

[2] ينظر نفسه،صن نفسها.

[3] أخبار الأئمة الرستميين،ابن الصّغير،ص80.

فنشطت الحياة الثّقافية والفكرية بوفود العلماء والمفكّرين إليها الّذين ساهموا كثيرا في إثراء ميادين الحياة بمختلف الأنشطة.

كما شجّعت تيهرت الكثير من أبنائها على الرّحلة في طلب العلم والّذين كان من أشهرهم بكر بن حماد التّاهرتي الزّناتي الّذي وُلد بتيهرت سنة 200ه ثمّ انتقل إلى القيروان لتلقّي العلوم، وبعدها ذهب إلى المشرق فأخذ العلم عن كبار الفقهاء والمحدثين:"فكان له اتّصال بالخليفة العباسي وكانت له هناك مقابلات مع بعض الشّعراء أمثال حبيب وضريع ودعبل وعلي بن الجهم"[1]. ثمّ عاد إلى القيروان سنة 239ه "فأخذ عن عون بن يوسف الخزاعي وسحنون ابن سعيد بالقيروان،ثمّ تصدّر لإملاء الأدب والعلم بجامعها الكبير، فارتحل إليه الكثير من أهل إفريقية والأندلس للأخذ عنه،وفي سنة 295ه عاد إلى تاهرت فتوفي بعد سنة من عودته"[2].

وما يمكن قوله عن بكر بن حماد أنّه قضى حياة علمية حافلة في مختلف الميادين الفكرية والثقافية، فكان سفيرا للثّقافة مثلما يقول عبد الكريم جودت:"إنّ خير من يمثّل العلاقة الثّقافية بين البلدان هو السّفير الثّقافي المتجول بكر بن حماد"[3].

فبكر بن حماد مثّل الترّابط الثّقافي بين تيهرت ومختلف البلدان سواء المجاورة كسجلماسة وفاس والقيروان أو بين بلدان المشرق والأندلس، يقول عبد الملك مرتاض في هذا الصّدد:"يبدو أنّ بكر بن حماد كان أوّل شخصية فكرية جزائرية صميمة ميلادا ومنشأ ونسبا ودارا ترقّى إلى تبوء شهرة عربية في المشرق و المغرب والأندلس "[4].

[1] الفضاء المغاربي،مقال بعنوان الإنتاج الفكري الجزائري في العهد الرستمي،د:معروف بلحاج.العدد الثّاني- تلمسان 2004م ص246.

[2] معجم أعلاه الجزائر،عادل نويهض،مؤسسة نويهض الثّقافية للتّأليف و الترّجمة و النّشر بيروت ط2 1403ه ص58 59.

[3] العلاقات الخارجية للدّولة الرستمية، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 م ،ص200.

[4] الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور دار هومة ،2003 م– ص39.

ولقد استفاد العديد من الأدباء من رحلام العلمية على غرار بكر في العهدين الفاطمي والزّيري، سواء بشد الرّحال من الجزائر إلى مختلف العواصم الإسلامية كالطّبني* وابن رشيق** صاحب كتاب العمدة في صناعة الشّعر ونقده، أو بالوفود على الجزائر كابن هاني*** الذي كان كثير المدح للدّولة الفاطمية، كما سنرى، وغيرهم من الّذين مثّلوا الأواصر الثّقافية، وحرصوا على تقوية الرّوابط مع المراكز الفكرية في المغرب والمشرق والأندلس فساهموا بذلك في تطوير الأدب وازدهاره.

أمّا العهد الحمادي، فكان عصر ازدهار ونشاط لوجود مدينتين ثقافيتين هامتين وهما القلعة وبجاية .

فالأولى بناها حماد بن بلكين حيث شاد القصور والمساجد والمدارس والأسواق، فنشطت الحياة الثّقافية و الفكرية، يقول عبد الرّحمن بن خلدون في هذا الصّدد:«فاتّسعت القلعة بالتّمدّن ورحل إليها من الثغور القاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصّنائع، لنفاق أسواق المعارف والحرف والصّنائع بها»[1].

وبذلك أصبحت القلعة منارة مشعة يقصدها العلماء والمثقّفون والمفكّرون من مختلف الأنحاء إلى أن خرّبها الهلاليون.

---

*يُكنى بأبي عبد الله من بيت أدب ورياسة، من أهل طبنة دخل الأندلس سنة323ه إلى أن توفي بقراطبة سنة (394ه).

** هو أبو علي الحسن بن رشيق ولد بالمسيلة سنة 385ه تلقى علومه الاولى بها ثمّ انتقل إلى القيروان فبلغ شهرة واسعة، ونبغ في الشعر و النقد إلى ان توفي بها سنة 456ه.

*** هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي الأندلسي 326ه شاعر مجيد ولد بالأندلس ثمّ تلقى دروسه بإشبيلية وقصد الجزائر فنزل بالمسيلة قاعده الزّاب حيث ذاعت شهرته،مات مقتولا ببرقة سنة 362ه

[1] الأدب في عصر دولة بني حمّاد،أحمد بن محمد أبورزاق،ص139.

والأخرى أسسها النّاصر بن علّناس كما ذكرنا آنفا، فبلغت من التّقدم والازدهار مبلغا عظيما، وانتعشت الحياة العلمية والفكرية والثقافية، إذ أنشأ النّاصر المذكور معهد "سيدي التّواتي" الذي كان يحتوي على ثلاثة آلاف طالب وتدرّس فيه كلّ المواد بما فيها العلوم الفلكية، وخلال مؤتمر علمي ألقت طالبة من هذه الجامعة محاضرة لمدّة ثلاثة أيّام حول بروج الشّمس أمام مجموعة من العلماء والأدباء[1].

ممّا يتّضح بأن التّعليم تطور أكثر فأكثر في العهد الحمادي إذ أصبح يشمل لونا من ألوان التّعليم الجامعي على خلاف العهود الّتي سبقته والّتي كانت تقتصر على التّعليم في الكتّاب والمساجد و المدارس وبعض العلوم، وهذا ما يؤكّده أحمد بن محمد أبو رزّاق قائلا:"صارت بجاية دار هجرة أمّها العلماء و المحدثون والأدباء من الأندلس وغيرها واستوطنوها فازدهرت الحياة الفكرية ا،ولم تكن مقتصرة على علوم الدّين و العربية والرّياضيات، بل شملت الصّناعات المتنوعة من طب"[2].

ممّا يدل على أنّ بجاية صارت معدن العلم والعلماء، فأصبحت تضاهي قرطبة والقيروان، وأسّس ملوكها المدارس والجوامع التيّ درّسوا بها مختلف العلوم والاداب، وعقدوا المجالس العلمية، كما كانوا يغدقون على الشّعراء والعلماء[3].

يقول عبد الله شريط في هذا السّياق :"فكانوا يغدقون صِلاتهم على العلماء والأدباء فأقبلوا إليهم من كلّ جهة فازدهرت تلك الحركة العلمية وانتعشت الثّقافة في جميع الأوساط المختلفة حتىّ كان العمى ينالون حظّهم منها، وقد يحفّز الطّموح بعض الموهوبين منهم

[1] ينظر دولة بني حمّاد – د : عبد الحليم عويس – دار الشروق – ط1 –1980م ص254.

[2] الأدب في عصر دولة بني حماد، ص 140 141.

[3] ينظر الفضاء المغاربي: مقال بعنوان حركة التّأليف في الحضارة الحمادية، أمحمّد مكحلي،ص 271.

أن يصلوا إلى مرتبة الأستاذية والإقراء بمختلف المجالس العلمية وهذه الدّرجَة لا تظهر في وسط إلاّ إذا كان أهله يتمتّعون بمستوى ثقافي رائع»[1].

و الظّاهر أنّ الدّولة الحمادية كانت مفعمة وزاخرة بمظاهر الحضارة الرّاقية نظرا لاهتمام ملوك بني حماد بالتّعليم وتشجيع الموهوبين والمكفوفين بتحفيزهم على طلب العلم مقابل جوائز وهدايا قيّمة.

وكما هو معروف أنّ كلّ من القلعة وبجاية استقطبتا عددا كبيرا من المشارقة والأندلسيين والمغاربة، نكتفي أن نذكر ابن النّحوي* وابن حمديس**.

فالأوّل استقر به المقام بالقلعة، وكان من أهل العلم والفضل، عاش طوال حياته عابدا زاهدا متطلعا على مختلف العلوم حتى شُبّه بالغزالي علما وعملا، مثلما يقول محمّد بن علي بن حماد : «كان أبو الفضل ببلادنا المغرب الأوسط كالغزالي في العراق علما وعملا»[2].

والثّاني كان دائم الوصف للقصور البجائية، معجبا بمزخرفاتها الفنية، كما سنرى في الباب الموالي.

فهذا العرض يبيّن الدّور الذي أدّته الدّولة الحمادية وكان مشرّفا سواء في القلعة أو بجاية، فكانتا مصدرا رقي فكري ودارا علم وأدب.

[1] الجزائر في مرآة التّاريخ، عبد الله شريط ومحمّد الميلي – ص70.

* هو أبو الفضل يوسف بن محمّد بن يوسف التّوزري الأصل، المعروف بابن النّحوي ولد سنة 433 ه بتوزر،زار المغرب الأقصى وسكن سجلماسة ثم ارتحل إلى المغرب الأوسط و استقرّ بالقلعة إلى ان توفي بها سنة 513ه.

** هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الآزدي الصّقلي ولد سنة 446ه بسرقوسة نشأ بها ثم هاجر إلى الأندلس ونزل على المعتمد بن عبّاد صاحب إشبيلية، وكان دائم المدح له، وبعد وفاته دخل المغرب الأوسط و استوطنه مقيما تارة بتاجنة وطورا ببجاية إلى أن توفي ا سنة 527ه.

[2] معجم أعلام الجزائر ، ص369.

من خلال هذا العرض، يتّضح أنّ الحياة الفكرية والثّقافية بالجزائر من مطلع القرن الثّاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري، كانت مزدهرة وبلغت من الرّقي والتّطور والازدهار مبلغا عظيما وذلك نظرا للاحتكاك بالمشارقة والأندلسيين والمغاربة سواء بشد الرّحال في طلب العلم أو بالوفود على العواصم الثقافية فمكانة كلّ من تيهرت والقلعة وبجاية الحضارية لا تقلّ شأنا عن العواصم المغربية والمشرقية والأندلسية، إضافة إلى أنّ معظم الأئمة الرّستميين والملوك الحماديين كانوا علماء وفقهاء وأدباء يهتمّون بمختلف العلوم وفي شتى المجالات ويقرّبون كلّ من له صلة بالثّقافة والفكر ويشجّعونه، فأخصب الفكر والإبداع وأنجبت الجزائر رجالات أكفّاء بلغوا مكانة عالية وساهموا في بناء صرح الحضارة العربية والإسلامية و إثرائها.

وما يمكن قوله، إنّ التّطرّق للحياة السّياسية والدّينية والثّقافية ولو بنبذة موجزة يساعدنا على معرفة نوع النّصوص الأدبية التي ظهرت في تلك الفترة .

الباب الأول

الشّعر الجزائري القديم

من مطلع القرن الثّاني الهجري

إلى نهاية القرن الخامس الهجري

الباب الأوّل:

الشّعر الجزائري القديم من مطلع القرن الثّاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري

الفصل الأول: الوصف

الفصل الثاني: الغزل

الفصل الثالث: المدح

الفصل الرابع: الهجاء

الفصل الخامس: الزّهد

الفصل السّادس: الرّثاء

الفصل السّابع: شعر الحكمة

إنّ الشّعر هو الكلام الموزون المقفّى المعبرّ عن الأخيلة البديعة والصّور المؤثّرة البليغة، و الّذي يعالج بأسلوب مشرق يتسامى إلى لغة الخطاب.

و لقد قسّم الشّعر إلى ثلاثة أنواع: الشّعر الغنائي وهو النّابع من الوجدان المعبرّ عن الشّعور الّذي يؤثّر في المتلقي ويتجاوب معه و هو الّذي يشمل الأغراض المعروفة من وصف و غزل ومدح ورثاء وزهد وحكمة ..وهلمّ جرّا، أمّا الشّعر القصصي، فهو نظم الأحداث التّاريخية والوقائع الحربية والمفاخر القومية في شكل قصّة، بينما الشعر التمثيلي فهو الّذي يعمد فيه الشّاعر إلى تمثيل الواقع في قالب شعري[1].

و بما أنّ الشّعر الغنائي هوأشهر الأنواع الشّعرية والأكثر تداولا عند العرب، فإنّ الشّاعر الجزائري هو الآخر نظم في هذا النّوع، وقبل أن نتطرق إلى أهم الأغراض الّتي عالجها، لابأس أن نذكر عوامل نشأة هذا الشّعر الّتي يمكن تلخيصها في الآتي:

- انتشارالإسلام أسهم في نشر عقائد الدّين وحكمه والترّهيب من الدّنيا والترّغيب في الآخرة والتّذكير بالموت والاعتبار من الأمم السّابقة فكان الشّعراء زهادا و اعظين وحكماء موجهين.

- كثرة الحروب والفتن وتدمير المدن جعلت الشّعراء يبكون ذويهم واهليهم ومدنهم وعلماءهم و أحيانا حتىّ نفوسهم في مراث حزينة.

- الإشادة بمناقب الأمراء والخلفاء و بطولاتهم وحروبهم، وتقريب الشّعراء إليهم، فكانوا يمدحوم بقصائد قيّمة.

- جمال طبيعة الجزائر و عمرانها، فكان الشّعراء يتغنون بها ويبدعون في وصفها.

- جمال المرأة أو هجرها وبعدها عن الحبيب، سمات جعلت الشّعراء يتغزلون بها أو يشكون فراقها.

[1] ينظر مدخل إلى الأدب العربي، سليمان معوض، المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس لبنان 2008 ص 95 و ما بعدها

- **صفات الشّخص الدّنيء** و مثالبه جعلت الشّعراء يهجونه ويلحقون به شتائم **ولعنات** شتى.

وهنا يتبادر إلى أذهاننا **سؤال وهو: ما هي أهم الأغراض الشّعرية** الّتي نظم فيها الشّعراء **الجزائريون ؟ ومن هم شعراء تلك الفترة ؟ وهو** ما سنحاول الإجابة عنه في هذا الباب.

الفصل الأوّل

الوصف

لا يخفى على أحد، أنّ الوصف هو أساس الأغراض الشّعرية لأنّه كما يقول ابن رشيق: "الشّعر إلاّ أقلّه راجع إلى باب الوصف"[1]، بيد أنّ الوصف الّذي نقصده في هذا الفصل هو وصف الطّبيعة من جو وأنهار وبرك وما إلى ذلك، و وصف العمران من قصور ومعالم وما شابهها.

وقد تعددت أنواع الوصف لتشمل الكواكب والنّجوم، ورهبة اللّيل بسكونه ودجاه، والضّباء وحمر الوحش في مراتعها، كما انصرف هذا الوصف إلى الطّرائد والصّيادين، وهلّم جرّا؛ "ولعلّ أرقى الأوصاف وأنفسها وأشهرها في الأدب العربي تلك الّتي تصادفنا في المعلّقات السّبع وخصوصا في معلّقة امرئ القيس*"[2]، حيث يقول في وصف اللّيل:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ بَحْرٍ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ أَرْدَفَ أَعْجَازًا، وَ نَاءَ بِكَلْكَلِ
أَلاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلاَ انْجَلِي بِصُبْحٍ وَ مَاالْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مُغَلْقَتْلِ ، شُدَّتْ بِيذبَلِ [3]

وعلى الرّغم من مرور الزّمن على معلّقته، فإنّها كانت ومازالت المثل الأعلى لكل شاعر عربي في هذا الغرض[4].

---

[1] العمدة في محاسن الشّعر و آدابه، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا ج2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 2001م ، ص 230.

* هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي من أشهر شعراء الجاهلية (540م).

[2] الأدب الجزائري القديم: دراسة في الجذور، عبد الملك مرتاض، ص 61.

[3] المعلّقات العشر، فوزي عطوي، تقديم: يونس سلامة، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت . 1969م، ص 34 35.

[4] ينظر الأدب الجزائري القديم، عبد الملك مرتاض، ص 61.

و كما نبغ امرؤ القيس في معلقته بوصف اللّيل والطّلل والفرس في الجاهلية، نبغ البحتري* في العصر العباسي فتعددت مواضيعه الوصفية بين وصف للطّبيعة بأزهارها وأشجارها وطيورها وبين وصف للعمران من قصور ومزخرفات فنية.

غير أنّ الحديث عن وصف الطّبيعة والعمران في الشّعر العربي بعامة لا يهمّنا كثيرا بقدر ما يهمّنا الحديث عن الشّعر الجزائري الّذي هو موضوع البحث؛ ومن النّماذج القليلة الّتي وصلتنا، مقطوعة للشّاعر الجزائري بكر بن حماد يصف فيها قساوة الطّبيعة في تيهرت إبّان فصل الشّتاء، فيقول:

مَا أَخْشَنَ بَالْوَدَ و رِيْعَانَـــهُ وَ أَطْرَفَ الشَمْسَ بَتَاهَـــوْت
تَبْلُو مِنَ غَيْلَمِ إِذَا مَا بَدَتْ كَأَنَّمَا تُنْشَرُ مِنْ تَخْـــت
نَحْنُ فِي بَحْـــرٍ بِـــلاَ لُجَّـةٍ تَجْرِي بِنَا الرِّيحُ عَلَى السَّمْت
نَفْرَحُ لِشَمْسِ إِذَا مَا بَدَتْ كَفَرْحَةِ الذِّمِـــيِّ بالسَّبْـت [1]

فابن حماد وصف شدّة البرودة في تيهرت و كثرة الغيوم بها، كون الشمس تبدو محجبة دائما من وراء تلك الغيوم وكأنّما تنشر من تـ ـخ، لدرجة أنّ م يفرحون بطلوعها كفرحة اليهودي بالسّبت يوم عيده الأسبوعي، و مع ذلك، فقد كان وصفه سطحيا لأنّ "الغاية من هذا الوصف هي إخبارنا ببرودة الطّقس في تاهرت"[2].

وخير دليل على هذا تلك القصة الّتي أوردها البكري قائلا: "نظر رجل من أهل تاهرت إلى توقّد الشّمس بالحجاز فقال: احرقي ما شئت فوالله إنّك بتاهرت لذليلة"[3].

*هوأبوعباذة الوليد بن عبيد الطائي من شعراء العصر العباسي الثاني(284ه)
[1] المسالك و الممالك، البكري، ص 67.
[2] الأدب الجزائري القديم، عبد الملك مرتاض، ص62.
[3] المسالك و الممالك، البكري، ص67.

غير أنّنا في العهد الفاطمي نجد ابن هاني يصف الزّهور ويبدع في وصفها، إذ أنشد هذه القطعة في مجلس جعفر بن علي، حيث يقول:

و ثَلاَثَتُهُمْ تجْتَمِعْ في مَجْلِسٍ إلاَّ لمثْلكَ وَ الأديبُ أَرِيبُ
الْوَرْدُ في رَامِشْنَقٍ* نَرْجِسٍ وَ الياَسَمِينُ وَكُلّهُنَّ غَرِيبُ
فاحْمَرَّ ذا وَ اصْفَرَّ ذَا وَ ابْيَضَّ ذا فَبَدَتْ دَلاَئِلُ أَمْرُهُنّ عَجِيبُ
فَكَأَنَّ هَذَا عَاشِقٌ وَ كَأَنَّ ذَا كَ مُعَشَّقٌ كَأَنّ ذَاكَ رَقِيبُ[1]

فالمتأمّل لأوّل بيت في هذه القطعة، يظن أنّ ابن هاني يقصد ثلاثة أصناف من بني الإنسان، وإذا به في الأبيات الموالية يصف باقة من الزّهور مختلفة الألوان و الأشكال، فالورد باحمراره كأنّه عاشق والنّرجس باصفراره لون المعشّق إذا جفاه الحبيب، والياسمين الأبيض مثل الرّقيب لا يليقون إلاّ بمقام جعفر بن علي، فنمّق تلك الباقة في قالب شعري متميز.

والظّاهر أنّ ابن هاني كان مغرما بجماليات الطّبيعة، وإلاّ كيف له أن يصف الرّمان الذي يزيّن الأشجار وعندما تفتحه تجده أحمرا مثل الدّم وكأنّه نشأ في تربة شديدة الاحمرار أو سقي بالخمر، يقول:

وَ بنت أَيْكٍ*كَالشَّبَابِ النَّضِرِ كَأَنَّهَا بَيْنَ الغُصُونِ الخُضْرِ
جَنَانُ بازٍ أو جَنَانُ صَقْرِ قد خلّفته لقوّة بوكر
كَأَنَّمَا مَجَّتْ** دَمًا مِنْ نَحْرِ أَوْ نَشَأَتْ في تُرْبَةٍ مِنْ جَمْرِ
أَوْ رُوِيَتْ بِجَدْوَلٍ من خَمْرِ أَوْ كَفَّ عَنْها الدَّهْرُ صَرْفَ الدَّهْرِ[2]

رَامِشْنَة: ورقة آس لها رأسان.

[1] ديوان ابن هاني الأندلسي، كرم البستاني، دار بيروت للطّباعة و النشر، 1980م، ص58.

* بنت أيكٍ: أراد زهرة الرّمان.

** مجّت: بصقت.

[2] نفسه ،ص 175.

أمّا الطّبني فيسعده شدو الحمائم وهي تغرّد في الضّحى فوق أغصان الشّجرة، مثلما يسعده ألفة الصديق الوفي؛ فيقول:

لَعُمْرِي أنيّ لِلْحَمَائِم فِي الضُّحَى إذا غَرَّدَتْ فَوْقَ الغُصُونِ لَوَامق

وَ أَسْعَدَنِي منها صديقة أَيْكَةٍ كَمَا يسعد لِإِلْف الصَّدِيقِ المصادق[1]

كما وصف جميع الحالات الّتي يكون عليها النّهر، فأضفى حلّة جمالية من الفضّة، تجعلك تتخيل النّهر وقت سيلانه ووقت استقامته ووقت استدارته، يقول:

وَ النَّهْرِ مَكْسُو غلالة فِضّةٍ فإذا جرى سيل فثوب نضّار

وَ إذا استقامَ رَأَيْت رونق منصلٍ و إذا استدار رأيت عِطف سوار[2]

ولقد وصف ابن قاضي ميلة* عود الشّجرة قائلا:

جَاءَتْ وَبِعُودِنَا غِيهَا وَ يُسْعِدُهَا انْظُرْ بَدَائِعَ مَا يَأْتِي بِهِ الشَّجَرُ

تَتَغَنَّى عَلَيْهِ ضُرُوبُ الطَّيْرِ سَاجِعَةً حِينًا فَلَمَّا ذَوَى غَنَّى بِهِ الْبَشَرُ

فَلاَ يزالُ عَلَيْهِ الدَّهْرَ مُصْطَخِبٌ يَهِيجُهُ الْأَعجمانِ الطَّيْرُ والْوَتَرُ[3]

فالشّاعر هنا يدعونا للتّأمل في عظمة الشّجرة، وعجائب ما تأتي به إذ جعلنا نسمع تغريد الطّيور على عودها وهو موصول بها، حوّلا قطع منها ويبس غنىّ به الإنسان بما شدّ عليه من أوتار، فصار هذا العود أداة للتغني عليه وبه يهيجه طوال حياته الطّير و الوتر.

وها أنّ الشّجرة جزء من البستان، فإنّ الشّاعر الأريسي** يقف عنده متأمّلا متأثّرا فيقول:

يَفِيضُ بِالْمَاءِ منه كلّ فوهة لكلِّ فَوّارَةٍ بالْمَاء تَنْدَرِف

كَأَنَّهَا بَيْنَ أَشْجَارٍ منَوَّرَة ظَلَّتْ بمستحْلس اللَّبْلاَب تَسْتَجف

مَجَامر تَحْت أَثْوَابِ مُجلْبَبَة عَلى مساجبها دخّانها يهف[4]

---

[1] تاريخ الأدب الجزائري، محمد الطّمار، تقديم: اعبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية،2006 م، ص93.

[2] نفسه، ص 94.

* هو أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخي ولد بميله في بيت علم و أدب و شاعر كبير كان معاصرا لابن رشيق مجهول الولادة و الوفاة.

[3] وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزّمان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عبّاس، مج5، دار صادر بيروت ،1968 م ،ص 348.

**هو أبو الحسن يعلى بن إبراهيم بن عبد الخالق الاريسي الشاعر ولد بالاوراس فتلقى بها مبادئ العربية ثم ارتحل إلى القيروان وعاش بها.

[4] حياة القيروان و موقف ابن رشيق منها، عبد الرحمن باعي ،بيروت ،1961 م ،ص 154.

إنّ الأريسي بهذا الوصف، كأنّما يريد منّا التّجول في هذا البستان، إذ أنّه بخرير مياهه وتدفقها بين الأشجار المثمرة وصعود الدخّان جلنا معه وجعلنا نرسم البستان في مخيّلتنا.

و من وصف للطّبيعة ننتقل إلى وصف للحيوان الذي هو جزء منها وأوّل من نتناول شعره في هذا المضمار هو عبد الكريم النّهشلي* الذي يصف فيلا قائلا:

وَ أَضْخم هِنْدِيّ النَّجَـارِ تُعِـدُّه مُلُـوكُ بَنِي سَاسان إِنْ رَابَهَـا أَمْـرُ
مِنَ الْوُرْقِ لاَ مِنْ ضَرَا الْبُورْقِ تَرْتَعِي ناخَ أَصَلاَ مِنْ وِرْده الخَمْسُ و الْعشْرُ
يَجيءُ كَطَوْدٍ جَائِلٍ فَوْقَ أَرْبَعٍ مُضَبَّرةٍ لُمَّتْ كَمَا لُمَّت الصَّخْـرُ[1]

فالنهشلي يصف الفيل بأنّه ضخم هندي الأصل، كانت تعتبره ملوك الفرس قائدها حين يخيفها أمرا، فضربته قاضية، هو كالجبل يتحرّك فوق أربع مكنزة اللّحم والعظم تلاحمت أجزاؤها واجتمعت كتلاحم أجزاء الصّخر.

وفي الأبيات الّتي تلي وصف دقيق للفيل، حيث يقول:

لَهُ فَخِذَان كَالْكَثِيبَيْنِ لُبِّـدَا وَ صَكَمْرَا أَوْفَى مِنْ الْهَضَبَةِ الصَّدْرُ
وَ وَجْه بِهِ أَنْفكَرَاووق خمْـرَةٍ يَنَالُ بِهِ مَا تُدْرِكَ الأَنْمـلُ الْعَشْـرُ
وَكَأَخْنَفِ الْبَرْدِ تُسْمِعُهُ النَّدَا خِيفٍ وَ طَرْف ينفض الْغَيْـبَ مُـزَوَّرُ
وَنَابَانِ شُقَّا لاَ يُرِيدُ سِوَاهُمَـا قناتين سَمْرَاوَيْنِ طعنهمـا نَثـرُ
لَهُ لَوْمَا بَيْنَ الصَّبَاحِ وَ لَيْلِـهِ إِذَا نَطَقَ الْعُصْفُورُ أَوْ عَسَ الصُّقْرُ[2]

وما يمكـن ملاحظته هو أنّ النّهشلـي وصف جميع ملامـح الفيـل وكأنّه يصف إنسانا، ففخذاه غليظان كأنهما كثيبان متراكمان، وصدره عريض، وجهه به أنف طويل طول عنق إبريق الخمر ينال به ما يناله الإنسان بأصابعه العشرة، قوي السّمع، ناباه متفرقان، أمّا لونه الرّمادي

* هو عبد الكريم بن ابراهيم النهشلي ولد بالمحمدية، تلقى بها علومه الاولى، ثم انتقل إلى القيروان و عاش بها، و هو من شيوخ ابن رشيق، كان شاعرا و ناقدا بارعا (مجهول الولادة و الوفاة).

[1] العمدة، ابن رشيق، ج2، ص 232.

[2] نفسه، ص 232، 233.

فقد جمع بين البياض والسّواد، و **كأنّما أخذه** من الضّحى وقت تغريد الطّير و **من لج الظّلام أثناء غلوس الصّقر.**

وفي نفس السيّاق يصف ابن رشيق زرافة أتت للمعز بن باديس **هدية من مصر إذ يقول:**

وَتُتْلِفُهُنَّ كَسْبِ الْمُلُوكِ زَرَافَةٌ شَتَّى الصِّفَاتِ لكونها أُنْبَاءُ
جَمَعَتْ مَحَاسِنَ مَا حَكَتْ فَتَنَافَسَتْ فِي خَلْقِهَا وَ تَفَاتِ الأَعْضَاءُ
تَحْتَثُّهَا بَيْنَ الحواني مِشْيَةٌ بَادٍ عَلَيْهَا الكِبْرُ وَ الغلوَاءُ
مُوَطَّدَ تَجِيدًا فِي الْهَوَاءِ يَزِينُهَا فكأنّه تَحْتَ اللِّوَاءِ لِوَاءُ
حُطَتْ مَآخِرُهَا وَأَشْفَرَ صَدْرُهَا حَتَّى كأنّ وُقُوفَهَا إِقْعَاءُ[1]

نجد ابن رشيق يبالغ في وصف الزّرافة فجعلها جميلة خلقا وخُلُقا.

أمّا **وصف جو**الطّبيعة، فكان له حظّ في شعر ابن رشيق بحيث وصف الشّتاء قائلا:

خَلِيلَيَّ هَلْ لِلْمُزْنِ مُقْلَةُ عَاشِقٍ أم النَّاقِرِي أَحْشَائِهَا وَهِيَ لا تَدْرِي
سَحَاجَكَتْ تَكْلَى أُصَيْبَتِوَاحِدٍ فَعَاجَتْ لَهُ نَحْوَ الرِّيَاضِ عَلَى قَبْرِ
تَرَقْرَقَ دَمْعًا خُدُودٍ تَوَشَّحَتْ مَطَارِقُهَا بِالْبَرْقِ طِرْزًا مِنَ النَّبْرِ
فَوَشِّي بِلا رَقْمٍ وَ نَسْجٍ بِلا يَدٍ وَ دَمْعٍ بلا عَيْنٍ وَ ضِحْكٍ بلا ثَغْرِ[2]

فتغيرّ لون السّماء عند ابن رشيق وانتشار السّحب ما هو إلاّ تأثر بالثّكلى الّتي فقدت ابنها وظلّت تبكيه طوال حياتها أمام قبره، فأشفقت عليها السّحب وشار **كتها**الدّموع، **وبذلك** ومض البرق وتهاطلت الامطار.

[1] ديوان ابن رشيق،جمعه وحققه وشرحه:د محي الدين ديب،إشراف:ياسين الأيوبي ،المكتبة العصرية بيروت،ط1،1998م 1418ه، ص 34.
[2] نفسه، ص 78.

ووصف البحر قائلا:

لِلْحُوتُ طِينًا وَ ماء ٱلبَحْرِ يُتْلِفُـــهُ وَ القلب فِيه نُفُور مِنْ مَرَاكِبِـــــهِ

و البحر خير رفيق بِالرِّفِيقِ بِـــهِ وَ البِرّ مِثل اسمه برّ بِرَاكِبِـــــهِ[1].

ففي هذه الأبيات، يبدي موقفه من البحر الهائج الّذي يؤدّي إلى هلاك الإنسان ويتحدث عن البحر الهادئ الّذي يرفق بصاحبه، أمّا البر فهو عنده محل أمان؛ غير أنّ ابن رشيق بوصفه هذا امتاز بنوع من السّطحية.

كما وصف الفواكه مثل التّفاحة الّتي قال عنها:

وَاحُقَّةٍ مِنْ كفٍ ظَبيٍ أَخَذْتُهَـــا جَنَاهَا مِنَ ٱلغُصْنِ الذِي مِثْلُ قَـدِّهِ

حَكَتْ لَمْهَدَيْهِ وَ طِيبَ نَسِيمِهِ وَ طَعْمَ ثَنَايَاهُ وَ حُمْـرَةَ خَـــدِّهِ[2].

فالتفاحة الّتي وصفهـا ابن رشيق حمراء اللّـون، لذيـذة الطّعـم، طيّبـة الرّيـح، كيف لا، وهي تشبه ذلك الغلام ٱلذي أعطاه إيّاها، وبذلك تنازع في هذه الأبيات وصف الفاكهة الّتي هي جزء من الطّبيعة مع وصف الفتى ٱلذي هو من البشر، ممّا دل على حس ابن رشيق الطّبيعي والشّعوري في آن واحد.

ومن الّذين نبغوا في الوصف فأجادوا وأبدعوا، نجد ابن حمديس الّذي كان كثير الوصف للقصور البجائية، ومثالنا على ذلك رائيته الّتي وصـف فيها قصرا ملكيـا، مستهلّهـا بالتّنويه بمجد المنصور ٱلذي شيّـد القصر فأحسـن تشييده وبذلك ضاهـى بل سمـا على قصـور بني ساسـان إذ يقـول:

[1] أدب المغرب العربي قديما، عمر بن قينة،ديوان المطبوعات الجامعية،ط3، 1994م،ص 79.

[2] نفسه، ص79.

وَ اُعْمُرْ بقَصْرِ المَلِك نَادِيكَ الّذِي أَضْحَى بِمَجْدِكَ بَيْتُه مَعْمُورَا
قَصْلُورْ أَنَّكَ كَحَلْتَ بِنُورِه أَعْمَى لَعَادَ إلى المَقَامِ بَصِيرَا
وَاشْتُقْ مِنْ مَعْنَى الحَيَاةِ نَسِيمُهُ فَيكَادُ يُحْدِثُ لِلعِظَامِ نُشُورَا
نَسِيَ الصّبيحُ مَعَ المَلِيحِ بِذِكْرِه وَ سَمَا فَفَاقَ خَوَرْنَقًا* سَدِيرَا**
وَ لَوْ أَنّ لِإِيوَانِ*** قُوبِلَ حُسْنُهُ مَا كَانَ شَيْئًا عِنْدَه مَذْكُورَا
أَعْيَتْ مَصَانِعُهُ عَلى الفُرْسِ الأُولَى رَفَعُوا البِنَاءَ وَ أَحْكَمُوا التّدْبِيرَا
وَ مَضَتْ عَلَى لُزُومِ الدّهُورُ وَمَا بَنُوا لِمُلُوكِهِمْ شَبهًا وَ نَظِيرَا[1]

وبعد ذلك يذكر جولته رفقة المنصور الّذي أطلعه بنفسه على غرف القصر وتصاميمه المحكمة البناء الفريدة النّوع حتى ّ ظنّ نفسه وكأنّه في جنّة عَنّاء فردوسية، فيقول منبهرا بجمال القصر، مادحا المنصور مرة ثانية:

أَذْكَرْتَنَا الفِرْدَوْسَ حِينَ أَرَيْتَنَا غُرَفًا رَفَعْتَ بِنَاءَهَا وَ قُصُورَا
فَالمُحْسِنُونَ تَزَيّدُوا أَعْمَالَهُمْ وَ رَجَوْا بِذَلِكَ جَنّةً وَ حَرِيرَا
وَ المُذْنِبُونَ هُدوا الصّرَاطَ وَكَفّرَتْ حَسَنَاتُهُمْ لِذُنُوبِهِمْ تَكْفِيرَا
فَلَكَ مِنَ الأَفْلاَكِ إِلاّ أَنّهُ حَفَرَ البُدُورَ فَأَطْلَعَ المَنْصُورَا
أَبْصَرْتُهُ فَرَأَيْتُ أَبْدَعَ مَنْظَرٍ ثُمّ انْثَنَيْتُ بِنَاظِرِي مَحْسُورَا
وَ ظَنَنْتُ أَنّي حَالِمٌ فِي جَنّةٍ لَمّا رَأَيْتُ المَلِكَ فِيهِ كَبِيرَا[2]

كما يصف منظر أبواب القصر المزركشة الّتي احتوت حلقا على أسود متهيّئة للوثوب أو تكاد، تبدو وكأنّها تحرس القصر، فينقلنا من الجماد إلى الحركة بقوله:

* قصر بناه النّعمان بن امرؤ القيس بالحيرة.
** قصر مشهور بني بالقرب من الخورنق.
*** إيوان كسرى الّذي اشتهر البحتري بوصفه.
[1] ديوان ابن حمديس: طبعه و صحّحه: جلستينو سكيايارللي مطبعة رومية الكبرى، 1897، ص 482 483.
[2] نفسه، ص 483.

وَ إِذَا الْوَلاَئِدُ فَتَحَتْ أَبْوَابَـهُ جَعَلَتْ تُرَحِّبُ بِالْعُفَـاةِ صَرِيرَا
عَضَّتْ عَلَى حَلَقَاتِهِنَّ ضَرَاغِم قَفَرَتْ بِهَا أَفْوَاهُهَـا تَكْشِيـرَا
فَكَأَنَّمَا تَهَبُ لِتَهْصِرَ عِنْدَهَـا مَنْ لَمْ يَكُنْ بِدُخُولِهِ مَأْمُـورَا[1]

ويجول بخاطره ليقف وقفة تاملية امام بهو السّاحات المرخّمة والمحصّبة وكأنّها فرشت وزّينت بالبلّور والدّر المضيئة حتىّ في الظّلام الحالك، فيقول:

تَجْرِي الْخوَاطِرُ مُطْلَقَاتِ أَعِنَّـــةٍ فِيهِ فَتَكْبُو عَنْ مَدَاهُ قُصُـــورَا
بِمُرخَّمِ السَّاحَاتِ تَحْسِبُ أَنَّـــهُ فُرِشَ الْمَهَا وَ تَوَشَّحَ الْكَافُـــورَا
وَ مُحَصَّبٍ بِالدُّرِّ تَحْسِبُ تُرْبَـــهُ مِسْكًا تَضَوَّعَ نَشرُهُ وَ عَبِيـــرا
يَخْتَلِفُ الإِصْبَاحُ منه إِذَا انْقَضَى صُبْحًا عَلَى عَسَقِ الظَّلاَمِ مُنِيرَا[2]

يواصل ابن حمديس واصفا القصر وما احتواه، فيصف البركة الّتي سكنتها أسد مذهبة تمجّ المياه البلورية من أفواهها، تبدو وكأنّها في مشهد حي، فسكونها متحرك تستعد لتثور في أي وقت، وحينما ترسل الشمس أشعتها تتناسق مع أفواها الذّهبية، فتظهر و كأنّها نار وألسنها نور، يقول:

وَ ضَرَاغِمٍ* سَكَنَتْ عَرِينَ رِئَاسَةٍ تَرَكَتْ خَرِيرَ الْمَاءِ فِيهِ زَئِيـــرَا
فَكَأَنَّمَا غَشَـى النُّضَارُ** جُسُومَهَا وَالْتَفَّ فِي أَفْوَاهِـهَا الْيَلَـــوْرَا
أُسْدٌ كَأَنَّ سُكُونَهَـا مُتَحَـــرِّك فِي النَّفْسِ لَوْ وَجَدَتْ هُنَاكَ مُثِيرَا
وَ تَذَكَّرَتْ قَتَكَائِهَا فَكَأَنَّمَـــا أَفْعَتْ عَلَى أَدْبَارِهَـا لِتُثُـــورَا
خَوَّاتُهَا وَ الشَّمْسُ تَجْلُو لَوْنَهَا نَارًا وَ أَلْسُنَهَـا اللَّوَاحِـس نُورَا
وَ كَأَنَّمَا سَلَتْ سُيُوفَ جَـدَاوِلٍ ذَائِبٍ لِلاَ نَارٍ فَعُـدْنَ عَدِيـــرَا

[1] ديوان ابن حمديس،م س، ص 483.
[2] نفسه، ص 483، 484.
* ضراغم: أسد.
** النّضّار: الذّهب.

وَ كَأَنَّمَا نَسَجَ النَّسِيمُ لِمَائِهِ دِرْعًا فَقَدَّرَ سَرْدَهَا تَقْدِيرا[1]

ويقف متأمّلا متأثّرا بجمال شجرة ذهبية، تسحر العقول، بحيث ترصّع أغصانها طيور بمناقيرها ماء كمتناثر اللّآلئ الصّافية، فيصفها فيما ينيف عن ثمانية أبيات، منها قوله:

وَ بِدِيعَةِ الثَّمَرَاتِ تَعْبُرُ نَحْوَهَا عَيْنَايَ بَحْرَ عَجَائِبٍ مَسْجُورَا*

شَجَرٌ ذَهَبِيَّةٌ نَزَعَتْ إِلَى سِحْرٍ يُؤْثِرُ فِي النُّهَى** تَأْثِيرَا

قَدْ صُولِجَتْ أغصانها فَكَأَنَّمَا قَنَصَتْ لَهُنَّ مِنَ الْفَضَاءِ طُيُورَا

وَ كَأَنَّمَا تَأْبَى لِوَقْعِ طُيُورِهَا أَنْ تَسْتَقِلَّ بِنَهْضِهَا وَتَطِيرَا

مِنْ كُلِّ وَاقِعَةٍ تَرَى مِنْقَارَهَا مَاءً كَسَلْسَالِ اللُّجَيْنِ نَمِيرَا

خُوَصٌ مِنَ الفِصَاحِ فَإِنْ شَدَتْ جَعَلَتْ تُغَرِّدُ بِالْمِيَاهِ صَفِيرَا[2]

يستمر الشّاعر في وصف كل ما تقع عينه عليه من جماليات القصر الّتي تثير إعجاب النّاظرين متغنيا بمحاسن هذا القصر العجيب وبدائع صنعه.

ليختم قصيدته بمدح المنصور منوّها مرّة أخرى بحسن ذوقه في تشييد هذا القصر، الّذي فاق كل القصور جمالا واجّهة قائلا:

يَا مَالِكَ الأَرْضِ الَّذِي أَضْحَى لَهُ مَلِكُ السَّمَاءِ عَلَى الْعُدَاةِ نَصِيرَا

كَمْ مِنْ قُصُورِ الْمُلْكِ تَقْدَمُ تَ وَ اسْتَوْجَبَتْ لِقُصُورِكَ التَّأْخِيرَا

فَعَمَرْتَهَا وَ مَلَكْتَ كُلَّ رِئَاسَةٍ مِنْهَا وَ دَمَّرْتَ الْعِدَا تَدْمِيرَا[3]

وعلى هذا النّحو، وصف قصر النّجم الّذي بناه المنصور ببجاية في نونية*** لم تخرج عن سابقتها من حيث الغرض والمناسبة.

---

[1] ديوانه م س، ص 484.

* مَسْجُورا: مملوءا.

** النُّهَى: العقل.

[2] نفسه، ص 484 485

[3] نفسه، ص 486.

*** نريد قصيدته الّتي يقول في مطلعها: بَيْنَ الْمَجْدِ و الدَّبَرَانِ قَصْرًا بَنَاهُ مِنَ السَّعَادَةِ بَانَ

إنّ ابن حمديس متّع ناظره وانشرح صدره، فجال بالقصور البجائية، لكن يبدو لي أنّه لم ير أجمل منها حتىّ في بلاده الأندلس، كما أنّ الوصف عنده التحم بين وصف العمران والطّبيعة والحيوان، ممّا يدل على ثقافته الواسعة في هذا المجال وأنّ الدّولة الحمادية كانت مفعمة بمظاهر الحضارة الرّاقية فجمال طبيعتها جعله يتغنّى بها.

وظّلت الطبيعة تفرض نفسها على ابن حمديس، فوصف كلّ شيء جميل كان يلتف حوله، كدعوته لنا للتّأمل في منظر هلال زيّن السّماء بنوره في لجج الظّلام فشبهه بالمنجل المصنوع من العسجد الّذي يحصد النّرجس قائلا:

أُنظُرْ إلى حُسْنِ هِلالٍ بَدا يَهْتِكُ منْوأارِه الْحِنْدِسَا*

كمِنْجَلٍ قَدْ صِيغَ مِن عَسْجَدٍ يَحْصِدُ مِنْ زَهْرِ الرّبا نَرْجِسَا[1]

وبالإضافة إلى وصف الشّاعر للطبيعة، وصف الأدوات الّتي ترمز لها من نور وإضاءة كوصفه للّشمعة الّتي تضيء لغيرها لكنّها تحترق، فتكوي أحشاءها وتسيل دموعها من شدّة الحرقة، يقول:

قَنِعَتِ الشّمْعِ مَرْكُوزَة لَهَا حَرْبَةٌ طُبِعَتْ مِنْ لَهَبْ

تُحَرِقُ بالنارِ أَحْشَاءَهَا فَتَدْمَعُ مُقْلَتُهَا بالنّهَبْ

تَمَشّى لَنا نُورُها في الدّجَى كما يَتَمَشّى الرّضَى في الغَضَبِ [2]

وبعدما تذوب الشّمعة وتنطفيء يتعجب قائلا:

عَجِبْتُ لِآكِلَةِ جِسْمَهَا بِرُوحٍ تُشَارِكُهَا في العَطَبْ [3]

والجدير بالملاحظة، أنّ ابن حمديس أجاد في الوصف وأبدع ففعل في الدّولة الحمادية مثلما فعل البحتري في الدّولة العباسية.

* الحِنْدَسَ: الظّلمة.

[1] ديوان ابن حمديس،م س، ص 488.

[2] نفسه، ص 23.

[3] نفسه، ص 23.

وما يمكن أن نخلص إليه في هذا الفصل، **هو أنّ مواضيع الوصف وإن كانت مقتصرة على وصف جو** الطّبيعة في **العهد الرّستمي وكان الوصف سطحيا أحيانا، فإنّ**ها في العهدين **الفاطمي والصّنهاجي تعدّدت بين وصف الحيوان والفواكه والزّهور بطابع منمّق**، غير أنّ الوصف بلغ أوجه وتنوع في أواخر العهد الحمادي وارتقى إلى **درجة فنية متميزة.**

الفصل الثاني

الغزل

ممّا لا يختلف فيه اثنان، أنّ الشّاعر الجاهلي كان يتغزّل بالمرأة ويصف جمالها في بضعة أبيات، ويبكي فراقها وبعدها في مقدّمات طللية تستهل بها القصائد الشّعرية، وما شعر المعلّقات إلاّ دليل على ذلك، فهذا طرفة بن العبد* يخبر عن حالته وهو يتذكر محبوبته بالوقوف على الأطلال والبكاء عليها قائلا:

لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
فروضة دعمى، فَأَكْنَادِ حَائِلٍ ظَلَلْتُ بِهَا أَبْكِي وأبكي إِلَى الْغَدِ
وُقُوفًا بِهَا صحبيّ عَلَيّ مطيهُم يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ[1]

ولكن الغزل تطوّر بعد هذا العصر، فأصبحت تفرد له قصائد طويلة في العصر الإسلامي، بل انقسم إلى غزل عذري** و«هو الّذي لا يقتصر على التّشبيب بمحاسن المرأة بل يضيف إليه شيئا روحيا يعنى بنفس الشّاعر وعاطفته»[2] كقول جميل بن معمّر* متمسكا بالعفة:

لَا وَالَّذِي تَسْجُدُ الْجِبَاهُ لَهُ مَالِي بِمَا دُونَ ثَوْبِهَا خَبَرُ
و لابغيها و لا هممتُ بِهِ مَا كَانَ إِلَّا الْحَدِيثُ وَ النَّظَرُ[3]

فهذه الأبيات تدل على لوعة جميل الصّادقة وحبه العفيف تجّاه بثينة.

أمّا النّوع الثّاني فهو الغزل الإباحي* و« هو ذكر خلق النّساء وأخلاقهنّ وتصرّف الهوى به معهنّ »[4].

---

* طرفة بن العبد من أشهر شعراء الجاهلية بعد امرئ القيس، (ت 569م).

[1] المعلقات العشر، فوزي عطوي، ص47.

** يسميه البعض بالغزل البدوي أو الغزل العفيف.

[2] أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام، بطرس البستاني دار الجيل، بيروت، 1979م، ص 290.

* اشتهر بحبه لابنة عمه بثينة(_82 ه)

[3] ديوان جميل بن معمّر، تحقيق د: إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت 1992م، ص 87.

* يسمّيه البعض بالغزل الماجن أو الغزل الحضري أو التّنسيب.

[4] تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ج3، دار ابن الجوزي القاهرة، 2009م، ص 76.

بل هو "وصف المرأة حتىّ لا يكاد يفلت عضوا من أعضائها دون أن يأخذ نصيبه من الوصف والذّكر أو التّشبيه مدفوعين إلى هذا بدوافع حسية شهوانية ماجنة تعشق جسد المرأة لا روحها، وتقصد إلى التّمتع بها لا إلى الإبقاء عليها تسلى ولا تحب"[1].

ومن زعماء هذا الغزل عمر بن أبي ربيعة* الّذي سلك في الغزل مسلك القصص كقوله شاكيا ألمه و حزنه على ما آلت إليه حالته متخذا طريقة الحوار سبيله:

قُـلْ لِلْمَنَـازِلِ بالظّهـرانِ قَدْ حَـانَ أَنْ تَنْطِقِي فَتُبِينِي الْقَوْلَ تبيَانَـا
رُدّي عَلَيْنَـا بمـا قُـلْنَـا تَحِيّتَنـا وَحَدِّثِينَـا مَتَى بَانَ الّـذِي بَانَـا
فَقَالَتْ مَنْ أَنْتَ أَذْكُرُه قَالَ ذُو شَجَنٍ فَلَجّ هِمْنُه نَحِيبُ الْحُبِّ أَحْزَانَا[2]

و لقد نظم العديد من الشّعراء في هذا الغرض بنوعيه في العصور الّتي تلت العهد الإسلامي، ومن بينهم الشّعراء الجزائريون؛ يقول بكر بن حماد متغزّلا بالنّساء:

خُلِقْنَ الْغَوانِـي لِلرِّجَالِ لَيِلّـةً فَهُنّ مَوَالِينَا و نَحْـنُ عَبِيدُهَـا
إِذَا مَا أَرَدْنَا الْوِرْدَ في غيرِ حِينِهِ أَتَتْنَا بِهِ في كُلّ حِينٍ خُدُودُهَـا[3]

فبكر بن حماد في هذه الأبيات الغزلية الرقيقة، يبتعد عن وصف ملامح المرأة ومظهرها الخارجي، بل يكتفي بوصف المرأة على أنّها بلوة الرّجال لحسنها و بهائها.

ومن خـلال ما وجدناه من شعر بكر بن حماد لاحظنـا أنّه لم ينظـم في هـذا الغرض، وربّما ذلك راجع إلى نزعته الدّينية، وإنّما نظم هذه الأبيات لما حكاه أبو إسحاق الرّقيـق مـؤرخ إفريقية قائـلا: "كـان بكر بن حماد الشّـاعر الأديـب ينتجـع إبراهيـم بن الأغلب، ويمدحه بغرر القصائد، فغدا يوما إلى رقّادة بمديح له، وقصد الفتى بلاغ خادم الأمير، فقال له الفتى: الأمير عنّا مشغول في هذا اليوم، قال بكر: فألطف بي في إيصال رقعة إليه، فقال: إنّه مصطحب في جنان قصره مع الجواري، ولا يصل إليه أحد، فارتجل بكر مقطوعا

[1] اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، يوسف حسين بكار، دار الأندلس، ط3، ص 124.
* اشتهر بغزله الماجن بحيث يحكي أمره مع النّساء و مداعبته لهن (93هـ).
[2] ديوان عمر بن أبي ربيعة، طبعه وصحّحه : بشير يمون،ط1، 1934م، ص 296.
[3] بكر بن حمّاد: شاعر المغرب العربي في القرن الثّالث الهجري، محمّد الأخضر السّائحي، وزارة الثقافة 2007م، ص 144.

كتبه في رقعة واحتال بلاغ في إبلاغها مساعدة للشّاعر، فكان في **الرّقعة الأبيات** الّتي ذكرناها»[1].

ومن المجحف في حق **شعراء الجزائر، أن نجد شاعرا ذا قيمة فنية عالية، ولا نعرف عنه** سوى أنّه من شعراء القرن الثّالث الهجري، إذ نظم أبياتا غزلية رائعة على الرّغم من حداثة الشّعر في تلك الفترة، استهلها بقوله:

اَلْهَوَى شُغْل وَ مَحْيَا اَلْهَوَى قَتْلوَيَوْمُ اَلْهَوَى حَوْل وَ بَعْضُ اَلْهَوَى كُلّ
وَجُودُهَاوَى بُخْل ورسلُ اَلْهَوى عدى وَقُرْبُ اَلْهَوَى بُعْد وَسَبْقُ اَلْهَوَى مَطْل[2]

لقد جعـل الشّاعر الهوى هو المحرّك الرئيسي في هذين البيتين وحصره في ثنائيات **متناقضة، ففراغه شغل وحياته موت ويومه عام وجزؤه** كل وكرمه شح وهويناه عُدُو **وقربه نأي ومبادرته** تثاقل، فكلّ شيء جائز في الهوى من وجهة نظر الشّاعر الّذي استطاع التأنّق في هذا **النّسج الشّعري.**

ثمّ يذكر مكان الهوى و هو تيهرت داعيا **لها** بسقيا نزهو لها الأيام قائلا:

سَقَى اللهِ تِيهَرْتَ اَلْمُنَى وَ سُوَيقَـــــةً بِسَاحَتِهَا عَيْنًا يَطِيـــبُ بِهِ اَلْمَحْـــلُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَ الدارُ جَامِعَةً لَنَـــــا وَبَيْنَ تَمِعْ وَصْل لَنَا،لا، وَلا شَمْـــلُ
فَلَمَّا تَمَادَى اَلْعَيْشُ وَانشقتِ اَلْعَصَا تَدَاعَتْ أَهَاضِيبُ النَّوَى وَ هِيَ تَنْهَلّ[3]

و الملاحظ أنّ حسرة الشّاعر بدت ظاهرة **لتشتّت الشّمل وتفرقه وكأنّه لم يجتمع يوما بمحبوبته** في تلك الدّار، فصار الوصل والقرب فراقا ونوى، وأصبح هذا الهوى جزءا من **الماضي** زال و تلاشى.

كما يخص حبيبتـه بالتحية والسّلام، هذه الحبيبة الّـــتي حال بينه وبينـــها البين **والفراق، فيصف طريقة مغادرتها** وهي تذرف دموعا من ألم البعد **الّذي كان بمثابة الموت إذ** يقول:

---

[1] بكرين حماد،م س، ص143،144.

[2] البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، ابن عذاري المراكشي تحقيق و مراجعة: ج.س كولان إليفي بروفنسال ج1. دار الثّقافة بيروت ،1948م،ص198.

[3] نفسه،ص198.

سَلام عَلى مَنْ لَمْ تُطِقْ يَوْم بَيْنَنَا سَلاَمًا وَ لَكِنْ فَارَقَتْ وَ بِهَا تُكْـــلُ
وَ مَا هِيَ آمَاقٌ تَفِيضُ دُمُوعُهَـــا وَ لَكِنَّهَا الأَرْوَاحُ تَجْرِي وَ تَنْسَـــلُ[1]

ومن بين الّذين هجرم حبيبتهم وكانت مجرّد ذكرى محمد بن الحسين التّميمي الطّبني الّذي يقول متأسيا على استحالة عودة حبيبته إليه:

صَدَفت ظَبِيَة الرِّصَافَةِ عَنَّـــا وَهِيَ أَشْهَى مِنْ كُلِّ مَا نَتَمَنَّـــى
هَجَرَتْنَا، فَمَا إِلَيهَـــا سَبِيـــل غير أَنَّا نَقُـــول: كَـانَتْ وَكُنَّـــا[2]

ويقول الأربسي خاشيا من هجر حبيبته:

وَ مَا بي أَنْ أَفْنَى عَلَيْـــكِ تَأَسُّفـا وَ لا أَتَرَبَّصُ في هَوَاكِ يَـــذُوب
وَ لَكِنَّ أَخْشَى بِهَجْرِكِ تَنْقَضِـــي حَيَاتِي و مَالي في رِضَاكِ نَصيب
وَ يَبْعُد عَنِّي حُسْنُ مَنْظَرِكِ الَّـــذي بِهِ تَحْسن الدُّنْيَا لنا وَ تطيـــب
لأَ فاحْكُمِي يَامَلك فيمن مَلَكْتِهِ فَإِنِّي أَسِير في يَدَيك غَرِيـــب[3]

فالمتمعّن في أوّل بيت يعتقد أنّ الأربسي لا يريد أن يتعذب من أجل محبوبته، لكن في البيتين الموالين يفهم المتلقّي سبب ذلك وهو خوفه من هجر حبيبته وبعد حسنها عنه فتسود دنياه و تنتهي حياته، لذا خاطبها في البيت الأخير متذلّلا لها طالبا منها أن تحكم على أسير بين يديها ملكته بحبّها ولا يتحمّل فراقها علّها تعذل عن قرار الهجر.

أمّا علي بن أبي الرّجال* فينحرق قلبه عندما ينبهر بجمال عيون إحدى الفتيات واصفا مشيتها متغزّلا:

مَـرِّ يَتَلَيَهْتَـزُ في مَشْيِـــهِ مِثْلَ اهْتِـزَازِ الغُصْنِ الرَّطْـــبِ
فَمُقْلَتِي تَرْتَـــعُ في حُسْنِـــهِ وَ مُقْلَتَاهُ أَحْـــرَقَـــتْ قَلْبِـــي[4]

---

[1] البيان المغرب م س، ص 198.

[2] المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، تحقيق : شوقي ضيف،ج2 ،دار المعارف، مصر ص207.

[3] حياة القيروان، عبدالرّحمن باغي، ص 157.

* هو أبو الحسن علي بن أبي الرّجال الشّيباني التّاهرتي، أديب كبير و شاعر عظيم، و هو أستاذ ابن رشيق و معاصره.

[4] العمدة، ابن رشيق، ج2، ص60.

كما يطلب من صديقيه أن يكفّا عن عتابه باللّجوء إلى العبادة وهو لا زال في عز شبابه متيّما بمحبوبته متعطّشا إليها فيقول:

خَلِيلَيَّ إِنْ لَمْ تسعِدَاني فَأَقْصِرَا فَلَيْسَ يُدَاوى بِالعِتَابِ المُتَيَّمُ
تُرِيدَانَ النّسكَ في غَيْرِ حِينِهِ وَ عُصْنِي رَيَّان وَ رَأْسِي أَسْحَمُ[1]

و قد اعتبر ابن رشيق هذين البيتين من أحسن الأشعار[2].

ولابن رشيق غزل ماجن مثلما نتشفّ ذلك من تعابيره الجاهرة الّتي جسّد فيها الجانب الجسدي المباشر،إذ يتغزل بغلام ذاكرا أمره معه قائلا:

وَ مُهَفْهَفٍ يَحْمِيهِ عن نَظَرِ الورى غَيرَانُ سُكْنَى المُلكِ تحت قِبَابِهِ
أَوْمَى إِليّ أَنِ ائتني فأتيتُهُ و الفجرُ يَرمُقُ من خلال نِقَابِهِ
فلَثَمْتُ خدَا مِنْهُ ضَرَّمَ لَوْعَتِي وَ جَعَلْتُ أُطْفِي حَرَّهَا بِرضَابِهِ
وَ ضَمَمْتُه للصدر حتّى اسْتَوْهَبَتْ مِنّي ثِيَابِي بَعْضَ طِيبَ ثِيَابِهِ
فَكَأَنَّمَا أَقْلِي مِنْ وَرَاءِ ضُلُوعِهِ طَرَبًا يُخْبِرُ قَلْبُهُ عَمَّا بِهِ[3]

ويعرض حوارا لصاحبته سألته عن سبب اصفراره و مرضه، فأجابها إجابة المحب الهائم بأنّ الهوى هو الّذي أضناه فنحل جسمه وسفك دمه من شدّة الاشتياق لها، حيث يقول:

وَ قَائِلَةٍ مَاذَا الشُّحُوبُ و ذَا الضَّنَا فَقُلْتُ لَهَا قَوْلَ المَشُوقِ المُتَيَّمِ
هَوَاكِ أَتَانِي وَ هُوَ ضَيفٌ أَعَزُّهُ فَأَطْعَمْتُهُ لَحْمِي وَ أَسْقَيْتُهُ دَمِي[4]

ويظل ابن رشيق منجذبا للصّور المادية الصّادرة عن غريزته إذ يصف ليلة من العمر معتبرها من أجمل الأوقات لما وجد فيها من لذائذ ومحاسن جسم، فيقول:

وَمِنْ حَسَنَاتِ الدَّهْرِ عِنْدِي لَيْلَةٌ مِنَ العُمرِ لم تترُك لأَيّامِها ذَنبَا
خَلَونا بها نَنْفي الكرَى عَنْ عُيُونِنَا بِلُؤْلُؤَةٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا سَكبَا

[1] العمدة م س ، ص 62.
[2] نفسه، ص نفسها.
[3] ديوان ابن رشيق ص49.
[4] نفسه، ص132.

وَ مِلْنَا لِتَقْبِيلِ الثُّغُورِ وَ لَثمِهَـــا كَمِثلِ جُنُوحِ الطَّيرِ تَلْتَقِطُ الحَبَّا[1]

وقد علّق محمد أبو رزاق على غزل ابن رشيق قائلا:«يمثّل شعره في اللّهو والغزل أدبا مكشوفا، ممّا دلّ على قلة حيائه»[2]. ويعلّل سبب ذلك في الآتي: «لعلّ تأثرّه بجلساء السّوء في القيروان حتىّ افتتن بدور الخمارين، وأخذ يتردد إلى الحانات الّتي ألفوها فضعف في نفسه الوازع الدّيني والخلقي»[3].

لايمكن أن نصف شاعرا وناقدا كبيرا مثل ابن رشيق بقلّة حيائه حتىّ ولو كان غزله إباحيا لأنّ آثاره جعلته محل اهتمام لدى المشارقة والمغاربة على حدّ سواء.

ويبدو أنّ الغزل الماجن أخذ حظّه في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وكَثُر بصورة ملفتة للانتباه، فها هو ابن حمديس الصّقلي ولهان متيم منصرف إلى تصوير أحاسيس الحب المادية الّتي تنحصر في الجانب الجسدي لا الرّوحي كقوله:

وَلَمَّـا تَلاقَيْنَا وَ أَثبَتَ عِنْدَهَـــا نُحُولِي وَ تَبْرِيحِي مِرَارُ الحُبِّ مَا عِنْدِي
خَلَعْنَا عَلَى الأَجْيَادِ أَطْـــوَاقَ أَذْرُعٍ كَأَنَّ لَنَا رُوحَيْـــنِ فِي جَسَـدٍ فَـــرْدِ
كَأَنَّ عِنَاقَ الوَصْلِ لاَحَـــمَ بَيْنَنَـــا بِرِيحِ إِوَهِنَّ زَفِيـرِي وَمِنْ وَجْـدِي
وَلَمَّا أَتَانِي الصُّبْحُ ذُبْتُ وَ لَمْ تَـذُبْ فَيَالَكَ مِنْ شَوْقٍ خُصِصْتَ بِهِ وَحْدِي[4]

أمّا أبو حفص عمر بن فلفول* فيستهل مقطوعته الشّعرية بغزل حواري بينه وبين أهل الهوى حدثوه عن طريقة التّغلب على ألم الحرمان وهي التّصبر لأنّ الهوى إذا سكن القلب لا يزول:

وَ قَالُوا أَرَى عَنْكَ الحَبِيبُ فَمَا الَّذِي تَرَاهُ إِذَا بَانَ الحَبِيبُ المُوَاصِلُ؟
فَإِنْ أَنْتَ أَحْبَبْتَ التَّصَبُّرَ بَعْدَهُ وَ لَمْ تَسْتَطِعْ صَبْرًا، فَمَا أَنْتَ فَاعِلُ

[1] ديوانه م س، ص40.
[2] الأدب في عصر دولة بني حمّاد، ص 239.
[3] نفسه، ص نفسها.
[4] ديوان ابن حمديس، ص 110.
* هو كاتب السّلطان يحي بن العزيز الحمّادي.

فَإن الهَوَى مَهْمَا تَمَكّنَ في الحَشَـا وَحَلّ شِغَافَ القَلْبِ لَيسَ يُزَايِـلُ
فَكَمْ رَامَ أَهْلُ الحُبّ قَبْلَكَ سَلْـوَة وَهُوَ مُدَعَنْهَا هَوَى مُتَوَاصِـلُ[1]

فاجابهم بان مكابدة الهوى تكون بالصّبر، وسيصبر حتى تحنّ عليه حبيبته وتعود إليه بعدما هجرته:

فَقُلْتُ لَا لِلصّبْرِ مَفْزَعُ عَاشِـقٍ وللصّبْرِ أَحْرَى بي إِنْ عَلَلَ عَائِـلُ
أَصْبِرُ حَتّى يَفْتَحَ اللهُ في الهَوَى بوَصْلِ حَبِيبٍ طَالَ فِيهَا الطّوَائِـلُ[2]

وخلاصة القول إنّ الغزل في القرنين الثّاني والثّالث الهجريين كان غزلا عفيفا يعبرّ عن الهجر والبعد ووصف المرأة وصفا طبيعيا، ولكن مع أواخر القرن الرّابع الهجري وبداية الخامس الهجري انتشر الغزل الفاحش الّذي يهتم بجسد المرأة أكثر من روحها بل تعدى إلى التغزل بالغلمان مثلما لاحظنا في شعر ابن رشيق.

الفصل الثالث:
المدح

[1] خريدة القصر و جريدة العصر، العماد الأصفهاني، تحقيق المرزوقي محمد العروسي المطوى، الجيلاني بن حاج يحي، قسم شعراء المغرب، مج2، ط3، 1986م، ص 179.
[2] نفسه، ص179.

هــو من أقدم الأغـراض الشّعرية إذ "عرفته الشّعوب البدائية يوم رفعت إلى الآلهة صلوا وقدّمت القرابين إلى أصنامها ووضعت نفسها تحت وصاية زعمائها و أبطالها"[1]. فمدحوا الآلهة وسجدوا لها راكعين.

أمّا في العصر الجاهلي، فقد كان الشّعراء يتغنون بقبائلهم ويمدحونهم، كما قدّسوا ملوكهم و عظماءهم وهذا ما لمسناه من قول الأعشى*:

فَلَمّـا أَتَـانَـا بَعِيـد الْكُـرى سَجَدْنَـا لَـهُ وَ رَفَعْنَـا عمـارا
فـذاك أوان التّقـى و الزّكـى و ذاك أوان من المـلك و حـارا[2]

فالمادح في الجاهلية كان يتعبد بالملوك ويسجد لهم فيرجو منهم خيرا ويخشى بأسهم.

غير أنّه في العصر الإسلامي، وبانتشار الدّعوة المحمدية تغيرّت معاني المدح، وكثر مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم والتنويه بالرّسالة العظمى الّتي حملها للعالم كافّة بالإضافة إلى شكر الله و حمده والتّضرّع إليه، وما قول حسّان بن ثابت* إلاّ دليل على ذلك:

وَضمّ الإِلَهُ اِسْمَ النّبِيّ إِلَى اِسْمِـهِ إِذَا قَالَ في الْخَمْسِ الْمُؤَذّنُ أَشْهَـدُ
وَشَـقّ لَـهُ مِنْ اِسْمِـهِ لِيُجِلّـه فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُود، وَ هَذَا مُحَمّـدُ
نَبِيّ أَتَـانَا بَعْـدَ يَـأسٍ وَ فتـرةٍ مِنَ الرّسُلِ وَ الأَوْثَانُ في الأَرْضِ تُعْبَدُ
وَ أَنـذَرَنَـا نَارًا وَ بَشّـرَ جَنّـةً وَ عَلّمَنَـا الإِسْـلاَمَ فَـاللهَ نحمـد
وَ أَنتَ إِلَهَ الْعَـرْشِ رَبّـي وَ خَالِقِي بِذَلِكَ مَا عمّـرت في النّـاسِ أَشْهَـدُ
لَكَ الْحَمْدُ وَ النّعْمَاءُ وَ الأَمْرُ كُلّهُ فَإِيّاكَ نَسْتَـهْدِي وَ إِيّـاكَ نَعْبُـدُ[3]

ولكن بعد مقتل عثمان بن عفّان رضي الله عنه تعددت الأحزاب فكان لكلّ "حزب شعراء ينطقون باسمه و يمدحون زعماؤه ويروّجون لسياسته"[4]، كما كان الشّعراء يتهافتون

---

[1] الموسوعة الثّقافية العامّة في الأدب العربي، فوّاز الشّعار، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص103.

* هو ميمون بن جندل من فحول شعراء الجاهلية (629م).

[2] ديوان الأعشى : تحقيق د: محمّد محمّد حسين دار النّهضة العربية، بيروت 1974م، ص 101.

* هو حسان بن ثابت الأنصاري من الشعراء المخضرمين ويلقب بشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم (54ه)

[3] ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري دار صادر بيروت ص47.

[4] الموسوعة الثقافية،فواز الشعار، ص 105.

على مدح الخلفاء رغبة منهم في التّكسّب، و بلغ هذا المدح أوجه في العصر العبّاسي بعدما قسّم الملوك مناطق العالم الإسلامي، فكان كلّ شاعر يسافر إلى أمير أو خليفة يجد فيه ضالّته فيمدحه مقابل جازاته حتى اقترن اسم الشّعراء بالخلفاء مثل أبي تمّام و المعتصم .و هلمّ جرّا.[1]

وهذا النّوع من المدح التّكسبي نلحظه عند بكر بن حماد في العهد الرّستمي، إذ يمدح أحمد بن سفيان* مشيدا بحسن بلائه في الحرب، منوّها بسخائه وجوده على كلّ إنسان يطرق بابه قائلا:

وَ قَائِلَةٍ زَارَ الْمُلُوكَ فَلَمْ يَفِدْ فَيَالَيْتَهُ زَارَ ابْنَ سُفْيَانَ أَحْمَدَا
فَتَى يَسْخِطُ الْمَالَ الَّذِي هُوَ رَبُّهُ وَ يُرْضِي الْعَوَالِي وَ الْحُسَامَ الْمُهَنَّدَا[2]

وفي السّياق نفسه يمدح أحمد بن القاسم** وما يّتصف به من كرم طالبا منه أن يفخر بنسبه الشّريف لانتمائه إلى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وابنته فاطمة الزّهراء وآل علي، فيقول:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَ الْمُرُوءَةَ وَ النَّدَى جُمِعُوا لِأَحْمَدَ مِنْ بَنِي الْقَاسِمِ
وَ إِذَا تَفَاخَرَتِ الْقَبَائِلُ وَ انْتَمَتْ فَافْخَرْ بِفَضْلِ مُحَمَّدٍ وَبِفَاطِمِ***
وَ بِجَعْفَرِ**** الطَّيَّارِ فِي دُرَجِ الْعُلَا وَعَلِيِّ***** الْغَضَبِ الْحُسَامِ الصَّارِمِ[3]

ثمّ يذكر اشتياقه للأمير ورغبته الشّديدة في زيارته لكنه لا يستطيع الذّهاب إليه لقلّة ماله وعدم امتلاكه لوسيلة سفر،حيث يقول:

إِنِّي لَمُشْتَاقٌ إِلَيْكَ وَ إِنَّمَا يَسْمُو الْعُقَابُ إِذَا سَمَا بِقَوَادِمِ[1]

---

[1] نفسه، ص 106.

* هو أحمد بن سوادة التميمي العامل الأغلبي على الزّاب ثمّ طرابلس، قام بعدّة فتوحات.

[2] الدر الوقّاد من شعر بكر بن حمّاد، محمد بن رمضان شاوش، المطبعة العلوية مستغانم، ط1، 1966م ص 71.

** هو أحمد بن القاسم بن إدريس الثّاني صاحب مدينة كرت بالمغرب الأقصى.

*** المراد فاطمة الزّهراء ابنة الرّسول صلّى الله عليه و سلّم

**** هو جعفر بن أبي طالب ابن عمّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

***** علي بن أبي طالب –كرّم الله وجهه .

[3] نفسه، ص73،72.

ويظهر تكسبه واضحا عندما يطلب من الأمير أن يبعث له ما يسافر به مع مال وثياب لكي ينال محبّته، إذ يقول:

فَابْعَثْ إِليَّ بِمَرْكَبٍ أَسْمُوبِهِ عَلِيّ أَكُونُ عَلَيْهِ أَوَّلَ قَادِمِ

وَ اعْلَمْ بِأَنَّكَ لَنْ تَنَالَ مَحَبَّةً إِلا ببَعْضِ مَلابِسٍ وَ دَرَاهِمِ [2]

فلمّا قرأ الأمير هذه الأبيات فهم معناها وبعث له ببغلة سنيّة و بصلة جزلة[3].

إلاّ أنّ مدح بكر بن حماد لأبي العيش عيسى بن إدريس* لم يكن تكسبيا، بل ذكر بطولات هذا الأمير الشّجاع منوّها بخططه المحكمة في مباغتة الأعداء وحسن تدبيره العسكري قائلا:

سَائِلْ زُوَاغَةَ** عَنْ فِعَالِ سُيُوفِهِ وَ رِمَاحِهِ فِي الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ .

وَ دِيَارِ نفزكَيْفَ دَاسَ حَرِيمَهَا وَ الْخَيْلُ تَقْرَعُ بِالْوَشِيجِ الذّبلِ

عمت مَغِيلة*** بِالسُّيُوفِ مَذَلَّةً وَ سَقَى جَرَاوَةَ مِنْ نَقِيعِ الْحَنْظَلِ [4]

---

[1] الدر الوقاد ،محمد بن رمضان شاوش، ص 73.

[2] نفسه، ص نفسها.

[3] البيان المغرب، ابن عذارى، ج1،ص237.

* هو صاحب جراوة و تلمسان و هو من أبناء محمد بن سليمان.

** اسم قبائل بربرية كانت تسكن النّاحية الغربية من مدينة جراوة ثمّ انتقلت إلى تلمسان.

*** اسم قبائل بربرية مغربية استوطنت ناحية تلمسان.

**** اسم قبائل بربرية كانت تسكن الجبال في ناحية فاس.

[4] المسالك و الممالك، البكري، ص 143.

كما نظم أبياتا شعرية في مدح الإمام أبي حاتم*، يقول فيها:

ماذَا يُدَبِّرُ رَبُّنَـا في أَمْـــرِهِ سُبْحَانَهُ أَرْضِهِ وَ سَمَائِـــهِ
رَدَّ الْمُلُوكَ إِلَى مَحَلِّ قَرَارِهِـمْ مُسْتَبْشِرِينَ بِفَضْلِهِ وَ عَطَائِـــهِ
فَتَبَارَكَ اللهُ اللَّطِيفُ بِصُنْعِـــهِ امَأْعْقَلَ الثَّقَلَيْنِ عَنْ فُهَمَائِـــهِ
رَفَعَ السَّمَاءَ بِلا عِمَادٍ بَيِّـــنٍ وَ الْبَحْرُ أَمْسَكَهُ عَلَى أَرْجَائِـــهِ
لَوْلاَهُ فَاضَ عَلَى الْعِبَادِ بِمَوْجِهِ وَ عَلَى الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ بِمَائِهِ
أَخَذَ الْبِلاَسَيْفِهِ فَاسْتَلَمَـتْ وَ بِعَدْلِهِ وَ بِفَضْلِهِ وَ سخَائِـــهِ[1]

إنّ بكر في هذه المقطوعة الشّعرية، يبجّل عظمة الخالق لكمال قدرته في تسيير شؤون الكون وعلمه بخفايا الأمور، ولطفه بعباده كتحقيقه النّصر لأبي حاتم الّذي خرج سالما من الفتنة** كما يمدح أبا حاتم العادل إذ ردّ الاعتبار لنفسه باسترجاع تيهرت متّخذا السّيف سلاحه القوي و العفو والسّخاء سياسته.

وكان بكر بن حماد قد شارك في الفتنة الثّائرة ضدّ أبي حاتم، فاعتذر منه في مقطوعة شعرية أدرجها عبد الملك مرتاض ضمن المدح[2].

ولابأس أن نورد اعتذاريته إذ يستهلّها بمقدّمة غزلية قائلا:

وَ مُؤْنِسَةٍ لي بِالْعِرَاقِ تَرَكْتُهَـــا وَ عُصْنَابي في الْغُصُونِ نَضِيرُ
فَقَالَتْ كَمَا قَالَ النَّوَاسِيقَبْلَهَا عَزِيزٌ عَلَيْنَـا أَنْ نَـلُوَ تَسِيـــرُ[3]

ليذكر سبب عودته وهو طلب الاعتذار من أبي حاتم لما بدر منه خلال الفتنة بحيث انساق وراء المخالفين الثائرين كرها مذكّره بأنّ أفضل التّسامح هو العفو عند المقدرة:

* هو سادس الأئمة الرّستميين.
[1] الدر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش، ص 85 86.
** هي الفتنة الّتي وقعت بين أبي حاتم وعمّه أبي يعقوب بن أفلح.
[2] ينظر الأدب الجزائري القديم، ص 65.
* أبو نواس من أشهر شعراء العصر العباسي (199ه).
[3] الدر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش، ص 83.

فَقُلْتُ جَفَاني يُوسُفُ بْنُ مُحَمَّدٍ فَطَالَ عَلَيَّ اللَّيْلُ وَ هُوَ قَصِيرُ
أَبَا حَاتِمٍ مَا كَانَ مَا كَانَ بَغْضَةً وَ لَكِنْ أَتَتْ بَعْدَ الأُمُورِ أُمُورُ
فَأَكْرَهَنِي قَوْمٌ شَتِيتٌ عِقَابُهُمْ قَدَارَيْتُهُمْ وَ الدَّائِرَاتُ تَدُورُ
وَ أَكْرَعُ فِيهِ يُؤْثِرُ النَّاسُ أَمْرَهُ إِذَا مَا عَفَا الإِنْسَانُ وَ هُوَ قَدِيرُ[1]

فعفا عنه أبو حاتم، ونظم في مدحه المقطوعة الّتي ذكرناها آنفا.

ومن بين الّذين مدحوا الملوك، أحمد بن الفتح** الّذي يستهلّ مقطوعته الشّعرية بوصف قينة بصرية فائقة الجمال متديّنة قائلا:

قَبَّحَ الإِلَهُ اللَّهْوَ إِلاَّ قَيْنَةً بَصَرِيَّةً فِي حُمْرَةٍ بَيَّاضِ
مَكْحُولَةِ الحَدَقَاتِ وَ الوَرْدُ فِي جَنَاتِهَا وَ الكَشْحُ غَيْرُ مُفَاضِ
فِي شَكْلِ حِيٍّ وَ نُسْكِ مُهَاجِرٍ وَ عَفَافِ سُنِّيٍّ وَ سَمْتِ إِبَاضِ[2]

ثمّ يخاطب تيهرت بأنّه في غنى عنها لأنّه وجد مبتغاه في البصرة مادحا ملكها* فيقول:

يَهْتَزُّ أَنْتِ خَلِيَّةٌ وَ بِرِقَّةٍ عُوِّضْتُ مِنْكَ بِبَصْرَةٍ غَيْدَاضِ
لاَ عُذْرَ لِلحَمْرَاءِ فِي كَلَفِي بِهَا أَوْ تَسْتَفِيضَ بِأَبْحُرٍ حِيَاضِ
مَا عُذْرُهَا وَ البَحْرُ عِيسَى رَبُّهَا مَلِكُ المُلُوكِ وَ رَائِضُ الرُّوَّاضِ[3]

أمّا جعفر بن فلاّح الكتّامي** فقد مدح صديقه المخلص منوها بعفّة لسانه وسخائه دون مقابل:

وَ لِي صَدِيقٌ مَا مَسَّنِي عَدَمٌ مُذْ نَظَرَتْ عَيْنُهُ إِلَى عَدَمِي
أَعْطَى وَ أَقْنَى وَ لَمْ يُكَلِّفْنِي تَقْبِيلَ كَفِّهِ وَ لاَ قَدَمِي[4]

---

[1] الدر الوقاد م س، ص 83 84.

** أحمد بن الفتح المعروب بابن الخرّاز التّاهرتي من شعراء القرن الثّالث الهجري تولىّ قضاء تيهرت ثمّ انتقل إلى مدينة البصرة المغربية.

[2] المسالك و الممالك، البكري، ص110.

* هو أبو العيش عيسى بن إبراهيم بن القاسم من أمراء الدّولة الإدريسية.

[3] نفسه، ص نفسها.

** هو أبو الفضل جعفر بن فلاّح بن أبي مرزوف الكتّامي، احد زعماء كتّامة كان شاعرا و أديبا (360هـ).

[4] النّجوم الزاهرة، ابن ثغرى، ج2، ص 428.

غير أنّ المدح عند ابن هاني، نحى منحى آخر، نستشفّه من خلال بعض قصائده، وقبل أن نتطرق إليها، لابأس أن نذكر هذه القصّة الّتي أوردها ابن سعيد المغربي في كتابه قائلا: "أنّ الشّاعر ابن هاني عندما أتى إلى المسيلة ليتّصل بجعفر بن علي ملك الزّاب، وجد بابه عامرا بالشّعراء، فعلم أنّ وزيره وخواصّه لا يتركون مثله يقرّب من ملكهم، فخطرت بباله حيلة إذ تزيّن بزيّ بربري وكتب على كتف شاه مجرود من اللّحم:

اللّيـــل ليـل و النّهـار نهـــــار و البغـــل بغـــل و الحـمـار حمـار
و الدّيك ديك و الدّجاجة زوجه وكـلّ هـــا طـيـــــر لـه مـنـقـار.

فقرأ هذين البيتين على مسامع الوزير، فقال: "أنا شاعر مفلق أريد أن أنشد الملك هذا الشّعر"، فضحك الوزير وأراد أن يطرف الملك به، فبلغه ذلك، فأمر بوصوله إليه، فلمّا دخل عليه قام وعدّل عن ذلك الشّعر، وأنشد قصيدته الّتي يصف فيها النّجوم قائلا:

أَليلتَنا إِذْ أَرْسَلتْ وَاردًا وَحفًّـــا و بتنا نرى الجوزاءَ في أُذنها شنَفَا

إلى أن وصل إلى مدح جعفر قائلا:

نَكِلْؤَاءَ الشَمْسِ عُرْةُ جَعْفَـــرٍ رَأى القِرْنَ فَازْدَادَتْ طَلاقته ضِعْفا

فقام إليه جعفر وقال له: بالله أنت ابن هاني قال: نعم فعانقه وأجلسه إلى جانبه وخلع عليه ما كان فوقه من الثّياب الملكية، فجلّ عنده إلى ذلك الحين"[1].

إنّ هذه القصّة تدل على شهـرة ابـن هانـي وذيـوع صيته بالإضافة إلى اهتمام جعفر بن علي بالشّعراء وتقريبهم إليه.

[1] المغرب في حلى المغرب، ، ج2، ص 97 98.

والملاحظ أنّ ابن هاني لم يقصّر في حقّ جعفر بن علي، إذ كان كثير المدح له ولأسرته لما وجده من لذّة العيش ومظاهر الحياة الرّاقية، ومن ذلك أنّه مدحه مازجا خصاله بجمال طبيعة الزّاب قائلا:

أَلا أَيُّهَا الوَادِي المُقَدَّسُ بِالنَّدَى وَ أَهْلَ النَّدَى قَلْبِي إِلَيْكَ مُشَوَّقُ
وَ يَا أَيُّهَا القَصْرُ المُنِيفُ قبابه على الزّاب لا يسدّد إليك طَرِيقُ
وَ يَا مَلِكَ الزَّابِ الرَّفِيعِ عِمَادُه بَقِيتَ لِجَمْعِ المَجْدِ وَ هُوَ فَرِيقُ[1]

ويواصل ذاكرا صفاته من جود وقوّة وعزّة مقرنها برونق الطّبيعة فيقول:

فَلِلْجُودِ مَجْرَى مِنْ صَفِيحَةِ وَجْهِهِ إِذَا كَانَ مِنْ ذَاكَ الجَبِينِ شُرُوقُ
وَ عِزَّتِهِ لِلْمَجْدِ حَتَّى كَأَنَّمَا جَرَتْ فِي سَجَايَاهُ لِلْعُلَى رَحِيقُ
فَكَيْفَ تَصْبِرُ النَّفْسُ عَنْهُ وَ دُونَهُ مِنَ الأَرْضِ مغبر الفجاج عَمِيقُ[2]

ثمّ يجدّد خطابه لجعفر للتّأكيد والتّنويه بالمكانة العاليّة الّتي يستحقّها فلا داعي لشكر الدّنيا على ذلك، إذ يقول:

فَكُنْ كَيْفَ شَاءَ النَّاسُ أَوْ شِئْتَ دَائِمًا فَلَيْسَ لِهَذَا المُلْكِ غَيْرَكَ فوقُ
وَ لا تَكْسُرِ الدُّنْيَا عَلَى نَيْلِ رُتْبَةٍ فَمَا نِلْتَهَا إِلا وَ أَنْتَ حَقِيقُ[3]

فجعفر عند ابن هاني ينير مثل الشّمس والقمر، حين يقول:

وَ المُشْرِقَاتُ النَّيِّرَاتُ ثَلاثَةٌ الشَّمْسُ وَ القَمَرُ المُنِيرُ وَ جَعْفَرُ[4]

وممّا يدل على صدق ابن هاني في مدح جعفر، هو مرضه، فعبرّ الشّاعر عمّا يختلج بنفسه، مادحه تارة وحزينا لعلّته تارة أخرى، إذ يستهل قصيدته مخاطبا جعفر بتفضيله على كافّة البشرة من عرب و عجم منوّها بصفاته وأخلاقه العالية من علم وأدب وجد و كرم وشرف، فيقول:

---

[1] أدب المغرب العربي قديما، عمر بن قينة ،ص 64.
[2] ا نفسه، ص نفسها.
[3] نفسه، ص نفسها.
[4] ديوانه ، ص165.

يَا خَيْرَ مُلْتَحِفٍ بِالْمَجْدِ وَ الكَرَمِ وَ أَفْضَلَ النَّاسِ مِنْ عُرْبٍ وَ مِنْ عَجَمِ
يا ابْنَ السَّدَى وَالنَّدَى والمَعْلُوَاتِ مَعًا وَالحِلْمِ وَالعِلْمِ وَالآدَابِ وَالحِكَمِ [1]

ثمّ تمنّى لو أنّ المرض أصابه هو وتعافى جعفر:

لَوْ كُنْتُ أُعْطَى الْمُنَى فِيمَا أُؤَمِّلُهُ حَمَلْتُ عَنْكَ الَّذِي حُمِّلْتَ مِنْ أَلَمِ
وَكُنْتُ أَعْتَدُّهُ يَدًا ظَفِرْتُ بِهَا مِنَ الأَيَادِي وَ قِسْمًا أَوْفَرَ القِسَمِ
حَتَّى تَرُوحَ مُعَافَى الجِسْمِ سَالِمَهُ وَتَسْتَقِيلَ إِلَى الْعَلْيَاءِ وَ الْكَرَمِ [2]

فيشهد الله على قلقه وحزنه الشّديد منذ أن سمع بمرض جعفر داعيا له بالشّفاء طورا، وملطّخا وجهه بالتّراب في الظلام الحالك طورا آخر، إذ يقول مهموما متأثّرا:

اللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مُذْ سَمِعْتُ بِمَا عَرَاكَ لَمْ أَعْتَمِضْ وجْدًا وَلَمْ أَنَمِ
فَعِنْدَ ذَا أَنَا مَدْفُوعٌ إِلَى قَلَقٍ وَ مَرَّةً أَنَا مَصْرُوفٌ إِلَى سَدَمِ
أَدْعُو طَوْرًا أَحِيلُ الوَجْهَ مُبْتَهِلاً عَلَى بِسَاطِ الثَّرَى فِي حِنْدِسِ الظُّلَمِ [3]

ويتساءل كيف تمكّن المرض منه بعدما كان هو الطّبيب معبرا عن حزنه ومشيدا ببطولاته قائلا:

وَ كَيفَ لا، كَيْفَ أَنْ يَخْطُو السَّقَامُ إِلَى مَنْ فِي يَدَيْهِ شِفَاءُ الضُّرِّ و السَّقَمِ
إِلَى الهُمَامِ الَّذِي لَمْ تَرْنُ مُقْلَتُهُ إِلاَّ إِلَى الهِمَمِ العُظْمَى مِنَ الهِمَمِ .
أجرَى الكِرَامُ إِلَى غاياتِ مَكرمةٍ أَجَلَّ وَ أَضْخَمَ طُرًا حُسَّامَ قَمِ [4]

ويواصل مادحا جعفر متوجعا على علّته إلى نهاية القصيدة.

[1] ديوانه م س ،ص 335.
[2] نفسه، ص 335.
[3] نفسه، ص نفسها.
[4] نفسه، ص نفسها.

كما يتحسر في مقطوعة شعرية عن فراقه للزّاب وجعفر وكأنّما فارق جنّة الخلد ونهرها الكوثر مثلما فارقهما سيّدنا آدم- عليه السّلام* ، مشيدا بزهو الأيّام في عهد جعفر لما كانت تتوفرعليه الزّاب من مظاهر الحضارة الرّاقيةوالعيش الرّغد، داعيا له بالدّوام والاستمرار:

خَلِيلَيَّ أَينَ الزَّابُ مِنَّا وَ جَعْفَرُ وَ جَنَّاتُ عَدْنٍ بِنْتُ عَنْهَا وَ كَوْثَرُ
فَقَبِّلِي نَأَى عَنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ آدَمُ فَمَا رَاقَهُ فِي سَاحَةِ الأَرْضِ مَنْظَرُ
خَلِيلَيَّ مَا الأَيَّامُ إِلاَّ بِجَعْفَرٍ وَ مَا النَّاسُ إِلاَّ جَعْفَرِدَام جَعْفَرُ[1]

فكان ابن هاني وفيا لجعفر صادقا في مدحه.

وقد مدح جعفر بن فلاّح الكتّامي مشيدا ببطولاته وعلى الرّغم من أنّه كان يسمع عنه أطيب الأخبار فإنّه أحسن بكثير ممّا سمع، فيقول:

كَانَت مُسَاءَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنَا عَنْ جعفر بن فَلاحٍ أَطْيَبَ الخَبَرِ
ثُمَّ الْتَقَيْنَا فَلا وَاللهِ مَا سَمِعَتْ أُذُنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِي[2]

غير أنّنا نجد ابن هاني يبالغ في مدحه للمعز لدين الله الفاطمي حيث أضفى عليه صفات الألوهية قائلا:

مَا شِئْتَ لا مَا شَاءَتِ الأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الوَاحِدُ القَهَّارُ[3]

ولم يكتف بذلك فالمعز في نظره هو نفسه الرّسول صلّى الله عليه و سلّم وأنصاره هم أنصار الرّسول صلّى الله عليه و سلّم إذ يخاطبه للدّلالة على نبوّته:

وَكَأَنَّمَا أَنْتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ وَكَأَنَّمَا أَنْصَارُكَ الأَنْصَارُ
أَنْتَ الَّذِي كَانَتْ تُبَشِّرُنَا بِهِ فِي كُتُبِهَا الأَحْبَارُ وَ الأَخْيَارُ[4]

* المراد قصّة التّفاحة المشهورة في القرآن.

[1] الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، محمد الطّمار، ديوان المطبوعات الجامعية، ط3، 2007م،ص 111.

[2] ديوان ابن هاني، ص 165.

[3] نفسه ص 146.

[4] نفسه ،ص نفسها.

ويواصل واصفه بصفات النّبوة بل الأكثر من ذلك أنّه شفيع النّاس يوم القيامة:

هَـذَا إِمَـامُ الْمُتَّقِيـنَ وَ مَنْ بِـهِ قَدْ دَوَّخَ الطُّغْيَانَ وَ الْكُفَّـارُ
هَذَا الَّذِي تُرْجَـى النَّجَـاةُ بِحُبِّهِ وَ بِـهِ يُحَطُّ الإِصْـرُ وَ الأَوْزَارُ
هَـذَا الَّذِي تُجْـدِي شفاعَتُهُ غَـدًا حَقًـا وَ تَحْمَدُ أَنْ تَـوَاهُ النَّـارُ[1]

ويقول في قصيدة أخرى مستهزئا ببني العبّاس ومنوها بجوهر الصّقلي الّذي فتح مصر:

تَقُولُونَ: العبّاسِ هَلْ فُتِحَتْ مِصْرُ فَقُلْ لِبَنِي العَبَّاسِ قَدْ قُضِيَ الأَمْـرُ!
وَ قَدْ وَجَزَ الإِسْكَنْدَرِيَّةَ جَوْهَـــر تُطَالِعُه البُشْرَى وَ يَقْدمه النَّصْــرُ
وَ قَدْ أَوقَدَتْ مِصرِ إِلَيْهِ وُفُودَهَـــا وَزِيدَ إِلَى المَعْقُودِ مِنْ حِسْرِهَا حِسْرُ
فَمَا جَاءَ هَذَا اليَوْمَ إِلا وَ قَدْ عَدَتْ وَ أَيدِيكُمْ مِنْهَا وَ مِنْ غَيْرِهَا صِفْــرُ
فَلا تُكْثِرُوا ذِكْرَ الزَّمَانِ الَّذِي خَـلا فَذَلِكَ عَصْرٌ قَدْ تَقَضَّى وَ ذَا عَصْـرُ
أَفِي الجَيْشِ كُنْتُمْ تَمْتَرُونَ رُوَيْدِكُمْ! فَهَذَا القِنا العرّاصُ وَ الجَعْفَلُ الْمَجْرُ[2]

ثمّ يمدح المعز واصفه بالإله الّذي بيده الموت والحياة، معجبا بعبقريته الحربية وحنكته السّياسية، آمرا بطاعته والانقياد له ، فيقول:

وَ قَدْ أَشْرَقَتْ خَيْلُ الإِلَـهِ طَـوَالِعَـا عَلَى الدِّينِ وَ الدُّنْيَا كَمَا طَلَعَ الفَجْرُ
وَ ذَا ابْـنُ نَبِيِّ اللهِ يَطْلُبُ وِتْـرَهُ وَ كَانَ حَرٌّ أَنْ لا يَضِيـعَ لَـهُ وِتْـرُ
ذروا الوَرْدِ مَاءِ الفُـرَاتِ لِحِيلِـهِ فَلا الضَّحْلُ منه تمنعون و لا الغمـر
أَفِي الشَّمْسِ شَكٌّ هَلْ الشَّمْسُ بَعْدَمَا تَجَلَّتْ عِيَانًا لَيْسَ مِنْ دونِهـا سِتْـرُ
وَ مَا هِـيَ إِلا آيَـةٌ بَعْـدَ آيَـــةٌ وَ نُذرٌ لَكُمْ إِنْ كَانَ يُغْنِيكُـمْ النُّـذْرُ
فَكُونُوا حَصِيدًا خَامِدِينَ أَوْ ارْعَـوُوا إِلَى مَلِكٍ فِي كَفِّهِ المَـوْتُ وَ النَّشْرُ
أَطِيعُوا إِمَامًـا لِلأَئِمَّـةِ فَاضِـلاً كما كانتِ الأَعْمَـالُ يُفضِّلُهَـا البِـرُ[3]

---

[1] ديوانه م س، ص 146.
[2] نفسه ، ص 131.
[3] نفسه، ص131 132.

فالظّاهر أنّ مدح ابن هاني للمعز بكلّ هذا التّبجيل وهذه العظمة راجع إلى انتمائهما للمذهب الشّيعي الإسماعيلي "فجمع بينهما الهوى المذهبي"[1] و كان ابن هاني يمدحه و"كأنّه يمدح العقيدة التي امن بها وكافح من اجلها طول حياته"[2].

أمّا محمّد بن الحسين التّميمي الطّبني فقد مدح الحكم بن عبد الرّحمن النّاصر* في قصيدة استهلّها بالإشادة بمنزلة الحكم الممتازة وذلك بتفضيله على كافّة البشرية واختياره خليفة لما فيه من خصال وسجايا سامية لا تضاهيها إلاّ جماليات الطّبيعة من عطر و هواء نقي:

نَظَرَ الإِلَهُ إِلَى البَرِيَّةِ رَحْمَـــةً فاخْتَـارَ أَفْضَـلَهَـا وَ تَخَـيَّرَا
مَلِك أَقَامَ العَــدْلَ فــي أيّامِـهِ سُوقـا فَصَار الحَـقُّ فِيهِ مُتْـجَـرَا
لَمْ يجر طيّب ذكره في مَجْلس إلا حَسِبت بِهِ الهَــوَاء تَعَطّــرَا
مَلأَ العباد سَنَــاؤُهُ وَ ثَنَـاؤُهُ عَدْلاً فَأكسد مِسْكَهَا و العَنْبَرَا
لاَ يَبْتَغِي السَّــارِي دَلِيلاً نحوهُ فالبــدر من لألائِـه قَدْ أَسْفَـرَا[3]

ويستمر في مدحه مازجا صفاته بالنّور الّذي يضيء اللّيالي أضف إلى ذلك زهو الأيّام في عهده، فيقول:

يَجْلُو ظَلاَمَ اللّيلِ نُورَ جَبينِهِ فَكــأنّ مِرْتَيَــقَ الدّاجنــةِ فُجّــرَا
لاَزَالتِ الأيّام أعظم حَظّهَـا في الدّهْرِ أَنْ تُطْوَى لَدَيْكَ وَ تُنْشَرَا[4]

[1] أدب المغرب العربي قديما، عمر بن قينة، ص 65.
[2] قصّة الأدب في الأندلس، محمد عبد المنعم خفاجة، ج2،ص 171.
* ثاني خلفاء بني أمية.
[3] إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش و الغوتي بن حمدان مج1، داوود بربكسي تلمسان،ط1، 2001م،ص45
[4] نفسه ، ص 46.

ليختم قصيته بالتّغني بمدينة الزّهراء* الجميلة المنظر الّتي بعثت في نفس المسلمين غبطة وسرورا ومَدحِ "الحكم" لتأكيد مكانته وسيرته بشعبه سيرة حسنة، قائلا:

رأتْ عُيُونُ المُسْلِمِينَ بِغـــرّة زهراء تسلكهم سبيلا أزهـــــرا
أبصارهم تجلوا سرورا ظاهــرا و قلوبهم تجني سرورا مضمـــرا
فلو أن أركان السرير كواكــب يشرقن لاستحققت منهــا أكثــرا
غير النّكير وأنت شمس الهدى أن تقتدي شمس الضّحى لك منبرا[1]

فالمدح عند الطّبني كان مزيجا بين صفات وخصال الممدوح مع جماليات الطّبيعة.

كما مدح ابن قاضي ميلة ثقة الدّولة الكلبي** في قصيدة افتتحها بذكر قصّته مع الفتاة المحرمة الّتي تركته وصدّت عنه، فبقي يعاني من ألم الفراق في مقدّمة غزلية يقول في مطلعها:

يذيل الهَوَى نَهْي وَ قَلْبِي المُعَنَّفُ وَ تَجْنِي جُفُونِي الوَجْدَ وَ هُوَ المُكَلَّفُ
وَ إِنِي لَيَدْعُونِـــي إِلَى مَا شنفتهُ وَ فَارَقْتُ مَغْنَـــاهُ الأَغَنُّ المُشَنَّـــفُ[2]

لكن يظهر بأنّه وجد من يضمّد جراحه ويخفّف عنه آلامه وهو يوسف أبو الفتوح فيمدحه بأحسن النّعوت من أجل أن يغدق عليه بماله، حين يقول:

تَقُولُ إِذا أفنيـــتَ مَالكَ كُلّـــهُ وَ أَوْجَعْتَ مَنْ يُعْطِيكهُ؟ قُلْتُ :يُوسُفُ
أَعَزّ قُضَـــاةِ يّ يكـــادُ نـــوالُـــهُ لِكَثْرَةِ مَا يَدْعُو إِلى الشّكْرِ يُجْحَـــفُ
إِذَا نَحْـــنُ أَخْلَفْنَـــا مَخَايِلَ ديمـــة وجدنا حيا معروفه لَيْـــسَ يخلـــفُ
سَعَى وسَعَى الأَمْلاكُ في طَلَبِ العُلا فَفَازَ وَ أَكْدُوا إِذْ أَخَـــفّ وَ أَقْطَفُـــوا
و يقظان شَابَ البَطْشَ بِالبرّ و التّقَى بِكَفّيْهِ مَا يُرجَـــى وَ مَـــا يُتَخَـــوّفُ[3]

فابن قاضي ميلة يمدح ثقة الدّولة بكثرة عطائه وسخائه في إنفاق المال لدرجة أنّ الشّكر لا يكفيه من شدّة كرمه، وقد سعـى الملوك في بلوغ المجد لكن سبقهم وفاز عليهم فخابوا

* تبعد عن قرطبة بحوالي سبعة أميال.
[1] ارشاد الحائر م س، ص 46.
** هو أبو الفتوح يوسف بن عبد الله ملك صقلّيةولىّ الحكم 388هـ.
[2] وفيات الأعيان، ابن حلكان، مج6، ص 159.
[3] نفسه،ص160،161.

وتخلّفوا، ومن صفاته أنّه يقظان جمع دائما بين البرّ والتّقوى والبطش ففي كفّيه ما يرتجى وما يخشى.

ويواصل مدحه بسداد رأيه وكثرة جيوشه، فهو سيف مسلول على المشركين، وستر مسبل على المسلمين، يصاحبه جيشان من حزمه وجنده، وترافقه قوّة السّيف والعزم في تسيير الحروب، إذ يقول:

حُسَامٌ عَلَى مَنْ نَاصَبَ الدّين مصلت وَ سِتْر عَلى من راقبَ الله مغـذف
سُيُايِـــرُهُ جَيْشَانِ زَأي وَ قَيْلَـــق وَ يَصْحَبُهُ سَيْفَانِ عَزْم و مُرْهَـفُ
مُطِـــلّ عَلَى مَنْ شَاءَهُ فَكَأَنَّمَـــا عَلى حكمه صرف الرّدى يَتَصَرّفُ
يَرَى رَأْيُهُ مَا لاَ تَـرَى عَيْـنُ غَيْره وَ يَفْرِي بِهِ مَا لَيْسَ يفري المُثَقّفُ [1]

ثمّ يدعو الله أن يحميه و يرعاه لرعايته للإسلام حتىّ في الظّلام الدّامس، مشيدا ببطولاته الحربية وشجاعته وطريقه مباغتته للأعداء قائلا:

رَعَى اللهُ مَنْ تَحْمِي حِمَى الدّين عَيْنُهُ وَ يَحْمِي حِمَى الإسْلاَمِ و اللّيْلُ أَعْضَفُ
وَ مَنْ يَضْرِبُ الأَعْدَاءَ هَبْرًا قَتَنْتَنِـي صَنَادِيدُهُمْ و البيضُ الهَـامِ تَقْـــذَفُ
رَمَاهُمْ بِمَجْرٍ ضَعْضَعَ الأَرْضَ رزّه كأنّ الرّوابي مِنْـه بِالنّبْـــلِ تُدْلَـــفُ
كأنّ الرّدِينيات في رَوَنَـقِ الضّحَـــى أَرَاقِمُ* طَـــامٍ مِنَ الآلِ تزْحَـــفُ
يَعُودُ الدّجَى مِن بِيضِهِ وَ هُوَ أَبْيَـض وَيَبْدُو الضّحَى مِنْ نَقْعِهِ** هُوَ أَكْلَفُ [2]

ويستمرّ في مدح هذا الملك الحصيف منوّها بحنكته العسكرية ودهائه السّياسي والدّيني فعظمت نكايته في الحروب واستطاع أن يرد العديد من المشركين إلى الدّين الإسلامي.

ثمّ يخاطب الممدوح و ينعته بأحسن النّعوت، مهنّئه بالعيد الّذي استمد منه حسنه وأوصافه البديعة، وأتاه زائرا بعد عام من الشّوق والاشتياق متمنيا رؤيته، فاستقبله الملك أحسن استقبال

[1] وفيات الأعيان، م س ،ص 161.
* أراقم: حيّات.
** نقع: غبار الحرب.
[2] نفسه ، ص161.

إذ زينت الأرجاء و نمّقت وشّيها لتمتلئ زهوا بما على جوانبها من وشي العراق الرّقيق كما حلاّه بطوق رائع وقرط بديع، ويتجلّى ذلك كلّه في قوله:

فَيَا ثَلَّةَ المَلِكِ الذِي المُلك سَهْمُهُ يُرَاشُ لِأَكْبَادِ الأَعَادِي وَ يُرْصَفُ
هنيئا لَكَ العِيدُ الذِي مِنْكَ حُسْنُهُ يَرُوقُ وَ مِنْ أَوْصَافِكَ الغُرِّ يُوصَفُ
بَدَا معلم الأَاءِ يُزْهَى كأَنَّمَا عَلَيْهِ وَشْيُ العِرَاقِ المُشَقَّفُ
أَتى بَعْدَ حَوْلٍ زَائِرًا عَنْ تشَوُّقٍ وَ قَدْ كَانَ ذَا طَرَفٍ للقياك يَطْرَفُ
فَطَوَّقْتَهُ عِزًا وَ شنفتَهُ بِهِ فَلاَحَ لَنَا وَ هُوَ المُحَلَّى المُشَنَّفُ [1]

وفي آخر القصيدة يبين مدى كرم الملك وجوده بإغداق نعمه على كلّ من يقصده، ومنحه ما يرجى من مال وعناية وكشفه لنوازل الخطوب، إذ يقول:

فَلاَ زِلْتَ تُستَجْدَى فَتُولِّي وَ تُرْتَجَى فَتَكْفِي وتُسْتَدْعَى لِخَطْبٍ فَتَكْشَفُ [2]

وقد نوّه ابن خلكان بهذه القصيدة لحسنها وغرابتها[3].

ويقول ابن رشيق في مدح المعز بن باديس مشيدا بشخصيته العظيمة وحسن تسييره لشؤون الدّنيا الّتي أشرقت في عهده:

مُعِزُّ الهُدَى لاَزَالَ عِزُّكَ دَائِبًا وَ زُيِّنَتِ الدُّنْيَا لَنَا بِحَيَاتِكَا [4]

[1] وفيات الأعيان،م س، ص 161، 162.
[2] نفسه، ص 162.
[3] نفسه، ص 159.
[4] الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبي الحسن علي بن بسّام السّشتريني، تحقيق: إحسان عبّاس، ق4،مج2، دار الثقافة ط1، 1979م 1399هـ،ص611.

ثمّ يخبره بإنجاب زوجته لطفلة فرح بها، لكنّه من شدّة حبّه له تمنى لو كان المولود ذكرا ليخلفه في مدح المعز، عرفانا له بفضله وكرمه، فيقول:

أَتَتْنِي أُنْثَى يَعْلَمُ اللهُ أَنِّي سُرِرْتُ بِهَا إِذْ أُمُّهَا مِنْ هِبَاتِكَا
وَ قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنَّهَا ذُو بلاغَةٍ يَقُومُ مَقَامِي فيَدِيعِ صِفَاتِكَا
وَ مَا نَحْنُ إِلا نَبْتُ جُودِكَ كُلُّنَا وَ كُلُّ نَبَاتِ الأَرْضِ مِنْ بَرَكَاتِكَا[1]

كما تأثر ابن النّحوى بالغزالي كثيرا، وما مدحه إلاّ دليل على ذلك، إذ نوّه به وبكتابه الّذي أحيا به علوم الدّين فأجاد فيه وأبدع كلّ الإبداع وأخرجه في الصورة الّتي هو عليها بتوفيق من الله، حيث يقول:

أَبُو حَامِدٍ أَحْيَا من الدين عِلْمَهُ وَ جَدَّدَ مِنْهُ مَا تَقَادَمَ مِنْ عَهْدِ
وَ وَفَّقَهُ الرَّحْمَنُ فِيمَا أَتَى بِهِ وَ أَلْهَمَهُ فِيمَا أَرَادَ إِلَى الرُّشْدِ
فَفَصَّلَهَا تَفْصِيلَهَا فَأَتَى بِهَا فَجَاءَتْ كَأَمْثَالِ النُّجُومِ الَّتِي تَهْدِي[2]

أمّا ابن الفكاه القيرواني* فقد مدح عزّ النّاصر بن علناس مشيدا بقصوره وبناياته الفاخرة وانتصاراته في أبيات شعرية ابتدأها بالغزل ثمّ خلص إلى مدح الملك قائلا:

قَالَتْ سُعَادُ و قد زُمَّتْ رَكَائِبُنَا مَهْلاً عَلَيْكَ فَأَنْتَ الرَّائِحُ الغَادِي
فَقُلْتُ تَاللهِ لا أَنْفَكُّ ذَا سَفَرٍ تَجْرِي بِيَ الفُلْكُ أَوْ يَحْدُو بِيَ الحَادِي
حَتَّى أُقَبِّلَ رُبُ العِزِّ مُنْتَصِرا بِالنَّاصِرِ بن عِلْنَاسِ بن حمادِ[3]

[1] الذخيرة، م س، ص 612.

[2] الخريدة، الأصفهاني، مج2، قسم شعراء المغرب، ص 226.

* هو أبو القاسم عبد الخالق بن إبراهيم القرشي وفد على الدّولة الحمّادية أيّام النّاصر بن علناس.

[3] الأدب في عصر دولة بني حمّاد، أحمد بن محمّد أبورزّاق، ص 207.

وقال ابن حمديس يمدح المنصور في قصيدة ويذكر مزاياه لما يتّسم به من ندى وكرم فيّاض وعزّة نفس وبطولة وشهامة في الحروب وغير ذلك من الصّفات النّبيلة الّتي أوضحت شخصية المنصور، منها:

ذُو أَيَادٍ بِأَيَادٍ وَصَلَتْ كَتَوَالِي دِيَمٍ بَعْدَ دِيَمْ
وَ إِذَا مَا عَبَسَ الدَّهْرُ بَسَمْ وَ إِذَا مَا بَخِلَ الْغَيْمُ سَخَا
يَنْتَحِي اسْلاَ تُ عِزا [كُلَمَا] قُرِّبَتْ مِنْ عِنْدِهِ صَارَتْ خَدَمْ
لَسْتُ أَدْرِي أَيَمِين قُبِّلَتْ مِنْهُ فِي تَسْلِيمِهَا أَمْ مُسْتَلِمْ
يُذْعَرُ الجَبَّارُ مِنْهُ فَعَلَى شَفَةِ يَمْشِي إِلَيْهِ لا قدم.
قَالِقُ الهَامِ إِذَا كَرَّ سَطَا مُسْعِرُ الحَرْبِ إِذَا هَمَّ اعْتَزَمْ[1]

يتّضح من خلال النّماذج المستشهد بها إذا، أنّ المدح في تلك الفترة كان بعضه تكسبيا وكان بعضه الآخر منافحا عن مذهب أو مدافعا عن الممدوح وخصاله، فكلّ شاعر مدح بطريقته الخاصّة إلاّ أنّ ابن حمديس اكتفى بقصيدة واحدة في مدح المنصور بالرّغم من العلاقة الوطيدة الّتي كانت بينهما، فهل مدحه في قصائد طويلة أخرى و ضاعت ؟ لا ندري.

[1] ديوان ابن حمديس، ص 390 391.

الفصل الرّابع:
الهجاء

لقد ظهر الهجاء منذ القديم، فالإنسان عندما نشأ وجد نفسه مصطدما أحيانا مع واقع ما أو السّخط فيه، فعبرّ عن كرهه واشمئزازه بكلام بذيء[1].

ومن هنا يتّضح بأنّ الهجاء يقوم على نقد لاذع يبلغ حدّ الشّتائم والهزؤ السّاخر الشّديد الإيلام»[2].

وهو أيضا: «تعداد مثالب المرء و قبيحه ونفي المكارم و المحاسن عنه»[3]. إذ كان الشّعراء في الجاهلية يعدّونه سلاحهم لأنّه لا يقل عن الاسلحة التي كانوا يستعملونها في حروبهم[4] فقيس بن خفاف البراجمي يقول:

فَأصبحتُ أعددت للنّائبا تِ عرضًا بريئا و عضبا صَقِيلا

وَ وَقْعَ لِسَانٍ كحَدّ السّنان و رمحا طَويلَ القَنَاةِ عَسُولا[5].

أمّا في العصر الإسلامي، فقد كان الشّعراء المشركون يهاجمون الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم و يذمّون الدّين الجديد، فسمح الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم للشّعراء بالرّد عليهم وكان في طليعتهم حسّان بن ثابت[6] الذي وصف حال الدّولة الإسلامية وما تعرّضت له من حروب وغزوات وسبّ للدّين فقال:

---

[1] ينظر الموسوعة الثّقافية، فوّاز الشّعار، ص 109.

[2] مدخل إلى الأدب العربي، سليمان معوّض، ص 96.

[3] جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب،أحمد الهاشمي،ج2،مؤسسة المعارف،بيروت،لبنان،2004م، ص 24.

[4] الأدب الجاهلي: قضايا و فنون و نصوص، حسني عبد الجليل يوسف، مؤسسة المختار للنشر و التّوزيع، ط1، 2001م، ص 99.

[5] نفسه، ص نفسها.

[6] أدب صدر الإسلام، واضح الصّمد،المؤسسة الجامعية للنشر و التوزيع،بيروت،لبنان،ط1،1994م 1414ه ، ص 131.

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مُعَدٍّ سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

فَنَحْكُمُ بِالقَوَافِي مَنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ[1].

فكان الشّعراء المسلمون يردّون بالهجاء ويقاتلون بالسّيوف في المعارك حماية للدّين إلاّ أنّه بعد مقتل عثمان بن عفّان، وانشقاق الأحزاب، كان كلّ حزب يهجو الحزب الآخر بأقبح النّعوت، وبلغ الهجاء أوجه لكن حقد الخوارج تعدى إلى قتل الإمام علي _كرّم الله وجهه ، إذ يقول محمّد بن رمضان شاوش: "اجتمع نفر من الخوارج بمكّة، وتذاكروا أمراء المسلمين فعابوهم ثمّ تعاقدوا على الفتك بمعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وعلي بن أبي طالب في شهر رمضان سنة 40ه فاختار عبد الرّحمن بن ملجم عليّا واختار عمرو بن بكر التّميمي عمرا واختار البرى بن عبد الله معاوية فقتل الأوّل ونجا الثّاني وجرح الثّالث جرحا خفيفا"[2].

فأعجب الخوارج بعمل ابن ملجم ومدحه عمران بن حطّان* في قصيدة ** معتبرا قتله لعلي هو إرضاء لله.

[1] ديوان حسّان بن ثابت ص 9.

[2] الدّر الوقّاد ، ص 53.

* من شراة الخوارج، من أكابر خطبائهم و شعرائهم (89ه).

** تلك القصيدة الّتي يقول فيها:

لله در المرادي الّذي سفكت * كفاه مهجة شر الخلق إنسانا

أمسى عشية غشاه بضربته * مما جناه من الآثام عريانا

إنّي لأذكره حينا فأحسبُه * أوفى البريّة عِنْدَ اللهِ مِيزَانَا

وعلى الرّغم من مرور زمن على تلك القصيدة فإنّ ذلك حزّ في نفس بكر بن حماد الذي عارضها وهجا ابن ملجم قاتل الإمام علي فقال:

قُلْ لِابْنِ مُلْجِمٍ و الأَقْــدَار غَالِبَــة هَدَّمْتَ وَيْلَكَ لِلإِسْلاَمِ أَرْكَانَــــا
قَتَلْتَ أَفْضَلَ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَــدَمٍ أَوَّلَ النَّاسِ إِسْلاَمًا وَ إِيمَانَــــا
وَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ ثُــمَّ بِمَــا سَنَّ الرَّسُولُ لَنَا شَرْعًا وَ تِبْيَانَــــا
صِهْرُ النَّبِيِّ وَ مَــوْلاَهُ وَ نَاصِــرُهُ أَضْحَتْ مَنَاقِبُهُ نُورًا وَ بُرْهَانَــــا
وَ كَانَ مِنْهُ عَلَى رَغْمِ الحَسُودِ لَــهُ كَمَانَ هَارون مِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَا
وَ كَانَ فِي الحَرْبِ سَيْفًا صَارِمًا ذكرًا لَيْثًا إِذَا لَقِيَ الأَقْرَانَ أَقْرَانَــــا[1]

افتتح بكر قصيدته بذكر مناقب الإمام علي –كرّم الله وجهه و ما له من فضل على الإسلام ليبين الذّنب الشّنيع الّذي ارتكبه ابن ملجم والجريمة البشعة الّتي اقترفها، إذ قتل أعلم النّاس للقرآن والحديث النّبوي، صاحب النّسب الشريف، صهر النّبي –صلّى الله عليه وسلّم و سيفه المسلول على أعدائه وأعداء الدّين، بحيث كانت مكانة علي من محمّد –صلّى الله عليه وسلّم مثل مكانة هارون من موسى عليهما السّلام.

وفي الأبيات الّتي تلي تأثّر واضح بمقتل الإمام علي وتعجّب من الحادثة، فيذرف الشّاعر دموعه وكلّه حزن وأسى على ما أصاب الأمّة الإسلامية، ويهجو ابن ملجم هجاء مقذعا حيث يقول:

ذَكَرْتُ قَاتِلَهوَ الدَّمعُمُنْحَــــدِر فَقُلْتُ سُبْحَانَ رَبِّ النَّاسِ سُبْحَانَــا
إِنِّي لأَحْسِبُهُ مَاكَــانَ مِنْ بَشَــرٍ يَخْشَى المِعَادَ وَ لَكِنْ كَانَ شَيْطَانَــا
أَشْقَى مُرَادَ* إِذَا عُــدَّتْ قَبَائِلُهَــا وَ أَخْسَرُ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مِيزَانَــــا
كَعَاقِرِ النَّاقَةِ الأُولَى الَّتِي جَلَبَــتْ عَلَى ثَمُودَ بِأَرْضِ الحِجْرِ خُسْرَانَــا

[1] الدر الوقاد م س، ص 62 63.

* اسم القبيلة الّتي ينتمي إليها عبد الرّحمن بن ملجم.

قَدْ كَانَ يُخْبِرُهُمْ أَنْ سَوْفَ يَخْضِبُهَا قَبْلَ المَنِيَّةِ أَزْمَانا فَأَزْمَانَـــا[1]

إنّ بكر لا يعتقد بأن يكون ابن ملجم بشرا يملك الرّحمة والشّفقة في قلبه، بل يصفه بالشّيطان كونه تخلّى عن إنسانيته وارتكب إثما فظيعا، فنال الخسران عند الله وما مثله إلاّ كمثل عاقر النّاقة في ثمود.

ثمّ يواصل هجاء ابن ملجم وما ينتظره من عواقب وخيمة، داعيا الله بأن لا يسامحه ولا يرحمه و لا يسقي قبر عمران بن حطّان شريكه في الجريمة، الّذي اعتبر قتل الإمام علي بمثابة تقرّب من الله ومَدَحَ القاتل، فيعارضه بكر ويعتبر قتل علي ضربة من هالك مصيره جهنّم وبئس المصير، إذ يحترق بالنّـــار إلى الأبد جزاء على جرمه مع غضـــب الله عليه غضبا شديدا، فيقول:

فَلاعَفَا اللهُ عَنْهُ مَا تَحَمَّلَـــهُ وَ لا سَقَى قَبْرَ عِمْرَانْبنَ حِطَّانَا

لِقَوْلِهِ فِي شَقِيِّ ظَلَّ مُجْتَرِمـــا وَ نَالَ مَا نَالَهُ ظُلْمًا وَ عُدْوَانَـــا

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَـــا إِلاَّ لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي العَرْشِ رِضْوَانَا

بَلْ ضَرْبَةً مِنْ عَوِيٍّ أَوْرَثَتْهُ لَظَى* مُخَلَّدًا فَقَدْ أَتَى الرَّحْمَـنَ غَضْبَانَـا

كَأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ قَصْدًا بِضَرْبَـــةٍ إِلاَّ لِيَصْلَى عَذَابَ الخُلْدِ نِيرَانَـا[2]

فهذه القصيدة تدل على حس بكر بن حماد التّقافي وسموه الفكري وبعده عن العصبية المذهبية بالرّغم من أنّه نشأ في تيهرت الخارجية المذهب.

وهناك قصيدة أخرى يهجو فيها يحي بن معين** يستهلّها بالتّذكير بقضاء الله و قدره وما كتبه للإنسان، فلا مبدّل لأحكامه إذ هناك الشّقي وهناك السّعيد كما يعتبر بالزّمن الّذي

[1] الدر الوقاد م س، ص 64 و ما بعدها.

* لظى: اسم من أسماء جهنّم

[2] نفسه، ص 66.

** هو أحد الأعلام وحجّة الإسلام، محدّث (233هـ).

يمرّ بسرعة على النّفوس، فماذا قدّمت النّفوس لله الّذي أنشأها النّشأة الأولى ثمّ يميتها ثمّ يحييها مرة ثانيّة، فالخير قل والكلام كثر ولا خير في كثرة الكلام، إذ يقول:

لَقَدْ جَفَتِ الأَقْلاَمُ بِالخَلْقِ كُلِّهِمُ ... فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ خَائِبٌ وَ سَعِيدُ
تَمُرُّ اللَّيَالِي بِالنُّفُوسِ سَرِيعَةٌ ... وَ يَبْدِي رَبِّي خَلْقَهُ وَ يُعِيدُ
أَرَى الخَيْرَ فِي الدُّنْيَا يَقِلُّ بِكَثْرَةٍ ... وَ يَنْقُصُ نَقْصًا وَ الحَدِيثُ يَزِيدُ
فَلَوْ كَانَ خَيْرًا قَلَّ كَالخَيْرِ كُلِّهِ ... وَ أَحْسَبُ أَنَّ الخَيْرَ مِنْهُ بَعِيدُ[1]

ليهجو يحي بن معين وينعته بأقبح النّعوت كونه يزوّر الحديث ويزيد فيه، بل يلقّبه بالشيطان المريد فيقول:

وَ لِابْنِ مُعِينٍ الرِّجَالِ مَقَالَةٌ ... سَيَسْأَلُ عَنْهَا وَ المَلِيكُ شَهِيدُ
فَإِنْ يَكُ حَقًّا قَوْلُهُ فَهُوَ غِيبَةٌ ... وَ إِنْ يَكُ زُورًا فَالقِصَاصُ شَدِيدُ
وَ كُلُّ شَيَاطِينِ العِبَادِ ضَعِيفَةٌ ... وَ شَيْطَانُ أَصْحَابِ الحَدِيثِ مَرِيدُ[2]

إلاّ أنّه من المجحف في حقّ هذا المحدّث أن يصفه بكر بتلك الصّفات الدّنيئة ويتّهمه بالتّزوير والزّيادة في الحديث.

وفي مقطوعة شعرية أخرى، يحرّض الخليفة المعتصم العبّاسي* على الشّاعر دعبل الخزاعي** قائلا:

أَيَهْجُو أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَ رَهْطَهُ ... وَ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ العَرِيضَةِ دُعْبُلُ
أَمَا وَ الَّذِي أَرْسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ ... لَقَدْ كَانَتِ الدُّنْيَا لِذَاكَ تُزَلْزَلُ
لَكِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِفَضْلِهِ ... يُهَيْعِفُو أَوْ يَقُولُ فَيَفْعَلُ

---

[1] بكر بن حمّاد، محمّد الأخضر السّائحي ص 153 154

[2] نفسه، ص 154.

* هو ثامن الخلفاء العبّاسيين

** من شعراء بني العبّاس (220هـ).

وَعَاتَبَنِي فِيهِ حَبِيبٌ* قَالَ لِي: لِسَانكَ مَحْذُورٌ وَ سُمّكَ يَقْتُلُ
وَ إِنِّي وَ إِنْ صَرَّفْتُ فِي الشِّعْرِ مَنْطِقِي لأَنْصفُ مِمّا قُلْتُ وَ أَعْدِلُ[1]

فالشّاعر يتعجب من تصرّف دعبل كيفما يشاء في بلاط الخليفة العباسي بالرّغم من أنّ دعبل اشتهر بهجائه اللاّذع للخليفة، لكن ذلك راجع لروح التّسامح والصّفح الّتي طبعت صفات المعتصم، فبكر يريد من الخليفة عقاب دعبل والفتك به، كما يشير في آخر المقطوعة إلى معاتبة أبي تمّام له ووصفه بقتل دعبل كلاميّا.

والملاحظ أنّ بكر بن حماد لم يكتف بالهجاء بل كان يلجأ إلى التّحريض أحيانا، إلاّ أنّ الهجاء عند سعيد بن واشكل التّاهرتي** يختلف، فهو لم يهج شاعرا ولا محدثا، بل هجا مدينة تنس شاكيا حالته وهو بعيد عن تيهرت قائلا:

تَأَوّهْ عَلَيّ وَاضْمَحَلّتْ قُوَى الصّبْرِ وَ أَصْبَحْتُ عَنْ دَارِ الأَحِبّةِ فِي أَسْرِ
وَ أَصْبَحْتُ عَنْ تِيهَرْتَ فِي دَارِ غُرْبَةٍ تُؤَلّمُنِي مَرّ القَضَاءِ مِنَ القَدَرِ
إِلَى تِنْسَ ذَاتِ النّحُوسِ فَإِنّهَا يُسَاقُ إِلَيْهَا كُلُّ مُنْتَقِصِ العُمْرِ
هُوَ الدّهْرُ وَالسّيافُ وَ المَاءُ حَاكِمٌ وَ طَالِعُهَا المَنْحُوسُ صَمْصَامَةُ الدّهْرِ
بِلادِيهَا البَرْغُوثُ يُحْمَلُ رَاحِلا وَ يَأْوِي إِلَيْهَا الذّئْبُ فِي زُمَرِ الحَشْرِ
يَزْحَفُ مِنْهَا القَمْلُ فِي كُلّ سَاعَةٍ بِجَيْشٍ مِنَ السّودَانِ يَغْلِبُ بِالوَتَرِ
تَرَى أَهْلَهَا صَرْعَى دوى أُمّ مُلْدِمٍ*** يَرُوحُونَ فِي سُكْرٍ وَيَغْدُونَ فِي سُكْرِ[2]

* هو حبيب بن أوس الطّائي المعروف بأبي تمّام (231هـ)

[1] الدّر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش، ص 70.

** سعيد بن واشكل التّاهرتي من شعراء القرن الثّالث الهجري، نشأ بتيهرت و انتقل في آخر أيّامه إلى تنس إلى أن توفي ا.

*** أم ملدم: الحمّى

[2] المسالك و الممالك، البكري، ص 62.

إنّ الشّاعر يصف حنينه إلى مسقط رأسه تيهرت وما آلت إليه حالته ، **لائما الدّهر الّذي غرّبه عن وطنه، إذ أسلمه مرّ** القضاء إلى تنس الّتي يذهب إليها إلاّ منتقص العمر، لامتيازها بكثرة البراغيث، والذّئاب الجائعة، أمّا أهلها فكلّهم صرعى من الحمّى بحيث تخدر عقولهم وكأنهم في سكر دائم.

وفي مقطوعة أخرى، يهجو نفس **البلدة وأهلها فهي ملوثة الجو**، أهلها بخلاء جاهلون **لا يتقنون فنون الكلام، كما أنّ ماءها كدر** ممزوج بتربة ملطخة إذ يقول:

أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ أَرْضِ تنس ... مقعد اللّوم المُصَفّى و الدّنس
بَلْدَة لا يُنْزِل القطرُ بِهَا ... لِلنّدَى في أَهْلِهَا عرق درس
قُصحَاءُ النّطقِ في لا أبَدَا ... وَ صُمّ في: نَعْمَ بُكْم خُرس
فَمَتَى يُلْمِمُ بِهَا جَاهلهَا ... يَرْتَحِلُ مِنْ أَرْضِهَا قَبْلَ الغَلَس
مَاؤُهَا مِنْ قُبْح مَا خُصّتْ بِهِ ... نجس يجْرِي عَلى ترب نجس[1]

ولكثرة مثالبها لعنها لعنة دائمة المدى، فقال:

فَمَتَى تَلْعَنِ بِلادًا مرّة ... فَاجْعَل اللّعْنَةَ دأبا لتنس [2]

أمّا ابن هاني الأندلسي فقد هجا أبا جعفر الوهراني* في قصيدة طويلة استهلّها بالحديث عن المجد الّذي يناله الشّريف في الحروب إذ هو أفضل بكثير من ذلّ الإنسان الّذي يعيش في العزّ:

[1] المسالك و الممالك م س، ص 62 63.
[2] نفسه، ص 63.
* هوكاتب جعفر بن علي.

طَلَبُ المَجْدِ عَنْ طَرِيقِ السُّيُوفِ شَرَفُ مُؤْنِسٍ لِنَفْسِ الشَّرِيفِ
إِنَّ ذُلَّ العَزِيزِ أَفْظَعُ مَرْأَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ مِنْ لِقَاءِ الحُتُوفِ
لَيْسَ غَيْرُ الهَيْجَاءِ وَ الطَّعْنَةِ الإِخْ طِيفِ دُودِ فِيهَا وَ الضَّرَبَةِ الأَخْ. [1]

ويواصل حديثه عن المجد مفتخرا بنفسه وعروبته كونه ابن الحروب لا ابن القصور والأموال، وبالرّغم من أنّ الأيّام لم تمنحه شيئا إلاّ الوعود الكاذبة، فإنّ الصّحاري علّمته الصّبر على المكاره والشّدائد، إذ يقول:

أَنَا مِنْ صَارِمٍ وَرُمْحٍ جَوَادٍ لَسْتُ مِنْ قُبَّةٍ وَقَصْرٍ مُنِيفِ
لَيْسَ لِلْمَجْدِ مَنْ يَبِيتُ عَلَى المَجْ دِ بِسَعْيٍ وَانٍ وَنَفْسٍ عَزُوفِ
وَعَدَتْنِي الدُّنْيَا كَثِيرًا فَلَمْ أَظْ فَرْ بِغَيْرِ المِطَالِ وَ التَّسْوِيفِ
كُلَّمَا قَلَّبَ المُحَدِّثُ فِيهَا اللَّحْ ظَ وَلَّى بِنَاظِرٍ مَطْرُوفِ
عَلَّمَتْنِي البَيْدَاءُ كَيْفَ رُكُوبُ الـ لَّيْلِ وَ اللَّيْلُ كَيْفَ قَطْعُ التَّنُوفِ [2]

كما يذم الأيّام الّتي تساعد النّاس الأرذال مثل أبي جعفر الوهراني، فيخاطبه بكثير من التّهكّم كون سموّه كان نتيجة لحيله الماكرة، فيقول:

إِنَّ أَيَّامَ دَهْرِنَا سَخَفَاتٌ فِيهِ أَعْوَانُ كُلِّ وَغْدٍ سَخِيفِ
زَمَنٌ أَنْتَ يَا أَبَا الجَعْرِ* فِيهِ لَيْسَ مِنْ تَالِدٍ وَلا مِنْ طَرِيفِ
إِنَّ دَهْرًا سَمَوْتَ فِيهِ عُلُوًّا لَوَضِيعُ الخُطُوبِ وَعْدُ الصُّرُوفِ [3]

[1] ديوان ابن هاني، ص 214.
[2] نفسه، ص نفسها.
* المقصود أبو جعفر الوهراني و الجعر: هو ما يخرج من البطن من ريح و غائط.
[3] نفسه.ص نفسها.

ويستمر في هجائه فيخاطبه ليحط من قيمته، معددا مثالبه لسوء تدبيره الأمور ونقصان عقله، وعدم فصاحته في الكلام كما يصف أدبه بركاكة الألفاظ وغرابة المعاني، لذا يشوبه كثير من الشّك، فيقول:

إنْ شَأوًا طَلْبَةُ في زَمَـــان الـ ... ـمَلِكِ عِنْـدِي لَشَـأْوِ قَذُوفِ
إنَّ رَأيًا تُدَبِـــرُّهُ لَمُعَنّـــــى ... بِضَلالِ الإمْضَـاءِ التَّوْقِيـــفِ
إنْ لَفْظًا تَلُوكُـــهُ لشبيـــــه ... بِكَ في مَنْظَـرِ الجَفَـاءِ الجَلِيفِ
كاذِبُ الزَّعْمِ مُسْتَحِيلُ المَعَانِي ... فَاسِدُ النَّظْـمِ قَاسِـدُ التَّأْلِيـفِ
أنتَ لا تَعْتَدِي لِتَدْبِيرِ مُلْـــكٍ ... إنَّمَا تَعْتَدِي لِرَعْـــمِ الأنـــوفِ
نِلْتَ مَا نِلْتَ لا بِعَقْلٍ رَصِيـــنٍ ... فِيمَا سَاءَ وَ لا بِرَأيٍ حَصِيفٍ[1]

ثمّ يطلب منه أن يترك جعفر بن علي **ويكف** التّمثيل بأنّه الدّاهية المظلوم، بل يجب عليه أن **يلطف** بجعفر هذا الرّجل الشّريف الّذي بنعمه أصبحت الزّاب جنّة الخلد، وهنا **نجد** ابن هاني يمزج بين مدح الأمير وفي الوقت نفسه يهجو الوهراني قائلا:

أبْقِ لِي جَعْفَرا أَبَـا جَعْفَـر لا ... تَرْمِ يَوْمَيْهِ بالنَّـــآدِ* العَسُوفِ
أنتَ في دَوْلَةِ الحَبِيبِ إلَيْنَـــا ... فَتَرَفَّـــقْ بِالمَاجِدِ الغِطْرِيـفِ **
فَإذَا مَا نَعَبْتَ شَـــرَّ نَعِيـــبٍ ... فَعَلَى غَيْرِ رِيعِهِ المَأْلُـــوفِ
لَسْتُ أَخْشَى إلا عَلَيْهِ فَكُنْ بالـ ... ـأَرِيحِـيِّ الوَفِـــيِّ حَـدَّ رَؤُوفِ
إنَّمَا الزَّلْبُ جَنَّةُ الخُلْـــدِ فِيهَا ... مِنْ نَدَاهُ غُضَارَةُ*** التَّفْوِيـــفِ[2]

---

[1] دوانه م س، ص 215.

* النّآد: الدّاهية.

** الغطريف: السّيّد الشريف.

*** غضارة: نعمة

[2] نفسه، ص 215.

ويواصل هجاء الوهراني واصفه بأقبح الصّفات كوصفه بالدّاء الّذي تشفيه الموت، أمره مخيف، وفي قلبه سم ناقع، تخلّى عن مبادئ الإسلام وبذلك خرج عن طاعة الإمام و تمرد على الدّين، ويتّضح ذلك في قوله:

إنّ في مَغْرِبِ الخِـلافَـةِ دَاء ... لَيسَ يُبْرِيه غَيْرُ أمّ الخوفِ
إنّ فِيهِ لَشُعْبَـةً مِنْ بَنِي مَـرْ ... وَانَ تُنْسِي عَنْ كُلّ أمْرٍ مَخوف
إنّ في صَدْرِ أحْمَـدٍ لَبَنِـي أحْـ ... مَدَ قَلْبًا يَهْوِي بِسُـمّ مَـدوف
مُتَخَلٍّ مِنْ اثْنَيْـن بَرِيء ... مِنْ إمَامٍ عَدْلٍ وَ دِينٍ حَنِيف[1]

ويعود ابن هاني ليتحدث عن نفسه مفتخرا بها، مخاطبا المعز انه في خدمته و جاهز للحروب لما يكنّه للدّولة الفاطميّة من حب وتقدير، معترفا بالجميل غير ناكر للمعروف لا يحرّف كلام الله خلاف الوهراني الّذي هو بمثابة الصّنم والشّيطان، ويظهر ذلك حين يقول:

يَا مُعِزّ الهُـدَى!كَفَانِي أنّـي ... لَكَ طَود عَلَى أعَادِيـكَ مُـوف
وَ إذا مَا كَبَوْا الحَرْبِ شُبّـتْ ... لَمْ أكُنْ للرّمَاحِ غيرَ رَدِيـف
أنطَوِي دائمًا عَلَى كَيدٍ حَـرّى ... عَلى حُبّكُمْ وَقَلْـبٍ رَجُـوف
أنا عَيْنُ المُقِرّ بِالفَضْلِ إنْ أنْـ ... ـكَرَ قَـوْمٌ صَنَائِـعَ مَعْـرُوفِ
لَمْ أُحَارِبْ نُورَ الهُدَى بِالدّيَاجِي ... وَ حُروفَ القُـرْآنِ بِالتّحْرِيـفِ
مِثْلَ هَذَا العَمِيدِ بالجُبْتِ* وَ الطا ... غُوتِ** هُمْ وَ الهَائِمِ المَشْغُوفِ[2]

[1] ديوانه م س، ص 216.
* الجبت: الصنم.
** الطّاغوت: الشيطان
[2] نفسه، ص 217.

ويختم قصيدته بنوع من التّهكم والتحدّي طالبا من الوهراني أن ينظم قصيدة مثلها قائلا:

مَا اِسْتَضَافَ الهِجَاءُ حَتَى تَأَنَا كَ أَبَا جَعْفَرًا بغَيرِ مُضِيفِ
إِنْ تَسَتَرْتَ عَنْ عِيَانِي فَمَا حِيـ ـلَةُ عَيْنَيْكَ فِي الخَيَالِ المُطِيفِ ؟[1]

فهذه القصيدة الرّائعة، جمع فيها ابن هاني بين مدح الأمير وهجو الوهراني والافتخار بنفسه ومدحها.

كما هجا محمد بن المنيب* أبا يزيد بن مخلد الخارجي مستهلاّ قصيدته بذكر الهزيمة الّتي حلّت بمخلد و أتباعه قائلا:

حَلَ البَلاَءُ بِمُخْلِدٍ وَ جَمِيعِ شِيعَتِهِ النَوَاكِرِ
أَمْسَى بِأَرْضٍ كَيّانَةٍ قَدْ بَانَ مِنْهُ كُلّ نَاظِرِ
يَرْنُو بِطَرْفٍ خَاشِعٍ نَظَرَ المُحَاصِرِ لِلْمُحَاصِرِ
يَرْنُو إِلَى عَدَدِ الحَصَى وَ الرَمْلِ مِنْ تِلْكَ العَسَاكِرِ[2]

ثمّ يخاطبه هاجيا إيّاه بأنّه شر بيت في القبائل كلّها، مذكره بمثالبه آمره بأن يذوق مرارة الجرائم الّتي ارتكبها فيقول:

مُخْلِدَ بْنَ سَبِيكَةَ** يَا شَرَ بَيْتٍ فِي العَشَائِرِ
ذُقْ مَا جَنَتْهُ يَدَاكَ قَبلَ مِنَ الكَبَائِرِ وَ الصَغَائِرِ
ذُقْ هَوْلَ سَلَفِكَ لِلْبُطُونِ وَ مَا ارْتَكَبْتَ مِنَ الجَرَائِرِ

---

[1] دوانه م س، ص 217.

* كان من حملة الشّعراء الذين كانوا في ركاب الخليفة إسماعيل المنصور العبيدي حين حصاره لابي يزيد بن مخلد الخارجي الذي اعتصم عند انهزامه بجبل كيّانه من بلاد كتّامة سنة 335هـ.

[2] أخبار ملوك بني عبيد و سيرهم: لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد، تحقيق: امي نقزة، عبد الحليم عويس، دار الصّحوة، القاهرة، ص 74.

** اسم أمّه و هي أمة اشتراها أبوه من السّودان.

بَاشِرْ مـن بكّيانـــــه وكّيانة شَـرّ البَرَايـــر[1]

وبكثير من التّهكم والسّخرية يدعوه للتّأمّل إلى ما آلت إليه نفسه وحالته بل يخبره بأنّ القردين اشتاقا إليه رغم أنّه شر زائر، إذ يقول:

انْظُرْ إِلَى القَفَصِ * الذي لأبُـدّ أنتَ فِيهِ صَائِـر
و انْظُر إلى أيدِيكَ فِيـهِ وَ مُؤنِسِيكَ وَ مَنْ تُجاوِر
قَدْ طَالَ شَوْقُهُمَا إِلَيْـكَ فَزُرْهُمَا يَا شَرّ زَائِـــر[2]

أمّا محمد بن الحسين التّميمي الطّبني فيهجو الإنسان الدّنيء النّمام، الّذي يبتسم في وجهه ويلقاه خاضعا ذليلا ويطعنه في الظّهر، لكن دين الطّبني وتسامحه يجعلانه حليما عند المقدرة ولا يفكر في عقابه بل يشبهه بكلب يعوي إلى أسد في مأواه، حيث يقول:

وَ وَعْدٍ إِنْ أَرَدْتَ لَهُ عِقَابـــا عَفَا عن ذَنْبِهِ حَسَبِي وَ دِينـــي
يُؤَانِينِي بِغَيْبَةِ مُسْتطيـــــل وَ يَلْقَانِي بصفحةِ مستكيـــن
وَ لولا الحلم إنّ له لجَامَـــا لَدَاسَ القَحْلُ بَطْنَ ابن اللّبُون
وَ قَالُوا جَاكَ فَقُلْتُ كَلْـب عَوَى إِلى لَيْـثِ العَـرِيـــن[3]

غير أنّ ابن رشيق يهجو من شتموه بطريقة سطحية ولا يستعمل ذلك الهجاء المقذع فيقول:

يَا مُوجِعِي شَتَمًـا على أنّـهُ لَوْ تُرِك البُرغوثُ مَا أوجَعَا
كُلّ لَهُ مِنْ نَفْسِـهِ آفَـــة وَ آفَةُ النّمْلَةِ أن تَلْسَعَـا[4]

---

[1] أخبار ملوك بني عبيد و سيرهم م س، ص 74.

[*] لمّا لزم وضع في القفص مع قردين.

[2] نفسه، ص 75.

[3] جدوة المقتبس في ذكر ولاّه الأندلس: الحميدي ،الدار المصرية، 1966 م ،ص 50 51.

[4] ديوان ابن رشيق، ص 91.

وما يمكن قوله، إنّ الشعراء الجزائريين في تلك **الحقبة الزمنية سلّطوا ألسنتهم على الأعداء والأدباء والمدن،** فالحقوا بهم مثالب شتّى، وبيّنوا المساوئ الفردية بل تعدّى الهجاء عند البعض إلى اللّوم والتّحريض والسّخرية.

الفصـــل الخامــس

الزّهد

ظهر الزّهد بُداءةَ بَدِئٍ في تضاعيف القصائد الحكمية وبعدها أصبح غرضا مستقلاّ بذاته[1].

وقد عرّف الغزالي الزّهد قائلا: "هو أن تأتي الدّنيا الإنسان راغبة صفوا عفوا وقادر التّنعّم بها من غير نقصان جاه و قبح اسم فيتركها خوفا من أن يأنس بها، فيكون انسا بغير الله، محبا لما سوى الله، ويكون مشركا لما حبّ الله غيره"[2].

كما عرّفه يحي الشّامي بقوله: "الزّهد هو الكف عن المحارم والتّوبة إلى الله وهو القناعة والاكتفاء بالحاجة، والرّضى بالقليل، وصرف النّظر عن هرج الحياة وزينتها، وهو ي النّفس عن الهوى، وتخلية القلب وصفاؤه ورقّته وشفافيته"[3].

فمن هنا يتّضح بان الزّهد هو ليس الانقطاع التّام عن الدّنيا، بل ترك ملذاتها وشهواتها مع التّفرّغ إلى عبادة الله والقناعة بما قسمه الله من أرزاق.

ولقد عرف الإنسان الزّهد منذ القديم، وإن تبلورت فكرته في العهد الإسلامي، إذ بمجيء الإسلام الّذي هو دين مساواة، دعا أهله أن يوازنوا بين الحياة والآخرة مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَ ابْتَغِ فِيمَا أَتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ﴾[4].

---

[1] ينظر أروع ما قيل في الزّهد، د يحي الشّامي، دار الفكر العربي بيروت، ط1، 1992م، ص 5.

[2] إحياء علوم الدّين، ج3، دار الفكر، طبعة مصوّرة عن طبقة لجنة نشر الثّقافة 1975م، ص 137.

[3] أروع ماقيل في الزهد، ص 5.

[4] سورة القصص: الآيه (77).

كما رغّب الرّسول صلّى الله عليه و سلم في الدّنيا بالابتعاد عن شهواتها ورهّب من الانغماس في لذاتها، و ذلك بالتّقرّب من الله، فعن ابي عبّاس سهل بن السّاعدي رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى النّبي صلّى الله عليه و سلّم فقال يا رسول الله دلّني على عمل إذا عملته أحبّني الله وأحبّني النّاس، فقال: ازهد في الدّنيا يحبّك الله، وازهد فيما عند النّاس يحبّك النّاس)[1].

فترسّخت فكرة الزّهد، وكان الشّعراء يدعون إلى التّقليل من شأن الدّنيا وعدم إغفال الآخرة لأنّ الدّنيا عبارة عن سفر لابدّ من الرّحيل ذات يوم، فكانت الموعظة وتوجيه العباد والتّذكير بالموت غالبة على شعر الزّهد.

وقد تطوّر غرض الزّهد وازدهر في القرنين الثّاني والثّالث الهجريين، وعرف الشّافعي* بزهدياته وكثرة مواضيعه عن القناعة كقوله:

قَنَعْتُ بِالقُوتِ مِنْ زَمَانِي وَ صُنْتُ نَفْسِي عَنِ الهَوَانِ
خَوْفًا مِنَ النّاسِ أَنْ يَقُولُوا فَضْلُ فلانٍ عَلى فُلانِ
مَنْ كُنْتُ عَنْ مَالِهِ غَنِيًا فَلا أُبَالِي إذا جَفَانِي[2]

فالشّافعي قنوع بما قسمه الله من أرزاق ولا يحتاج لأحد.

وإذا كان المشارقة نبغوا في هذا الغرض، فإنّ شعراء المغرب العربي لم يقصّروا هم أيضا، فهذا سابق البربري يتحدث عن النّفس الطّماعة الّتي تسعى إلى جمع الأموال الكثيرة وفي الأخير تتعب صاحبها، كون تلك الأموال تنفق على عدم لأنّ كل شيء آيل للزّوال، إذ يقول:

---

[1] شرح متن الأربعين النّووية في الأحاديث الصّحيحة النّبوية –يحي بن شرف الدّين النّووي منشورات المكتبة العصرية بيروت،ط2 ،1982م ،ص 106 107.

* هو إمام الشريعة و عالم كبير (150ه 204ه).

[2] ديوان الشّافعي، تحقيق: زهدي يكن، دار الثقافة بيروت 1961م، ص 162.

النّفسُ تُكلفُ بِالدّنيا وَ قَدْ عَلِمَتْ أنّ السلامَةَ مِنْهَا تَرْكَ مَا فِيهَـــا
وَاللهِ مَا قَنَعَتْ نَفْس بِمَا رُزِقَتْ مِنَ المَعِيشَةِ إلا سَوْفَ تَكْفِيهَـــا
أَمْوَالُنَا لِذَوِي المِيرَاثِ نَجْمَعُهَـــا وَ دُورُنَا لِخَرَابِ الدّهْرِ نَبْنِيهَـــا
قِسْ بالتّجَارِبِ أَحْدَاثَ الزّمَنِ كَمَا تَقِيسُ نَعْلاً بِنَعْلٍ حِينَ تَحْذُوهَـــا
وَاللهِ مَا عَبَرَتْ في الأَرْضِ قَاطِرَة إلا وَ صَرْفُ اللّيَالي سَوْفَ يَفْنِيهَا[1]

كما يتحدث عن اندثار الأمم السّابقة قائلا:

أَيْنَ المُلُوكُ الّتِي عَنْ خَطْبِهَا غَفِلَتْ حَتّى سَقَاهَا بِكَأْسِ المَوْتِ سَاقِيهَا
عَرَتْ زَمَن بِمُلْكٍ لا دَوَامَ لَـــهُ جَهلاً كَمَا عَرَا نَفْسًا مَنْ يُعْنِيهَـــا[2]

أمّا الحديث عن شعر الزّهد في الجزائر، فإنّنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ بكر بن حمّاد هو أبو الزّهد في العهد الرّستمي «فهو يتزعم الحركة الزّهدية في المغرب العربي كما كان يتزعمها أبو العتاهية في المشرق»[3] وبذلك تنوعت موضوعات بكر الزّهدية، فقال عن اندثار الأمم السّابقة، تلك الأقوام العالية المجد الّتي أبادها الدّهر وغدرها الزّمن فلم تخلد:

نَـهَـار مُشْـرِقوَ ظَلامُ لَيْـلٍ أَلحَـا بِالبَيَاضِ و السَـــوَادِ
هُمَـا هَـدّمَا دَعَائِم عمر نُوحٍ * وَ لُقْمَـانَ وَ شَـدّادَ** بنَ عَادِ[4]

---

[1] سابق البربري، شاعر من المغرب عبد الله كنون مطبوعات مجمع اللّغة العربية دمشق، سوريا، 1969م، ص1.
[2] نفسه، ص 5.
[3] تاريخ الأدب الجزائري، محمّد الطّمّار، ص 81.
[*] قوم نوح عليه السّلام.
[**] قوم لقمان الحكيم.
[***] هما من قوم هود عليه السّلام.
[4] كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية،المالكي،حققه:بشيربكوش،راجعه:محمد العروسي مطوي،ج1،ط2،1994م 1414ه ص 507.

يريد أن يقول أين قوم نوح عليه السّلام ولقمان وشدّاد وعاد الّذ بن فعل م الزّمن ما فعل ثمّ يخاطب نفسه متعجّبا من حال تلك الأمم الّتي سافرت دون أن تحمل معها أعمال البر والتّقوى، فيقف واعظا نفسه بأنّ الموت الّذي قهر أولئك الأقوياء سيطرق بابه فجأة، فما عليه إلاّ التّزود من أجل الاستعداد للحياة الأبدية، حيث يقول:

فَيَا بَكْرَ بنَ حَمَّادَتَعَجَّبْ لِقَوْمٍ سَاقُوا مِنْ غَيْرِ زَادِ
تَبيتُ عَلى فِرَاشِكَ مُطْمَئِنًا كَأَنَّكَ قَدْ أَمِنْتَ مِنَ المَعَادِ
فَيَا سُبْحَانَ مَنْ أَرْسَى الرَّوَاسِيَ وَ أَوْتَدَهَا مَعَ السَّبْعِ الشِّدَادِ[1]

وقد روى المالكي ما حدث بين بكر وبين الصّواف* حول عجز البيت الأخير: «قال أحمد: دخل عليّ بكر بن حماد فتحدّث عندي ساعة؛ فقلت له: إيش، فقال: قلت هذه الأبيات و أنشد القصيدة الّتي ذكرناها إلى أن وصل إلى قوله:

فَيَا سُبْحَانَ مَنْ أَرْسَى الرَّوَاسِيَ وَ أَوْتَدَهَا عَلى السَّبْعِ الشِّدَادِ

قلت له: "أمسك رفعت الجبال فوق السّموات و أنزلت السّموات تحت الجبال": فقال لي: "وكيف ذلك" فقلت له: "اقرأ سورة عمّ يتساءلون"فقرأها حتىّ انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾[2] فقال لي: والله لقد أنشدته بالعراق ومصر وتيهرت والقيروان فما فهمه أحد، فقال كسرته أنت فأصلحه، فقلت له أفلا قلت: "فأوتدها مع السّبع الشّداد ؟ "قال: فقال لي: "قد أصلحت ما أفسدت"»[3].

فهذه القصّة إن دلّت على شيء، فهي تدل على اتّصال بكر بالفقهاء ومناقشتهم ومناظرهم، كما تدل على رحلاته العلمية الّتي استفاد منها كثيرا.

[1] رياض النفوس م س ، ص 508.
* هو أحمد بن أبي سليمان داوود الصّواف فقيه القيروان (290ھ).
[2] سورة سبأ: الآية (12).
[3] رياض النفوس ، ص 508.

ومن بين المواضيع الزّهدية الأخرى الّتي طرقها بكر، تذكيره بالموت إذ يقول:

لَقَدْ جَمَحَتْ نَفْسِي فَصَدَّتْ وَ أَعْرَضَتْ وَ قَدْ مَرَقَتْ نَفْسِي فَطَال مُرُوقُهَا
فَيَا أَسَفِي مِنْ جُنْحِ لَيْلٍ يَقُودُهَا وَ ضَوْءِ نَهَارٍ لا يَزَالُ يُسوقُهَا
إِلَى مَشْهَدٍ لابُدَّ لِي مِنْ شُهُودِهِ وَ مِنْ جُرْعٍ لِلْمَوْتِ سَوْفَ أَذُوقُهَا
سَتَأْكُلُهَا الدّيدَانُ في بَاطِنِ الثَّرَى وَ يَذْهَبُ عنها طِيبُهُ خُلُوقُهَا[1]

فالشّاعر يعترف بالذّنب ويقر بعصيان نفسه عصيانا شديدا ولم تسمع لنصحه إذ انغمست في الشهوات وسايرت الأهواء فطال مروقها، لذلك يتحسّر ويتأسّف على الزّمن الّذي سيقودها إلى حتفها الحقيقي، فتجترع مرارة فعلها وتكون غذاء للدّيدان في القبر.

ويستمر في ذكر الموت قائلا:

مَوَاطِنُ لِلْقِصَاصِ فِيهَا مَظَالِمُ تُؤَدِّي إِلَى أَهْلِ الحُقُوقِ حُقُوقَهَا
سَحَابُ المَنَايَا كُلَّ يَوْمٍ مُظِلَّةٌ قَقْدَ هَطَلَتْ حَالِي وَ لاحَ بُرُوقُهَا
وَ لِلنَّفْسِ حَاجَاتٌ تَرُوحُ وَ تَغْتَدِي لَكِنَّ أَحَادِيثَ الزَّمَانِ يَعُوقُهَا
تَجَهَّمْتُ خَمْسًا بَعْدَ سَبْعِينَ حِجَّةً وَ دَامَ غُرُوبُ الشَّمْسِ لي وَ طُلُوعُهَا
وَ أَيْدِي المَنَايَا في كُلِّ يَوْمٍ وَ لَيْلَةٍ إِذَا فُتِقَتْ لا يُسْتَطَاعُ رُتُوقُهَا
يُصْبِحُ أَقْوَامًا عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ وَ يَأْتِيكَ في حِينِ البَيَاتِ طُرُوقُهَا[2]

فكل إنسان يعاقب على جزائه ويأخذ كلّ ذي حقّ حقّه، والموت بالنسبة للشّاعر عبارة عن سحاب مظلّة بدأت بالهطول من حوله ولمع بروقها لتقترب منه شيئا فشيئا، فيذكّر نفسه علها تعتبر وتتدارك ما فاتها بعدما بلغ خمسة وسبعين سنة، إذ ينتظرها كلّ يوم و ليلة لتاخذ روحه، سيما أنّ الموت يأتي غفلة، وفي أي وقت من الصّباح أو المساء.

[1] الدرّ الوقّاد ، ص 78.
[2] نفسه، ص 78 و ما بعدها.

وفي قصيدة أخرى، يقف بكر وقفة تأملية مخاطبا نفسه بمناداة الموتى لكن لا يعقل فلا سميع ولا مجيب، لأنّ أولئك الموتى انتهى أجلهم وحوم القبور فتقطعت أسباب الوصال بينهم، ورجوعهم ميؤوس منه لذا ينذر الغافلين ويحذّرهم من الانسياق وراء ملذّات الدّنيا وشهواتها، كون أولئك الموتى لو عادوا لأجابوا أنّ التّقوى هو زاد الإنسان في دار البقاء، غير أنّ الموت طلبهم ولا يمكن النّجاة، إذ يقول:

قِفْ بِالقُبُورِ فَنَادِ الهَامِدِينَ بِهَا ... مِنْ أَعْظُمٍ بَلِيَتْ فيها وَ أَجْسَادِ
قوم تَقَطَّعَتْ الأَسْبَابُ بَيْنَهُمْ ... مِنَ الوِصَالِ وَ صَارُوا تَحْتَ أَطْوَادِ
رَاحُوا جَمِيعًا عَلَى الأَعْوَادِ وَ ابْتَكَرُوا ... فَلَيْسَ رُوحُوا وَ لَنْ يَغْدُوا لَهُمْ عَادِ
لَوْ رُدُّوا لَوْ نَطَقُوا ... إِذَا لَقَالُوا التُّقَى مِنْ أَفْضَلِ الزّادِ
قَدْ بَرَزَ القَوْمُ وَ امْتَدَّتْ عَسَاكِرُهُمْ ... مَلَّكُيُوَاقُوا لِمِيقَاتٍ وَ مِيعَادِ
مَا بِالقُلُوبِ حَيَاةٌ بَعْدَ غَفْلَتِهَا ... وَ اللهُ سُبْحَانَهُ مِنْهَا بِمِرْصَادِ[1]

وكيف لا يذكّر نفسه وبعظها مادام هناك موت ينتظر الجميع بما فيهم هو، فالكلّ واقف من أجل السّفر والرّحيل إلى مكان لا رجعة منه، ومن أتى دوره، يحمل على نعش يغطّيه التّراب و يفارق الأحباب والأصدقاء منتقلا إلى مثواه الأخير، لأنّ الموت يهدّم كلّ شيء، وهيهات من الخلود ومن يوم المعاد والبعث، وهو ما يبيّنه عنه في قوله:

أَيْنَ البَقَاءُ وَ هَذَا المَوْتُ يَطْلُبُنَا ... هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ يَا بَكْرُ بْنُ حَمَّادِ
لا تَرْبَحِ المَرْءَ في لَهْوٍ وَ في لَعِبٍ ... حَتَّى تَرَاهُ عَلَى نَعْشٍ وَ أَعْوَادِ
هَذَا يَا بَكْرُ دُنْيَاهُ مُنْغَصَّةٌ ... فيها حَزَازَاتُ أَحْشَاءٍ وَ أَكْبَادِ
وَ كُلُّنَا وَاقِفٌ مِنْهَا عَلَى سَفَرٍ ... وَ كُلُّنَا ظَاعِنٌ يَحْدُوبه الحَادِي
في كُلِّ يَوْمٍ نَرَى نَعْشًا نُشَيِّعُهُ ... قَرَائِحَ قَارَقَ الأَحْبَابَ أَوْعَادِ
المَوْتُ يُهَدِّمُ مَا نَبْنِيهِ مِنْ بَدَخٍ ... فَمَا انْتِظَارُكَ يَا بَكْرُ بْنُ حَمَّادِ[2]

[1] الدر الوقاد،م س، ص 80 .81.
[2] نفسه،ص 81.

كما يبجّل عظمة الخالق الّذي قسّـم الأرزاق بين الخلق لما فضّل بعضهم على بعض، فيظهر إيمانه واضحا بقضاء الله وقدره في تسيير الأمور بل يدعو المتهافتين على بقايا الدّنيا الرّاغبين في الحصول عليها أن يغيرّوا ما قدّر الله لهم إن يستطيعوا، و يتّضح ذلك في هذه المقطوعة الشّعرية الّتي يقول فيها:

تَبَارَكَ مَنْ سَاسَ الأُمورَ بِعِلْمِـهِ وَ دَلّ لَهُ أَهْلَ السَّمَـــواتِ و الأَرْضِ
وَ مَنْ قَسَّمَ الأَرْزَاقَ بَيْنَ عِبَـادِه وَفَضّلَ بَعْضَ النّاسِ فِيها عَلَى بَعْضِ
فَمَنْ ظَنّ أَنَّ الحِرْصَ فِيهَا يَزِيدُهُ فَقُولُوا لَهُ يَزْدَادُ في الطّولِ والعرضِ [1]

فموضوعات بكر الهدية تعدّدت وتنوّعت ممّا يدل على تشبّعه بالثقافة الإسلامية والنّزعة الدّينية الخالصة.

أمّا علي بن أبي الرّجال الشّيباني فإنّه يرى بأنّ الزّمان ينصف الإنسان العاقل الّذي يخشى الإله غير مبال بالدّنيا اللّاهية، لأنّ يوم القيامة يحاسب الإنسان على فعله فيقول:

أَمِـنَ الزّمَـانِ زمانـه العَقْـــلِ فَاخْشَ الإِلَهَ وَخُلْ عَنْ جَهْـــلِ
وَ اعْلَمْ بِأَنّ في الحِسَابِ عَـدًا تُجْـزَى بِمَا قَدّمْتَ مِـنْ قَبْـلِ [2]

كما يرى ابن رشيق بأنّ راحة النّفس تكون بالقناعة والرّضى بالقليل، فيحث عليها قائلا:

يُعْطَـى الفَتَى قَيَنَـالُ في دَعَـةٍ مَـا لَـمْ يَنَـلْ بِالكَـدّ وَ التّعَبِ
فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ فضلَ رَاحَتِهَـا إِذْ لَيسَتْ الأشـيـاء بِالطّلَبِ [3]

[1] الدر الوقاد م س، ص 77.
[2] العمدة، ابن رشيق، ج2، ص 61.
[3] ديوانه، ص 50 51.

وفي موضع آخر، يتحدث عن تزكيّة النّفس و عدم مجاراة، فيقول:

تُنَازِعُنِي النَّفْسُ أَعْلَى الأُمُورِ وَ لَيْسَ مِنَ العَجْزِ لا أَنْشَطُ
و لكن بمقدار قرب المكان تكونُ سَلامَةُ مَنْ يَسْقُطُ[1]

إلاّ أنّ يوسف بن النّحوي طرق موضوعا زهديا آخر وهو انقسام النّاس إلى فئتين: فئة متدينة غير متخلقة وفئة متخلقة غير متدينة، فوجد نفسه لا ينتمي لأيّ مجموعة لأنّه متشبّع بنزعة دينيّة متخلّقة، فقال:

أَصْبَحْتُ فِيمَنْ لَهُمْ دِينٌ بِلا أَدَب وَ مَنْ لَهُمْ أَدَب عَارُونَ الدِّينِ
أَصْبَحْتُ غَرِيبَ الشَّكْلِ مُنفَرِدًا كَبَيْتِ حَسَّانٍ فِي دِيوَانِ سَحْنُونِ[2]*

كما كان يتضرع إلى الله والناس نيام، فيدعوه شاكيا إليه أموره وضرّه قائلا:

لِسْتُ ثَوْبَ الرَّجَا و النَّاسُ قَدْ رَقَدُوا فَقُمْتُ أَشْكُو إِلَى مَوْلايَ مَا أَجِدُ
وَ قُلْتُ يَا سَيِّدِي يَا مُنْتَهَى أَمَلِي يَا مَنْ عَلَيْهِ يُكْشَفُ الضُّرُّ أَعْتَمِدُ
أَشْكُو إِلَيْكَ أُمُورًا أَنْتَ تَعْلَمُهَا مَالِي عَلَى حَمْلِهَا صَبْرٌ وَ لا جَلَدُ
وَ قَدْ مَدَدْتُ يَدَي بِالذُّلِّ مُشْتَكِيًا إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ إِلَيْهِ يَدُ[3]

أمّا ابن حمديس الصّقلي فيتوب إلى الله ويطلب منه أن يغفر له ذنوبه إذ يقول في قصيدة استهلّها بحسرته الشّديدة على كثرة ذنوبه الّتي لا تعد ولا تحصى:

يَا ذُنُوبِي ثَقُلْتِ وَاللهِ ظَهْرِي بَانَ عُذْرِي فَكَيْفَ يُقْبَلُ عُذْرِي
كُلَّمَا ثُبْتُ سَاءَنِي عُدْتُ أُخْرَى لِضُرُوبٍ مِنْ سُوءِ فِعْلِي وَ هَجْرِي
ثَقُلَتْ خَطْوَتِي وَ قَوْدِي تَعَرَّى غَيْهَبُ اللَّيْلِ فِيهِ مِنْ نُورِ فَجْرِي[4]

---

[1] ديوانه م س، ص 89.

[2] البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، ابن مريم الشّريف المليتي المديوني التلمساني، ديوان المطبوعات الجامعيه، الجزائر 1986م ص 301.
وَ هَانَ عَلَى سُرَاةِ بَنِي لُؤَي * حريق بالبويرة مستطير.

[3] نفسه، ص 302 303.

[4] ديوان ابن حمديس، ص 232 233.

ويعترف بأنّه أصبح غير قادر على الحركة، فها هو الزمان يمر بسرعة والموت سيقبض روحه، وكلّما مرّ الزّمن أحسّ بالنّدم والخسارة على ما فاته، بحيث يقول:

دَبَّ مَوْتُ السُّكُونِ في حَرَكَاتِي وَ خَبَا فِي رَمَادِهِ حُمْرُ جَمْرِي
وَ أَنَا حَيْثُ سِرْتُ آكِلُ رِزْقِي غَيْرَ أَنَّ الزَّمَانَ يَأْكُلُ عُمْرِي
كُلَّمَا مَرَّ مِنْهُ وَقْتُ بِرِبْحٍ مِنْ حَيَاتِي وَ جَدْتُ فِي الرِّبْحِ خَسْرِي[1]

ليلجأ إلى الله متحنّنا داعيا بأن يردّه إلى دار الصّواب ويملأ قلبه بالورع والتّقوى ويبعد عنه وساوس الشّيطان الّتي تقوده إلى الملذات قائلا:

يَا رَفِيقًا بِعَبْدِهِ وَ مُحِيطًا عِلْمُهُ بِاخْتِلَافِ سِرِّي وَ جَهْرِي
مُلْ بِقَلْبِي إِلَى صَلَاحٍ فَسَادِي مِنْهُ وَاجْبُرْ بِرَأْفَةٍ مِنْكَ كَسْرِي
وَ أَجِرْنِي مِمَّا جَنَاهُ لِسَانِي وَتَنَاحَتْ بِهِ وَسَاوِسُ أَفْكَارِي[2]

ويظهر ابن حمديس معتبرا زاهدا في قصيدة أخرى إذ يتحدّث عن القبر الّذي هو دار البقاء وينصح الإنسان بألاّ يرغب في الدّنيا بل يرهّبه منها، والأجدر له أن يكون زاهدا متعبّدا، فيقول:

بَيْتُكَ يَا مَنْ هُوَ مَصْرَعُكَ وَيَا لِلضَّرِيحِ مَضْجَعُكْ
عَرَّاكَ دُنْيَاكَ الَّتِي لَهَا شَرَايَخْدَعُكْ
هِمْتَ بِحُبِّ قَارِكٍ وَ لَمَا يُمَتِّعُكْ
يَضُرُّكَ الحِرْصُ بِهَا وَ الزُّهْدُ فِيهَا يَنْفَعُكْ[3]

[1] دوانه م س، ص 233.
[2] نفسه، ص نفسها.
[3] نفسه، ص 306.

ويذكّره بالموت الّذي يأتيه بغتة ويطرق بابه متى أراد وبدون موعد فيدفن ثمّ يبعث ليحاسبه الله يوم الميعاد إذ يقول:

لا تَـأْمَـنَـــنْ مَـنِيَّـــة إنْ عَـصَـاهَـا تَقْرَعُـــكْ
مَقْبِرُكَ القَبْرُ الّـذِي يَكُـون مِـنْـهُ مَـطْلَعُـــكْ
إنْ فَـرَقْـتَـكَ تُـــرْبَـــة فَـاللهُ سَوْفَ يَجْمَعُـكْ
وَ لِـمَـسَـلبِ مَوْقِـــف أَهْوَالُـهُ تُرَوّعُـــــكْ [1]

ولإلهاب مشاعره أكثر، ينذره من النّار الّتي ستلهب كلّ وجهه، لذلك ينصحه بأن يتضرّع لله بالعبادة والدّعاء، فيقول:

كَـمْ جَرَامَلْشَفَقَتْ مِنْ لَمْسِكَ مِنْـهُ أَصْبُـعُـكْ
فَكَيْـفَ بِالنّـَارِ الّتِـــي مِنْ كُلِّ وَجْهٍ تَلْدَعُـكْ
يَـرَاكَ ذُو العَـرْشِ إِذَا نَـادَيْـتَـهُ وَ يَـسْمَعُـــكْ
فَثِـقْ بِهِ وَ لا يَكُـــنْ لِـغَـيْـرِهِ تَـضَرُّعُـــكْ [2]

وفي مقطوعة أخرى، يذكّر الإنسان الماجن الّذي غرّته الدّنيا فانغمس في شهواتها، بماذا يا ترى سيقابل الله، إذ يقول:

مَا الّذِي أَعْدَدْتَ لِلْمَوْتِ فَقَدْ قُدِّرَ المَوْتُ لا شَـكَّ عَلَيْـــكُ
أَذْنُوبًا كاثَرَتْ عدّ الحَصَـــى بِئْسَ مَا اسْتَكْثَرْتَ مِنْ كَسْبِ يَدَيْكْ [3]

[1] دوانه م س، ص 306.
[2] نفسه، ص نفسها.
[3] نفسه، ص 304.

ثمّ يحذّره وينذره بأنّ عذاب القبر سيكون شديدا فما **باله بيوم الحشر، إذ لا يستطيع** المشي على الصّراط المستقيم، فياله من هول والنّار ستكون مصيره، حيث يقول:

نِئْسَ مَا يُسْمَعُ مِنْ تَعْظِيمِهَا مَلَكَا القَبْرِ مِنْ مَلَكَيْـــــكْ
أيّ خَطْبٍ قَادِحٍ في رَقْـدَةٍ يُوقِظُ الحَشْرَ إِلَيْهَا مُقْلَتَيْكُ
وَ صِرَاطٍ لَسْتَ بالنّاجِي إِذَا وَطِئَتْهُ زَلَقٍ مِـــنْ قَدَمَيْـــكْ
فَلَكَ الوَيْلُ مِنَ النّـــارِ إِذَا مُقْلَةُ الرّحْمَنِ تَنْظُرْ إِلَيْكْ [1]

يتّضح أنّ الشّعراء الجزائريين استفادوا من الإسلام كثيرا، فتشبّعوا بنزعات زهدية دينية **جعلتهم يطرقون مواضيع** مختلفة صبّت في قالب واحد و هو تذكير النّفس **بالموت وتجهيزها** من أجل الاستعداد للآخرة دار البقاء.

[1] ديوانه،م س، ص 304.

الفصل السّادس

الرّثــاء

إنّ الرّثاء من الأغراض الشّعرية الّذي يرسم الشّاعر صوره وحالاته لإنسان يستحق الحزن على موته، والجزع من أجله، وهو بذلك تخليد لقيم إنسانية واجتماعية مقترنة بإنسان محبوب[1].

وإذا كان الرّثاء في الجاهلية لم يخرج عن مواضيع الأسى وذرف الدّموع والحداد على الأموات والتّهديد بالثّأر والانتقام أحيانا كما ورد في قول المهلهل بن ربيعة في رثاء أخيه كليب:

كُنّا نَغارُ عَلى العَواتِقِ أنْ تُرَى ... بِالأمْسِ خارِجَةَ الأوْطانِ
خَرَجْنَ حِينَ سَوى كُلَيب حسرا ... مُسَتَبْقَنات بُعْدَهُ سَوَانِ
يَخْمُشْنَ مِنْ أُدُمِ الوُجُوهِ وَحاسِرا ... مِنْ بَعْدِه وَ يَعدْنَ بالأَزْمَانِ
كَلّا وَخايِرَةِ للزّمانِ فَقَدْ أتَى ... فُقْدانُهُ وَ أجَلّ رُكْنَ مَكانِي
يَا لَهْفَ نَفْسِي مِنْ زَمانٍ فَاجِعٍ ... أُلْقِيَ عَلَيّ بِكَلْكَلٍ وَجِرَانِ
فَلأتركَنّ بِهِ قَبائِلَ ثَعْلَبٍ ... قَتْلَى بِكُلّ قُرَارَةٍ وَ مَكَانِ[2]

فالمهلهل بن ربيعة توعد بني ثعلب بالثّأر والانتقام لمقتل أخيه كليب، وما هذه الأبيات إلاّ نموذج عن القصائد الّتي قيلت في الرّثاء الجاهلي، إلاّ أنّ النّظرة إلى الموت اختلفت في الإسلام، فقد تغيرّت معاني الرّثاء، كون الشّاعر أصبح ملتزما بالعقيدة الدّينية ، وبعدما كان يتوعد بالثّأر لأهله في الجاهلية، صار يدعوهم إلى القتال في سبيل الله لأنّ مصيرهم سيكون الجنّة وخير دليل الخنساء أميرة شعر الرّثاء في الجاهلية والّتي عاظمت العرب بمصيبتها بابنيها وأخويها وبدت القروح في عينيها من البكاء عليهم، هي نفسها أدركت الإسلام وحضرت حرب القادسية

[1] الأدب الجاهلي: قضايا و فنون و نصوص، حسني عبد الجليل يوسف، ص 349.
[2] نفسه، ص 366 367.

ومعها بنوها، أربعة رجال، فحثتهم على القتال والاستماتة في سبيل الله، فقتلوا جميعا فقالت الحمد لله الّذي شرّفني بقتلهم»[1].

فالشاعر أصبح مؤمنا بقضاء الله وقدره، وإن يترك الموت أثرا في نفسه إذ إنّ حسّان بن ثابت رثى الرّسول –صلّى الله عليه و سلّم وعبرّ عن إحساسه بالبكاء لا بالّندب والخدش كما ذكر مناقبه وأنّ رسالته ستبقى خالدة قائلا:

بِطِيبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَ مَعْهَدُ مُنِيرٌ وَ قَدْ عَفَّى الرُّسُومَ وَ تَهْمَدُ
وَ لا تَنْمَحِي الآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ بِهَا منبر الهَادِي الذِي كَانَ يَصْعَدُ
بِهَا حُجُرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسطَهَا مِنَ اللهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَ يُوقَدُ
لَتَأطُلُوقُوفًا تَذْرِفُ العَينُ جُهْدَهَا عَلَى طَلَلِ القَبْرِ الذِي فِيهِ أَحْمَدُ[2]

ولقد سار على درب هؤلاء الشّعراء المسلمين العديد من الشّعوب المسلمة، من بينهم شعراء بني رستم، يأتي في مقدّمتهم بكر بن حماد الّذي رثى ابنه في قصائد كثيرة، إذ يقول محمود علي مكي: "وقد انصرف بكر بن حمّاد بآخرة من عمره عن عرض الدّنيا واقتصر على النّظم في الزّهد والمواعظ وذكر الموت، وكان وقع مصرع ابنه عبد الرّحمن شديدا على نفسه فأكثر من رثائه بقصائد كثيرة»[3].

أمّا محمّد طمّار فيقدّم القصيدة الّتي رثى فيها ابنه قائلا: "مات ولده وكان لهذه القصيدة أثر عميق في نفسه وذرف عليه دمعة صادقه إلاّ أنّ آخر المقطوعة تغلّب عليها العقل أكثر من العاطفة»[4].

[1] الأدب في صدر الإسلام، د واضح الصمد، ص 126.
[2] ديوان حسّان بن ثابت، ص 54.
[3] بكر بن حمّاد، محمد الأخضر السّائحي، ص 183.
[4] تاريخ الأدب الجزائري، ص 80.

يقول بكر بن حماد وقد بدا عليه حزن شديد بعدما فقد ولده فترك حرقة في نفسه:

بَكَيْتُ عَلَى الأحِبَّةِ إذ تَوَلّوا وَ لَوْ أنّي هَلكتُ بَكوا عَلَيّا
فيا نَسْلِي بَقَاؤُكَ كَانَ ذُخْرا فَقُدْكَ قَدْ كوَى الأكْبَادكيا
كفَى حُزْنًا يأتِي مِنْكَ خلو وَكأ مَيت وَ بَقِيتُ حَيّا[1]

وتزداد آلام وأوجاع بكر وآهاته خاصة عندما دفن ابنه ولم يستطع فعل أي شيء إذ يقول متأسيا:

وَ لَمْ أكُ آيِسًا فَيِئسْتُ لمّا رَمِيتُ اللّحْدَ فَوْقَكَ مِنْ يَدَيا
قُبيتَ الخَلْقِ إذَا خُلِقُوا أطَاعُوا وَ لَيْتَكَ لَمْ تَكُنْ يَا بَكْرُ شَيا
تَمُرّ بِأشْهُرٍ تَمضِي سرَاعا وَ تَطْوِي في لَيَالِيهِنّ طَيّا[2]

ثمّ يخاطب ابنه بألاّ يحزن لانتقاله إلى القبر لأنّ كل شيء آيل للزّوال، فيقول:

فَلا تَفْرَحْ بِدُنْيَا لَيْسَ تَبْقَى وَ لا تَأْسَفْ عَلَيْهَا يَا بنيّا
فَقَدْ قَطَعَ البَقَاءُ غُرُوبَ شَمْسٍ وَ مَطْلَعَهَا عَلِيّا يَا أخِيّا
وَ لَيْسَ الهَمُّ يَجْلُوهُ نَهَار تَدُورُ لَهُ الفَرَاقِدُ وَ الثّرَيّا[3]

فهذه القصيدة مليئة بمظاهر الحزن والأسى وقد علّق عليها عبد الملك مرتاض بأنّها "تقطر حزنا وتتبجّس ألما على الولد العزيز المفقود"[4].

ولاعجب في ذلك، لأنّ الشّاعر حرّكته عاطفة الأبوة وهزّته الفاجعة فانفعل بالحدث لأنّ "موت الولد صدع في الكبد لا ينجز آخر الأمد"[5].

[1] الدر الوقاد، محمّد بن رمضان شاوش، ص 87.
[2] نفسه، ص 87 88.
[3] نفسه، ص 88.
[4] الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور، ص 68.
[5] مجلّة الفضاء المغاربي ،العدد الثاني، ص39.

كما أنّ هناك مقطوعة أخرى لابن حماد وهي "لامية مؤثّرة، دافقة العاطفة، جياشة الإحساس تنضح باللّوعة وتنضخ بالموجعة"[1].

فالشاعر لمّا أحسّ بدنو أجله* واستسلم لقضاء الله وقدره، خاطب ابنه معلنا صبره لأنّ الحزن لو يردّه لحزن عليه الدّهر كلّه، إذ يقول:

وَ هَوانٌ وَجْدِي أَنِّنِي بِكَ لاحِـــقٌ ... وَ أَنَّ بَقَائِي في الحَيَاةِ قَلِيـــلُ
وَ أَنْ لَيسَ يَبْقَى لِلحبيبِ حَبِيبُـــهُ ... وَ لَيسَ بِبَاقٍ لِلخَلِيلِ خَلِيـــلُ
وَ لَوْ أَنَّ طُولَ الحُزْنِ مِمَّا يَـــرُدُّهُ ... لَنادمنيحُزْن عَلَيْـهِ طَـويـــلُ
بَلْ رُبَّمَا دَارَتْ عَلى القَلْبِ لَوْعَـــةٌ ... فَيُرْجِعُهَا صَبْر هُنَالِكَ جَـمِيـلُ[2]

فبكر لجأ إلى الصّبر لأنّ الصّبر من الإيمان وهو "مستوى يعين الشّاعر على أن يتحوّل من إنسان أدمته المصيبة و هزّته الفجيعة إلى إنسان لملم أحزانه وهدّأ من انفعالاته واستقرّت نفسه"[3].

وبالإضافة إلى رثاء ابنه رثى مسقط رأسه تيهرت قاتلا :

زُرْنَا مَنَـازِلَ قَـوْمٍ لَمْ يَـزُورُونَـــا ... إِنَّا لَفي غَفْلَةٍ عَمَّا يُقَاسُونَـــا
لَوْ يَنْطِقُونَ لَقَالُوا الزَّادُ وَيْحَكُـــم ... لِلرَّاحِلِ يلُ فَمَا يَرْجُو المُقِيمُونَا
المَوْتُ أَجْحَفَ بِالدُّنْيَا فَخَرَّبَهَـــا ... وَ فعلنا فعل قوم لا يَمُوتُونَـــا
فَالآنَ بْكُوا فَقَدْ حَقَّ البُكاءَ لَكُمْ ... فَالحَامِلُونَ لِعَرْشِ اللهِ بَاكُونَـــا
مَاذَا عَسَى تَنْفَعُ الدُّنْيَا مَجْمعهَـــا ... لَوْ كَانَ جُمِعَ فِيهَا كَنْزُ قَارُونَـــا[4]

---

[1] الأدب الجزائري القديم، ص 68.

* لم يعش بعد ابنه القتيل إلاّ بضعة أشهر حيث قتل ولده عام 295ھ فتوفي بعد وفاة ابنه سنة 296ھ.

[2] رياض النّفوس، المالكي، ج2، ص 420 421.

[3] رثاء الابناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، د. محيمر صالح، مطبعة المنار، ط2، ص 119.

[4] الدر الوقاد، محمّد بن رمضان شاوش، ص 90.

فهو يريد أن يبين بأنّ الموت يقهر كل شيء حتىّ ولو كان الإنسان يملك الدّنيا كلّها إذ ضرب مثلا بقارون الغني موضّحا أنّ كل شيء لا محالة زائل، لذلك لا ينبغي للإنسان أن يغترّ بالمظاهر، بل يجب عليه أن يتزود بأعمال البر والتّقوى لملاقاة ربه.

فهذه الأبيات على قدر ما فيها من رثاء فيها "حكمة وموعظة للمتكالبين على جمع حطام الدّنيا وإلى الّذين لم ينتبهوا من غفلتهم وكأنّهم لا يموتون ألا، هل من متزود فقد أزف الرّحيل"[1].

وآخر ما ختم به الشّاعر هذا الغرض هو رثاء نفسه، عندما أصبح غير قادر على التّصرّف في الأمور والتحكّم في أعضائه، لأنّه لم يستطع القيام لأصحابه لمّا جاؤوا لرؤيته، إذ أصبح عاجزا عن فعل أيّ شيء زاحفا مثل الجمل، كون الموت اقترب منه بخطى سريعة ولم تعد بيده حيلة،حيث يقول:

أَحْبُوإِلى المَوْتِ كمَايحْبُو الجَمَلُ قَدْ جَاءَنِي مَا لَيسَ فِيهِ حِيَلُ[2]

ومن المراثي الّتي قيلت في القرن الثّالث الهجري، مقطوعة شعرية لشاعر تاهرتي مجهول، تدل على براعة قائلها إذ تحمل معانيها الحنين إلى مآثر الأوّلين الّذين اندثروا، والحزن على تدمير تيهرت و خرابها:

خَلِيلَيّ عوجا بالرّسُومِ وَ سَلّمَا على طَلَلٍ أَقْوَى وأَصْبَحَ أَعْبَرَا
أَلمّا عَلى رَسْمِ (تيهرت) دَائِرٍ عَفَتْهُ الغَوَادِي الرّائِحَات فَأَقْفَرَا
كأنْ لَمْ تَكُنْ تِيهرت دار معشر قَدَ مّرَها المَقْدُورِ فِيمَنْ تَدَمّرَا[3]

[1] بكر بن حماد ، ص 187.
[2] الدرّ الوقّاد، ص 92.
[3] البيان المغرب، ابن عذارى، ص 199.

أمّا الشّاعر فضل بن نصر التّاهرتي* فقد رثى ابنه هو أيضا لكنّه في حيرة وخيبة أمل كبيرة، بحيث لا يعرف مكان دفن ابنه ولا سبب وفاته، وبعدما يئس دعا الله أن ينزل عليه الرّحمة و يملأ قلبه بالصّبر، في هذه المرثية الّتي يقول فيها:

فَلَوْ كَانَ فِدَاءُ النَّاسِ بَنِيهِمْ أُتِيحَ لَهُ مَوْتٌ وَ أَضْمَرَهُ قَبْرُ
إِذَنْ لَصَبَرْتُ النَّفْسَ ثُمَّ احْتَسَبْتُهُ لِيَعْظُمَ لِي مِنْ بَعْدِ مَيْتَتِهِ الأَجْرُ
وَ لَكِنْ طَوَّ عَنِّي المَقَادِيرُ أَمْرَهُ فَلِمَا بِهِ مُنْذُ انْتَأَى شَخْصُهُ خُبْرُ
فَرَحْمَتُكَ اللَّهُمَّ قَدْ بَلَغَ الأَسَى نِهَايَةَ مَجْهُودِي وَ قَدْ غلب الصَّبْرُ[1]

لم يعد الرّثاء في الشّعر الجزائري القديم، مقتصرا على الآباء والأبناء والملوك والمدن فقط بل تعدّاه إلى رثاء أمّهات الأمراء والخلفاء، كما فعل ابن هاني عندما رثى والدة جعفر بن علي بعدما ذكرّ بالموت والفناء في بداية القصيدة قائلا:

أَلَا كُلُّ شيءٍ قَرِيبُ المَدَى وَ كُلُّ حَيَاةٍ إِلَى مُنْتَهَى[2]

ويواصل ذكر الموت إلى أن يشيد بصفات أمّ يحي وجعفر بن علي فيتساءل كيف يكون حال أبنائها بعد وفاتها إذ هي الّتي كانت تدبّر الأمور، حين يقول:

فَلَوْجَازَ حكمِي في الغَابِرِينَ وَسَّلتُ أَقْسَامَ هَذَا الوَرَى
لَسَمَّيْتُ بَعْضَ النِّسَاءِ الرِّجَالَ و سَمَّيتُ بَعْضَ الرِّجَالِ النِّسَا
إِذَا هِيَ كَانَتْ لِكَشْفِ الخطوبِ فَكَيْفَ البنون لِضَرْبِ الطُّلَى
تَوَلَّتْ مُرَفِّلَةً لِلْمُلُوكِ فَمِنْ مُصْطَفَى النَّجْلِ أَوْ مُرْتَضَى[3]

* كان يصنع الشّعر، و عالما بمذهب الشّافعي (344ھ).
[1] رياض النّفوس، المالكي، ج2، ص 421.
[2] ديوان ابن هاني، ص 27.
[3] نفسه، ص 32.

ثمّ يخاطب ابنيها وفي قلبه حسرة و توجّع لفقدها، طالبا منهما ألاّ يخيّبا آمالها، لأنّها لو كانت حيّة لأعادا من الأعداء لذلك يجب ان يحققا النصر، فتفرح بهما حتى في قبرها، إذ يقول:

وَ أَكْثَرُ آمَالِهَا فِيكُمَا ... وَ في القَلْبِ مِنْهَا كَجَمْرِ الغَضَا
قَدْ أَدْرَكْتْ مَا تَمَنَتْ قَلا ... تضِيّقَا عَلَيْهَا بَاقي المُنَى
فَلَولا الضَرِيحُ لَنَادَتْكُمَا ... تُعِيذُكُمَا من شمَاتِ العِدَى
فَإِمَا تَزِيلاَ في أُنسِهَا ... وَ إِمّا تَلُوذَان عنها البِلَى
فَقَدْ يُضْحِكُ الحَيَ سِنّ الفَقِيد ... فَتَهْتَزُ أَعْظُمُهُ في الثَرَى[1]

أمّا النّهشلي فيرى بأنّ الموت لم يترك أحدا، فهذا عيسى بن خلف* كان مثل السّور الشّامخ قويا، ومع ذلك فقد نال المرض منه، إذ لمّا تناول الدّواء كان فيه حتفه، يقول:

مَنَايَا سدد الطّرق عنها وَ لَمْ تَدَعْ ... لَهَا مِنْ ثَنَايَا شاهق مُتَطِلَعَا
وَ لَا رَأَتْ سُورَ المَهَابَةِ دُونَهَا ... عَلَيْكَ وَ لما لَمْ تَجِدْ فِيكَ مطمعا
تَرَقَتْ بِأَسْبَابِ لِطَافٍ وَ لَمْ تَكدْ ... تُوَاجِهُ مَوْقُورِ الجَلَالَةِ أَروعَا
فَجَاءَتْكَ في سِرِ الدَوَاءِ خفيـة ... عَلى حِينِ لَمْ تحذر لداءٍ توقّعَا[2]

ومن بين الّذين نظموا في غرض الرّثاء وأجادوا ابن رشيق الّذي رثى العلماء والأمراء والمدن، وبما أنّه عاش في كنف المعز بن باديس رثاه ذاكرا مناقبه ومكانته العالية، وإنّ بموته حزنت الشّمس بحجوبها و لن يصعد الفلك، كون المعز كان يضيء الكون، منها قوله:

وَلَى المُعِزَ عَلَى أَعْقَابِهِ ... أَوْ كَادَ ينهَدُ مِنْ أَرْكَانِهِ الفَلَكُ
مَضَى فَقِيدًا وَ أَبقَى في خَزَائِنِهِ ... هَامَ المُلُوكِ وَ مَا أَدْرَاكَ مَا مَلَكُوا

[1] ديوانه م س، ص 32 33.
* صاحب خراج المغرب.
[2] الروابط الثقافية، محمد الطّمار، ص 125.

مَا كَانَ إلا حُسَامًا سَلَّهُ قَدَرٌ عَلى الّذِينَ بَغَوا في الأرْضِ وانْهَمَكُوا
كأنّهُ لَمْ يَخُضْ لِلْمَوْتِ بَحْرَ وغى خُضْرُ البِحَارِ إذَا قِيسَتْ بِهِ بِرَكُ
وَ لَمْ يَجُدْ بِقَنَاطِيرٍ مُقَنْطَرَةٍ قَدْ أرْعَبَتْ باسْمِهِ إبريزَهَا السّبَكُ
رُوحُ المُوزرُوحُ الشّمْسِ قَدْ قُبِضَا فانْظُرْ بِأيّ ضِيَاءٍ يَصْعَدُ الفَلَكُ [1]

إنّ ابن رشيق بالغ في رثاء المعز، غير أنّه عبرّ تعبيرا صادقا عندما رثى قاضي المسيلة، فوفاته تركت أثرا كبيرا في نفسه خصوصا وأنّ المرثي ترك خسارة دينية كبيرة إذ يقول متأسيا بعدما وصله ذلك الخبر المحزن:

العَفْرُ في فَمِ ذَاكَ الصَّارِخِ النَّاعِي وَ لا أُحِيبَتْ بِخَيْرٍ دَعْوَةُ الدَّاعِي
فَقَدْ نَعَى مِلْءَ أفْوَاهٍ وَ أفْئِدَةٍ وَ قَدْ نَعَى مِلْءَ أبْصَارٍ وَ أسْمَاعِ
أمَا لَئِنْ صَحَّ مَا جَاءَ البَرِيدُ بِهِ لَيَكْثُرَنَّ مِنَ البَاكِينَ أشْيَاعِي
يَا شُؤْمَ طَائِرِ أخْبَارٍ مُبَرِّحَةٍ يَطِيرُ قَلْبِي لَهَا مِنْ بَيْنِ أضْلاعِي
مَازِلْتُ أفْزَعُ مِنْ يَأسٍ إلى طَمَعٍ حَتّى تَرَبَّعَ يَأسِي فَوْقَ أطْمَاعِي
فَاليَوْمَ أُنفِقُ كَنْزَ العُمْرِ أجْمَعَهُ لِمَاضَى وَاحِدُ الدُّنيا بِإجْمَاعِ
تُوُفّيَ الطّاهِرُ القَاضِي فَوَا أسَفَا إنْ لَمْ يُوَفَّ تَبَارِيحِي وَ أوْجَاعِي
فَلِلدّيَانَةِ فيهِ لُبْسُ تَاكِلَةٍ وَ لِلْقَضَاءِ عَلَيْهِ قَلْبُ مُلْتَاعِ [2]

كما ترك تدمير القيروان حزنا عميقا في نفس ابن رشيق فرثاها بقصيدة رائعة، استهلّها بحسرته الشديدة على فقدان العدد الهائل من العلماء النّبغاء الّذين شرّفوا القيروان، فوصفهم وصفا دقيقا، كيف لا، وهم العابدون المسلّحون بالتّقوى الّذين اجتمعت فيهم الصّفات المثلى لتفسيرهم ما أشكل من القرآن والحديث ولفصاحتهم وعلمهم بجميع الأمور الدّينية والدّنيوية، يقول:

[1] ديوان ابن رشيق، ص 109_110.
[2] نفسه، ص 92 93.

كَمْ كَانَ فِيهَا مِنْ كِرَامٍ سَـــادَةٍ بِيضِ الوُجُوهِ شَوَابِغِ الإِيمَـــانِ
مُتَعَاوِنِينَ عَلَى الدِّيَانَةِ وَ التُّقَـــى للهِ فِي الإِسْرَارِ وَ الإِعْـــلاَنِ
وَ مُهَذَّبٍ جَمِّ الفَضَائِلِ بَـــاذِلٍ لِنَوَالِهِ وَلِعِرْضِـــهِ صَـــوَّانِ
وَأَئِمَّةٍ جَمَعُـوا العلومَ هَذَّبُـوا سُنَنَ الحَدِيثِ وَ مُشكِلَ القُرْآنِ
عُلَمَاءَ إِنْ سَائَلْتَهُمْ كَشَفُوا العُمَى بِفَقَاهَةٍ وَ فَصَاحَةٍ وَ بَيَـــانِ[1]

ويستمر في ذكر مناقب العلماء وفضائلهم بحيث كانت القيروان تفخر بهم، هذه القمم الشّامخة التي زهت بها على اكبر المراكز العلمية لاسيما مصر وبغداد، غير أنّ دوام الحال من المحال، فبعدما كانت القيروان منبع العلم والعلماء تعج بالحيوية والنّشاط، وتنعم بالأمان والاطمئنان سلبتها الأيّام فرحتها بعدما حاصرتها الاعراب من بني هلال وسليم وجعلوها دار خراب ودمار:

كَانَتْ تُعَدُّ القَيْرَوَانُ بِهِـــمْ إذا عُدَّ المَنَازِهَ البُلْـــدَانِ
وَ زَهَتْ عَلَى مِصْرٍ وَحَقَّ لَهَا، كَمَـا تَزْهُو بِهِم، وَعَلَتْ عَلَى بَغْدَانِ
حَسُنَتْ فَلَمَّا أَنْ تَكَامَلَ حُسْنُهَـا وَسَمَا إِلَيْهَا كُلّ طَـــرْفٍ رَانِ
وَ تَجَمَّعَتْ فِيهَا الفَضَائِلُ كُلُّهَـــا وَ غَدَتْ مَحَلَّ الأَمْنِ وَ الإِيمَـانِ
نَظَرَتْ لَهَا الأَيَّامُ نَظْرَةَ كَاشِـــحٍ تَرْنُو بِنَظْرَةِ كَاشِـــحٍ مِعْيَـــانِ
حَتَّى إِذَا الأَقْـدَارُ حُمَّ وُقُوعُهَـــا وَدَنَا القَضَاءُ لِمُـــدَّةٍ وَ أَوَانِ
أَهْدَتْ لَهَا فِتَنًـا كَلَيْلٍ مُظْلِـــمٍ وَ أَرَادَهَا كَالنَّاطِـــحِ العِيدَانِ
بِمَصَائِبٍ مِن كُلِّ نَوْعٍ وَ أَشَـالِبٍ (؟) مِمَّنْ تَجَمَّعَ مِـنْ بَنِـي هِمَـانِ
فَتَكُـوا بِأُمَّةِ أَحْمَدٍ أُتْرَاهُـــمُ أَمِنُوا عِقَابَ اللهِ فِي رَمَضَـانِ[2]

[1] معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، عبد الرّحمان الدّبّاغ، أكمله و علّق عليه: أبو الفضل أبو القاسم بن ناجي التّنوخي، ج1، مكتبة الخانجي، ص 18.
[2] نفسه، ص 19.

ويواصل حديثه ذاكرا ما آلت إليه القيروان من فتك الأعراب، وكلّه حزن وأسى على تلك الجرائم البشعة، منها قوله:

نَقَضُوا العُهُودَ المُبْرَماتِ وَ أَخْفَرُوا ذِمَمَ الإِلَهِ وَ لَمْ يَفُوا بِضَمَانِ
فاسْتَحْسَنُوا عَدْرَ الجوَارِ وَ آثَرُوا سَبيَ الحَرِيمِ وكشْفَةَ النِّسْوَانِ
سَامُوهُم سُوءَ العَذَابِ وَ أَظْهَرُوا مُتَعَسِّفِينَ كوَاحِشَ الأَضْغَانِ
و المُسْلِمُون مُقَسَّمُونَ تَنَالُهُمْ أَيْدِي العُصَاةِ بِذِلَّةٍ وَ هَوَانِ
مَا بَيْنَ مُضْطَرٍّ و بَيْنَ مُعَذَّب وَ مُقَتَّلٍ ظُلْمًا و آخَرَ عَانِ[1]

وتزداد حسرته ويتضاعف ألمه عندما يرثي أبرز المعالم القيروانية وهو المسجد الجامع، فيقول:

و المَسْجِدُ المعمُورُ جامِعُ عقبَة خَرِبُ المعاطِنِ مُظْلِمُ الأَرْكَانِ
قَفر فَما تَغْشَاهُ بعدُ جماعَة لصلاةِ خمسٍ لاو لا لِأذانِ
بَيْتٌ بِه عُبِدَ الإِلَهُ وَ أُبطِلَتْ بَعْدَ الفُرُوضِ عِبَادَةُ الأَوْثَانِ
بَيْتٌ وَحْيِ اللهِ كَانَ بِنَاؤُهُ نِعْمَ البِنَا و المُبْتَنَى و البَانِي
أَعْظِمْ بتلك مُصِيبة مَا تَنْجَلِي حَسَرَاتُهَا وَ يَنقضِي المَلَوَانِ[2]

كما يبين قيمة القيروان بالنسبة للأقطار الإسلامية على هذه النّكبة الّتي ألمت بهذه المدينة الحضارية، بل حتى النجوم لم تعد تزهر والقمران افتقدا وكل شيء في الطبيعة حزن على القيروان وشارك ابن رشيق حزنه تجاه المدينة الّتي عاش فيها، وذلك في قوله:

حَزِنتْ لَهَا كورُ العِرَاقِ بِأَسْرِهَا وَ قُرَى الشَّامِ و مِصْرُ وَ الخُرَسَانِ
وَ تَزَعْزَعَتْ لِصُابِهَا وَ تَنَكَّدَت أَسَفًا بِلَادُ الهِنْدِ وَ السِّنْدَانِ
وَ عَفَا مِنَ الأَقْطَارِ بَعْدَ خَلَائِهَا مَا بَيْنَ أَندَلُسٍ إِلَى حُلْوَانِ

[1] معالم الايمان م س ، ص 19.
[2] نفسه، ص 20.

وَ أَرَى النُّجُومَ طَلَعْنَ غَيرَ زَوَاهِـــرٍ في أُفُقِهِنّ وَ أَظْلَـــمَ القَمَـــرَانِ
وَ أَرَى الجِبَالَ الشُّمَّ أَمْسَتْ خُشَّعا لِمُصَابِهَا، وتزعـــزَعَ الثَّقَـلانِ
وَ الأَرْضُ مِنْ وَلِهَا قَدْ أَصْبَحَتْ بَعْدَ القَرَارِ شَدِيـدَةَ المَيَـــلانِ[1]

وفي آخر القصيدة، يتساءل إن كانت الليالي ستعيد القيروان لسالف عهدها فهو يأمل ذلك ويرجو أن ترجع إليها أيّامها الزّاهرة في قوله:

أترى اللّيالي بَعْدَمَا صَفَتْ بِنَـــا تَقْضِي لَنَا بِتَوَاصُلٍ وَتَـــدَانِ
و تُعِيد أَرْضَ القَيْرَوانِ كَعَهْدِهَـــا فِيمَا مضَى مِنْ سَالِفِ الأَزْمَانِ
أَمْسَتْ وَ قَدْ لَعِبَ الزَّمَانُ بِأَهْلِهَا وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمْ رُعُا الأَقْـــرَانِ
فَتَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبا و تشتّـــوا بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الأَوْطَانِ[2]

ولقد رثى ابن حمديس القائد أبا الحسن علي بن حمدون* بقصيدة رقيقة تدل على حسرته وحرقته وحزنه العميق تجاه المرثي، فيقول معدّدا مناقبه ومتأسيا لما أصابه مشركا في مواساته وآلامه جميع الأشياء والخصال، منها:

بَكَى قَقْدَكَ العِزُّ المُؤَيَّدُ و المَجْـــدُ وَنُدَنَاحَتْ عَلَيْكَ الحَرْفُ و الضَّمْرُ الجُرْدُ
وَ قَدْ نَدَبَتْكَ البِيضُ و السُّودُ في الوَغَى وَرَثَكَ التَّأييدُ و الحَسَبُ العَـــدُّ
وَ مَا فَقَدَتْ إِلاّ عَظِيمًا وَ فَقْـــدُهُ بِهِ بَيْنَ أَحْشَاءِ العُلَى يُوجَدُ الوَجْـــدُ
وَكُنْتَ أَمِيرَ المُلْكِ حقا و سَيْفـــهُ وَ مِنْ حَسَنَاتِ البِرِّ كَانَ لَكَ الغِمْـــدُ
وَ أَنْتَ ابْنُ حَمْدُونَ الَّذي كَانَ حَمْدُهُ يُعَبِّرُ عَنْ نَادِيهِ في عُرْفِـــهِ النَّـــدُ
هُمَامٌ إِلَيْهِ كان تَقْرِيبُ عُرْيَتِـــي بِبُزْلٍ خَفِيفٍ بَيْنَ أَخْفَاقِهَـــا الوَخْـــدُ[3]

---

[1] معالم الايمان م س ، ص 20.
[2] نفسه، ص 20.
* اسم وزير من وزراء الدّولة الحمّادية.
[3] ديوان ابن حمديس، ص 146 147.

كما رثى جاريته جوهرة وكلّه أسى وشجن وحرقة على وفاتها، فاستهلّ قصيدته بالحديث عن الموت الّذي يهدم كلّ شيء، ولا خلود لأحد ليعبرّ عن ألمه الشديد واشتياقه الكبير لجوهرة الّتي يميته ذكرها، ويحرقه فراقها ويبكيه، يقول:

يَهْدِمُ دَارَ الحَيَاةِ بَانِيهَـــــا ... فَأيّ حَيّ مُخَلّـدٍ فِيهَـــــا
وَ إنْ تَرَدّتْ مِنْ قَبْلِنَا أُمَـــم ... فَهِيَ نُفُوسٌ رَدَتْ عَوَارِيهـــا
أَمَا تَرَاهَا كَأَنّهَـــا أَجَـــمّ ... أَسْهَلَ بَيْنَنَا دَوَاهِيهَـــــا
إِنْ سَالَمَتْ وَ هِيَ لا تُسَالِمُنَا ... أَيَامَنَا حَارَبَتْ لَيَالِيهَـــــا
وَاوَحْشَتَا مِنْ فُرَاقِ مُؤْنِسَـةٍ ... يُمِيتُنِي ذِكْرُهَا وَ يُحْيِيهَـــا
أَذْكُرُهَا وَ الدّمُوعُ تَسْبِقُنِـي ... كَأَنَّنِي لِلأَسَى أُجَارِيهَـــــا[1]

تمّ يصف الحادثة التي ماتت بها، غريقة في البحر وقلبه ينبض حزنا وألما وحسرة لفقدها وعدم إنقاذها، فيقول:

يَا بَحْرُ أَرْخَصْتَ غَيْرَ مكتـــرث ... مَنْ كُنْتُ لا لِلْبَيَاعِ أُغْلِيهَـــا
جَوْهَرَكَانَ خَاطِرِي صَدَفَـــا ... هَا أَقِيهَا بِهِ وَ أَحْمِيهَـــــا
أَبْتَهَا فِي حَشَاكَ مُعْرَقَـــــةً ... وَبِتّ فِي سَاحِلَيْكَ أَبْكِيهَـــا
وَ نَفْحَةُ الطّيبِ فِي ذَوَائِبِهَـــا ... وَ بَهْجَةُ الكُحْلِ فِي مَآقِيهـــا
عَانَقَهَا المَوْجُ ثُمّ فَارَقَهَـــــا ... عَنْ ضَمّةٍ قَاضَ رُوحُهَا فِيهَـــا
وَيْلِي مِنَ المَاءِ وَ التّرَابِ وَ مِنْ ... أَحْكَامِ مَدّيْنِ حُكْمَا فِيهَـــــا
أَمَاتَهَـــا ذَا وَذَاكَ غَيْرَهَـــــا ... كَيْفَمَنَ العُنْصُرَيْنِ أَفْدِيهَـــا[2]

[1] ديوان ابن حمديس م س، ص 461.
[2] نفسه، ص 461 462.

والظّاهر أنّ وفاة جوهرة تركت حزنا عميقا في نفس ابن حمديس، فظلّ يتذكرها ويبكيها كلّما رأى إنسانا يغرق:

وَ سَابِحٍ عب فيِ بَحْرِهِ مَرِحًـــا تشير كَفَّاهُ تَعْوِيدًا مِنَ الغَـــــرَقِ
يَدَعْ وَ لَمْ يكُ مُضْطَرًا خذُوا بِيدِي وَ عِنْدَهُ الفَرْقُ بَيْنَ الأَمْنِ وَ الغَـرَقِ
فَإن بَكِيتُ نَوَافِ قَدْ ذَكَـــرْتُ بِـهِ مَنْ جَرَعَتْ مِنْهُ كَأْسَ المَوْتِ بِالشَرْقِ
رُدَّتْ عَلَى البَحْرِ مِنْ كَفِّي جَوَاهِرُهُ ثُمَ انْقَلَبْتُ بِقَلْبٍ دَائِمِ الحَـــــرقِ [1]

ومجمل القول، إنّ فاجعة الموت تركت حزنا عميقا وأثرا كبيرا في نفوس الشّعراء الجزائريين، فبكوا النّفس والأهل والملوك والمدن بالتوجع والتّحسّر والحزن عليهم تارة، وتارة بذكر فضائلهم وأعمالهم وخسارة المجتمع فيهم.

[1] ديوانه، ص 284.

الفصل السّابع
شعر الحكمة

يعتبر شعر الحكمة «تأمّلات وسوانح ينظمها الشّاعر على النّاس في صيغة اعتبارات شخصية عاشها، وانفعالات أحسّها، وكلّها تدور حول التّأمّل في شؤون الحياة وأحوال الوجود، يعرضها الشّاعر علينا بشكل عظات وعبر تزيدنا معرفة حقائق الوجود»[1].

ومن هنا يتّضح بأنّه خلاصة لتجارب الحياة، يوجّه الإنسان بها نفسه والمحيطين به.

ولقد ظهر هذا النّوع من الشّعر في الجاهلية، فكان الشّاعر في قومه الحكيم **الموجّه** إذ يستهلّ أغلب موضوعاته بالحكم أو ينتهي إليها، ومن جيّد الحكم الّتي قيلت في الجاهلية، قول حاتم الطّائي*عن البخيل الّذي يترك ماله إرثا حتى ّ للإبل:

يَرَى البَخِيلُ سبيل المَالِ وَاحِدَةً إنّ الجَوَادَ يَرَى في أَمْوَالِهِ سُبُلا
إنّ البَخِيلَ إِذَا مَاتَ يَتْبَعُهُ سُوءُ الثّنَاءِ وَ يَحْوِي الوَارِثُ الإِبِلا[2]

أمّا في الإسلام، فقد أسهم شعر الحكمة في نشر العقيدة، فكان الشّعراء ينشرون **المبادئ** الإسلامية عن طريق الوعظ والإرشاد في أشعارهم، مستمدّين ذلك من القرآن والسّنة، فهذا **أبو**قيس صرمة بن أبي أنس** **يوجّه** أبناءه ويعظهم بأن يحافظوا على صلة الرّحم وزيارة الأقارب، كما يوجّههم بالمحافظة على مال اليتيم فيقول:

يُنَنِي الأَرْحَامَ لا تَقْطَعُوهَا وَ صِلُوهَا قَصِيرَةً مِنْ طِوَالِ
وَاتّقُوا اللهَ في ضِعَافِ اليَتَامَى رُبَّمَا يَسْتَحِلّ غَيْرُ الحَلالِ

[1] مدخل إلى الأدب العربي، سليمان معوّض، ص 97.
* من شعراء الجاهلية اشتهر بجوده.
[2] ديوان أبي حاتم الطّائي، طبعة ليدن، 1982م، ص 39.
** شيخ كبير و لمّا قدم الرّسول صلّى الله عليه و سلّم أسلم و حسن إسلامه.

ثُمَّ مَالَ اليَتِيمِ لاَ تَأْكُلُـــوهُ إِنّ مَالَ اليَتِيمِ يَرْعَـاهُ وَالِـي[1]

ولقد تنوعت مواضيع الحكمة في العهود الّتي تلت صدر الإسلام، فها هو أفلح بن عبد الوهاب يعظ ويحث على طلب العلم في قالب حكمي، إذ يستهلّ قصيدته بالإشادة بالعلم كونه خالد لا يزول، حتىّ وإن مات صاحبه عكس الجاهل الّذي هو حيّ ميّت، فيقارن بينهما قائلا:

العِلْمُ أَبْقَى لِأَهْلِ العِلْمِ آثَـــارا رِبِكَ أَشْخاصَهُمْ رُوحًا وأَبكـــارَا
حَيِ إِنْ مَاتَ ذُو عِلْمٍ وَ ذُو وَرَعٍ مَا مَاتَ عَبْد قَضَى مِنْ ذَاكَ أَوْ طَارا
وَ ذُو حَيَاةٍ عَلَى جَهْلٍ و مَنْقَصَةٍ كَمَيّتٍ قَدْ ثَوَى في الرّمْسِ أَعْصَارَا
للهِ عُصْبَة أَهْلِ العِلْمِ إِنّ لَهُـــمْ فَضْلاً عَلَى النّاسِ غِيَابًا وَحضـــارَا
العِلْمُ عِلْم كَفَى بِالعِلْمِ مَكْرَمَـــةً و الجَهْلُ جَهْلَهى بِالجَهْلِ إِدْبارَا
العِلْمُ عِنْدَ اسْمِهِ أَكْرَمُ بِهِ شَرَفـا الجَهْلُ عِنْدَ اسْمِهِ أَعْظَمُ بِهِ عَارَا[2]

ثمّ يذكر فضل العلم ومكانة طلّابه إذ هم ورثة الأنبياء ومدادهم شبيه بدم الشّهداء، يقول:

يُشَرِّفُ العِلْمُ لِلإِنْسَانِ مَنْزِلـــة وَ يَرْفَعُ العِلْمُ لِلإِنْسَانِ أَقْـــــدَارا
لِلهِ درّ لَهُ فَضْل وَ لاَ أَحَـــدَ في النّاسِ يَدْرِي لِذَلِكَ الدّرِ مِقْدَارَا
لِلعِلْمِ فَضْل عَلَى الأَعْمَالِ قَاطِبَة عَنِ النّبِيّ رَوَيْنَـا فِيـهِ أَخْبَـــارَا
يَقُولُ طَالِبُ عِلْمٍ بَاتَ لَيْلَتَـــهُ في العِلْمِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ أَخْطَـــارَا
مِنْ عَابِدٍ سُنّةٍ للهِ مُجْتَهِـــــدًا صَامَ النّهَارَ وَ أَحْيَى اللّيْلَ أَسْهَـــارَا
وَ قَالَ إِنّ مِدَادَ الطّالِبِينَ عَلَـى يَاقُوتِهِمْ، وَ عَلَى القِرْطَاسِ أَسْطَـارَا
مِثْلَ دَمِ الشّهَدَاءِ المُكرَمِينَ لَهُمْ فَضْل فَأَكْرِمْ بِأَهْلِ العِلْمِ أَخْبَـــارَا
وَ قَالَ هُمْ يَرِثُونَ الأَنبِيَاءَ كَـــذَا فِيهِمْ رَوَيْنَا أحاديثا وَ أَخْبَـــــارَا[3]

[1] أدب صدر الإسلام، د. واضح الصّمد، ص 115 116.
[2] تاريخ المغرب الكبير، محمّد علي دبّوز، ج3،مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه،1963م،ص 376.
[3] نفسه، ص 376.

وبعد ذلك يحثّ على العلم بتوجيه طالبه إلى شدّ الرّحال والقيام بجولات علمية كما يدعوه إلى تحمل مشاق السّفر ومتاعبه، و مجالسة العلماء والفقهاء وملاطفتهم، إذ يقول:

اشْدُدْ إلى العِلْمِ حلا فوْقَ رَاحِلَـةٍ ... صِلْ إلى العِلْمِ في الآفاقِ أسْفَارَا
وَاصْبُرْ عَلى دلج الإعْسَاقِ معتسفا ... مهامهُ الأرْض أحْزَانا وَ أقْطَـــارَا
حَتّى تَزُورَ رِجَالاً في رِحَالِهِـــــمْ ... فَضْلاً فَأكْرِمْ بِأهْـــلِ العِلْـــمِ زُوّارَا
وألطف بِمَنْ أنتَ مِنْهُ العِلْمُ مُقْتَبِس ... جَدّدْ لَهُ كلّ يَوْمٍ مِنْـكَ إبْـــرَارَا[1]

وبما أنّ طالب العلم يجب أن يكون فاهما و مستدركا لما يكتب و يحفظ، يدلّه الإمام أفلح على الطّريقة المثلى الّتي تشرح قلبه وتيسر عقله موجّهه قائلا:

وَ أحْسِنْ الكشْفَ عَنْ عِلْمٍ تُطَالِبُهُ ... وألزم دِرَاسَتَهُ سِرا وَ إجهـــارا
لا تَكُنْ جَامِعًا للصّحُفِ تُخَزِنُهَا ... كالعِيرِ يَحْمِلُ بَيْنَ العِيرِ أسْفَارَا
نِعْمَ الفَضِيلَةِ نِعْمَ الذّخْرِ تُورِثُـــهُ ... لِنَفْسِكَ اليَوْمَ إنْ أحْسَنْتَ آثَارَا
وَ إنْ هَمَمْتَ بِخَيْرِ النّاسِ تُؤلفهُمْ ... أَلِفْتَ بِالعِلْمِ أبْرَارًا وَ أخْيَـــارَا[2]

ثمّ يحثّه على طلب العلم النّافع الّذي يعرّفنا بفرائض الدّين لنيل رضا الله:

فَاطْلُبْ مِنَ العِلْمِ مَا تَقْضِي الفُرُوضَ بِه ... وَ اعْمَلْ بِعِلْمِكَ مضْطَرا وَ مُخْتَارَا
واطْلُبْهُ مَا عِشْتَ في الدّنْيَا وَ مُدّتَهَا ... لِمَوْقِف العرض أن لا تورِدَ النّـــارَا
وَاجْعَلْهُ للهِ لا تَجْعَلْـــهُ مَفْخَـــرَةً ... وَ لا تُرَائِي بِهِ بَدْوًا وَ أحضـــارا[3]

فهذه القصيدة تدلّ على ثقافة أفلح بن عبد الوهاب وتشجيعه للعلم والحثّ عليه بطريقة حكمية توجيهية، وقد علّق رابح بونار عليها فقال: «إنها من نوع النّظم التّعليمي وفيها تعابير فقهية وضعف أسلوب، ولكنّها مع ذلك ثمرة جيّدة ونتاج مبكر لإنتاج عربي في جو بربري

[1] تاريخ المغرب الكبير، م س، ص 377.
[2] نفسه، ص نفسها.
[3] نفسه، ص نفسها.

متحكّم العجمة بعيد عن ملكة البيان العربي، وهي تمهيد لنتاج ناضج تعود فيه عبقرية بكر بن حماد لتيهرتي الزّناتي في النّصف الثّاني من القرن الثّالث الهجري»[1].

ومن بين الّذين نظموا أبياتا في شعر الحكمة ابن رشيق حيث يتحدث عن الإنسان الأناني الّذي لا يساعد الآخرين، إلاّ إذا أصيب هو بمصيبة فيكوى بالنّار، إذ يقول:

في النّاسِ مَنْ لا يُرْتَجَى نَفْعُهُ إلاّ إذَا مُسّ بِأَضْرَارِ
كالعُودِ لا يُطْمَعُ في طِيبِهِ إلاّ إذا أُحْرِقَ بِالنّارِ[2]

كما يتحدث عن خلاصة تجاربه في الحياة، ويصف نفسه بأنّه إنسان كريم سمح يده مبسوطة:

فَلَقَدْ حَكَمَتْ مِنَ التّجَا رِبُ كُلّ شَيْءٍ غَيْرَ جُودِي
أَبَدًا أَقُولُ لَئِنْ كَسَبْـ تُ لأُفِيضَنّ بِيَدَي شَدِيدِ
حَتّى إذَا أَثْرَيْتُ عُدْ تُ إلى السّمَاحَةِ مِنْ جَدِيدِ[3]

ومن حكمه أيضا، حديثه عن شقاوة العقل في مهنة الأدب ونظرة النّاس المتقلّبة للأديب، فإرضاء النّاس غاية لا تدرك، يقول:

أَشْقَى لِعَقْلِكَ أَنْ تَكُونَ أَدِيبَا أَوْ أَنْ يَرَى فِيكَ الوَرَى تَهْذِيبَا
مَادُمْتَ مُسْتَوِيا فَفِعْلُكَ كُلّهُ عِوَجٌ، وَ إنْ أَخْطَأْتَ كُنْتَ مُصِيبَا
كالنّقْشِ لَيْسَ يَصِحّ مَعْنَى خَتْمِهِ حَتّى يَكُونَ بِنَاؤُهُ مَقْلُوبَا[4]

[1] المغرب العربي: تاريخه و ثقافته، ص 112.
[2] ديوان ابن رشيق ، ص 80.
[3] نفسه، ص66 67.
[4] نفسه، ص 41.

ويفضّل ابن رشيق الإنسان الطّيب صاحب النّظرة المقطّبة على الإنسان الخبيث النّفس صاحب الابتسامة المزّيفة قائلا:

أُحِبُّ بَخِيلِي وَ إِنْ أَعْرَضْت عنه وَ قَلِيلٌ عَلى مَسَامِعِهِ كَلَامِي
وَلِي فِي وَجْهِهِ تَقْطِيبَ رَاضٍ كَمَا قَطَبَتْ فِي إِثْرِ المُدَامِ
وَ رُبَّ تَقَطُّبٍ مِنْ غَيْرِ بُغْضٍ وَ بُغْضٍ كَامِنٍ تَحْتَ ٱبْتِسَامِ [1]

ثمّ ينصح الإنسان ويوجّهه بأن يكون متسامحا غير ظالم مجتنبا كلام السّوء كافّا بصره عن المحرّمات فيستقيم، مصاحبا للنّبلاء فينال العلم الوفير وألاّ يبخل بماله وعلمه على النّاس فيشكرونه على سخائه وعطائه، إذ يقول:

خُذِ العَفْوَ وَائبَطْلِيمَ وَ اجْتَنِبِ الأَذَى وَ أَغْضِ تَسُد وَارفُقْ تَنَلْ وَاسْخُ تُحْمَدِ [2]

فتلك الحكم الّتي ذكرها ابن رشيق ناتجة عن خلاصة تجاربه وتفكيره الطّويل.

كما نجد ابن حمديس ينصح الإنسان بقول الحقّ لأنّ الصّدق أساس الحياة بينما الكذب يقتل صاحبه رويدا رويدا، فيقول:

سَارِعْ إِلى الحَقِّ وَ عَوِّلْ عَلَى قَوْلِ حَكِيمٍ بَارِعِ الحِكْمَةِ
إِنْ شِئْتَ أَنْ تَحْيَا فَكُنْ صَادِقًا فَإِنَّمَا الكَذَّابُ كَالمَيِّتِ [3]

ويوجّهه أيضا بأن يكون كلامه موزونا، ألفاظه عذبة، معانيه رقيقة، مضمونه جيّدا، فيصوّره أحسن تصوير وبذلك يكون محط إعجاب الجميع، يقول في هذه المقطوعة الشعرية:

زِنْ بَدِيعَ الكَلَامِ وَزْنًا مُحَرَّرْ مِثْلَ مَا يُوزَنُ النُّضَارُ المُشَجَّرْ
وَ تَكَلَّمْ بِمَا يَزِينُكَ فِي الحَفْـ ـلِ وَ تَغْنَى بِهِ عَلَاءً وَ مَفْخَرْ

[1] ديوان ابن رشيق م س، ص133- 134.
[2] نفسه، ص 64.
[3] ديوان ابن حمديس، ص63.

إنْ حُسْنَ الثَناءِ بَعْدَكَ يَبْقَى لَكَ لِلذِكْرِ مِنْهُ عَيْشٌ مُكَرَّرْ
رُوحُ المَعَجِ سْمُهُ مِنْكَ لَفْظ وَ عَلَى كُلِّ صورَةٍ يَتَصَوَّرْ
فَإِذَا مَا مَقَالُ عَلَيْكَ أَضْحَى ضَاعَ لَيْكَنْ مَقَالُكَ جَوْهَرْ[1]

ويتحدّث عن تجربته الشّعرية ملخّصا الأغراض الّتي طرقها فهو لم ينظم في الهجاء لأنّه من صفات الشّاعر السّليط اللّسان، ولكنّه نظم في المدح فكان جيّدا، أمّا الوصف حسنا والنّسيب كان مليحا و ذلك راجع لعفاف لسانه، فيقول:

يَقُولُونَ لِي لا تُجِيدُ الهِجَاءَ فَقُلْتُ :وَ مَا الأَجْدُ المَدِيحْ
فَقَالُوا لَكَ تَرْجُو الثَوَابَ وَ هَذَا القِيَاسُ لَعُمْرِي صَحِيحْ
فَقُلْتُ ضِغَانِي؟ فَقَالُوا حِسَان فَقُلْتُ نَسِيبِي؟ فَقَالُوا مَلِيحْ
فَقُلْتُ :إِلَيْكُمْ فَلِي حُجَّة وَلِلحَقِّ فِيهَا مَجَالُ فَسِيحْ
عَفَافُ اللِسَانِ مَقَالُ الجَمِيلِ وَ فِسْقُ اللِسَانِ مَقَالُ القَبِيحْ[2]

وإذا كان عدد الشّعراء الذين نظموا في هذا الغرض قليلا، إلا انهم اعطوا لنا فكرة عن شعر الحكمة الّتي كان نابعا من اختبارا تهم و تامّلاتهم و تجاربهم الخاصّة.

ومن خلال استعراضنا لهذه الأغراض الشّعرية، يتّضح أنّ الشّعراء الجزائريين لم يبتكروا غرضا خاصّا بهم وإنهم ساروا على درب من سبقهم، لكنّهم ابدعوا، و يجب التّنويه بأنّ الدّولة الرّستمية لها الحق في أن تفخر ببكر بن حمّاد، الّذيشرّق وغرّب بشعره، وكان سفيرا للعلاقات الثّقافية بين مختلف البلدان الإسلاميـة، وعدم تعصّبه المذهبي جعلـه ينحو منحى دينيـّا صرفا، فكان شاعر الزّهد والرّثاء بلا منازع، أمّا الفاطميون فقد نافح عنهم ابن هاني الأندلسي الّذي حمل معه شاعريته في غربته، وإن لم ينظم في جلّ الأغراض الشّعرية إلاّ أنّه كان مادحا من الدّرجة الأولى.

[1] دوانه م س، ص 173.
[2] نفسه، ص 78.

كما أنّ ابن رشيق المسيلي هو الآخر مثّل أواصر الثّقافة بين البلدان واستفاد كثيرا من رحلاته العلمية، وما نونيته في رثاء القيروان إلاّ دليل على ذلك، بحيث اعتبرت من أروع مراثي المدن.

وكان للحمّاديين الشّرف أن يستوطن بلادهم شاعر مثل ابن حمديس الصّقلي الّذي استطاع أن يفرض وجوده في الدّولة الحمادية، وتغنّ بجمال طبيعتها وعمرانها، فكان سيّد الوصف المبدع.

فهل أبدع الكتّاب الجزائريون مثلما أبدع الشّعراء ؟ هذا ما سنطرق له في الباب الثّاني.

الباب الثاني

النثر الجزائري القديم

من مطلع القرن الثّاني الهجري

إلى نهاية القرن الخامس الهجري

الباب الثاني:

النثر الجزائري القديم من مطلع القرن الثّاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري

الفصل الأوّل: فنّ الترّسل

الفصل الثاني: فنّ الخطابة

الفصل الثالث: فنّ الوصايا

الفصل الرابع: فنّ التّأليف

ممّا لا يختلف فيه اثنان، أنّ الكلام الّذي نتحدث به في حياتنا اليومية ونستعمله في لغة تخاطبنا كلّه منثور، ولذلك فإنّ النّثر الّذي نقصده في هذا الباب هو النّثر الفني الّذي يعبر به الكاتب أو الخطيب عمّا يختلج بنفسه من مشاعر وأحاسيس فيختار الألفاظ العذبة والعبارات الرّقيقة المعنى الّتي تحدث أثرا ووقعا في النّفوس، فيكون كلامه راقيا فنيا يصوغه في قالب أدبي متميّز من قبيل الرّسالة البليغة والخطبة المؤثرة و غير ذلك من الفنون النّثرية المعروفة.

ولقد عرّف شوقي ضيف النّثر بأنّه «الكلام الّذي لم ينظم في أوزان وقواف»[1].

وبهذا التّعريف فإنّ شوقي ضيف لم يخرج عن المفهوم الّذي وضعه القدامى ومؤرّخو الأدب إذ «قسّموا الكلام إلى منظوم ومنثور، وزعموا أنّ الكلام المنثور هو ما لم يتقيّد بالوزن والقافية، وأنّ المنظوم هو ما تقيّد بالوزن والقافية»[2].

وعلى هذا الأساس انقسم النّقاد والأدباء إلى قسمين متضاربين: مؤيدي الشّعر الّذين رفعوا من مكانته وقدره، ومعارضيه الّذين جعلوا الفضل كلّه للنّثر، واستندوا في ذلك إلى الأدلّة والبراهين من القرآن والسّنّة أحيانا، وإلى النّاحية الجمالية الفنية أحيانا أخرى.

فعلى سبيل المثال يقول ابن رشيق مفضّلا الشّعر: «كلّ منظوم أحسن من كلّ منثور من جنسه في معترف العادة، ألا ترى أنّ الدّر وهو أخو اللّفظ ونسيبه، وإليه يقاس، وبه يشبّه، إذا كان منثورا لم يؤمن عليه، ولم ينتفع به في الباب الّذي له كسب، ومن أجله انتخب،

[1] الفنّ و مذاهبه في النّثر العربي، دار المعارف القاهرة، ط9، 1946م، ص 15.
[2] من حديث الشّعر و النّثر، طه حسين، دار المعارف، ط2، 1199م، ص24.

وإن كان أعلى قدرا وأغلى ثمنا. فإذا نظم كان أصون له من الابتذال، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال»[1].

الملاحظ أنّ ابن رشيق أظهر إيثاره للشّعر ورفع من قيمته ضاربا المثل بالدّر الّذي لا يكون جميلا إلاّ إذا انتظم في العقد.

أمّا أبو حيّان التّوحيدي فيرجّح كفّة النّثر قائلا: «وسمعت أبا عابد الكرعني صالح بن علي يقول: النّثر أصل الكلام والنّظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل ولكن لكلّ منهما زائنات وشائنات، فأمّا زائنات النّثر فهي ظاهرة، لأنّ جميع النّاس في أوّل كلامهم يقصدونه و إنّما يتعرّض للنّظم فيثّالي بداعية عارضة، وسبب باعث، وأمر معين ّ »[2].

غير أنّ عبد الملك مرتاض يرى بأنّ: «الرّؤية الفقيتغير ّت رأسا على عقب، فإنّ المفاضلة تزول نهائيا بين الشّعر والنّثر ويغتدي لكلّ جنس منهما وظيفته التّبليغية ومكانته الفنية ضمن أشكال التّبليغ القائمة على التماسالجمال الفني ّ ابتغاء التّأثير في المتلقّين، بحيث نلقي الشّعر يستأثر بحقول لا ينبغي للنّثر التّطاول عليها، بلّه الاستنثار بها، كما أنّنا نجد النّثر يستبد بأجناس من التّعبير لا يتعلّق الشّعر بها»[3].

حقيقة أنّ لكلّ من الشّعر والنّثر خصائص فنية تميّز أحدهما عن الآخر، لكن تجمع بينهما الموهبة الفنية، والقدرة على إبداع النّصوص للتّأثير في نفوس المتلقّين.

[1] العمدة لابن رشيق، ج1، ص 16.

[2] الإمتاع و المؤانسة، مكتبة مشكاة الإسلامية، د ط، د ت، ص 244.

[3] الأدب الجزائري القديم، ص 81.

و بما أنّ النّثر لا يقل أهميّة عن الشّعر، والنّثر الجزائري جزء من النّثر العربي، فما هي أهم الفنون النّثرية الّتي حظيت باهتمام الأدباء الجزائريين ؟ وما هي المواضيع الّتي عالجوها؟ ذلكم ما سنتعرّض له في فصول هذا الباب.

الفصل الأوّل

فنّ التّرسل

تعد الرّسائل من أهم الفنون النثرية، كونها الوسيلة المثلى للاتّصال بين شخصين متباعدين «فهي مخاطبة الغائب بلسان القلم»[1] بحيث يعبرّ الكاتب عن مشاعره لمتلق حاضر ذهنيا، ويكون ذلك بأسلوب بيان منمّق تظهر فيه موهبة الكاتب ومقدرته على الكتابة.

ومن المعروف، أنّ الكتابة شاعت في صدر الإسلام، فبها جمع القرآن و الأحاديث النّبوية الشّريفة، ودوّنت الآثار الأدبية الّتي بقيت خالدة، كما أنّ حاجة الرّسول –صلّى الله عليه و سلّم لتبليغ القبائل والملوك بالدّعوة الإسلامية جعلته يستعين بكتّاب يكتبون له الرّسائل، ممّا يدل على أنّ فنالترّ سل يعد الخطوة الأولى في مجال الكتابة الفنية.

ولقد سار على خطى الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم الخلفاء الرّاشدون، ولمّا اتّسعت رقعة الدّولة الإسلامية وكثرت موارد الخلافة، كان من واجب الخلفاء إنشاء الدّواوين، إذ عني عمر بن الخطّاب بوضع ديواني الخراج والجيش.

فالظّاهر أنّ عمر بن الخطّاب هو أوّل من اهتم بالتّدوين، وعندما آل الحكم إلى بني أمية أنشأ معاوية ديوان الرّسائل لكتابة رسائل الخليفة إلى الولاّة و الأمراء، كما أضاف ديوان الخاتم الّذي كانت تختم فيه الرّسائل الصّادرة عن الخليفة حتىّ لا يطّلع عليها المرسل إليه.

وعادة ما تقسّم الرّسائل إلى رسمية تتناول شؤون الدّولة وسياسة الحكم ورسائل إخوانية يتبادلها الكتّاب والأصدقاء فتتباين موضوعاتها بتباين مناسباتها، فازدهر فنالترّ سل وتطوّر

[1] جواهر الأدب- أحمد الهاشمي، ج1 ، ص 45.

بفضل الدّين والتّأثّر بالثّقافات الّتي اقتبسها العرب من الأمم المفتوحة، إذ اختلفت أغراضه وتعددتموضوعاته ووضعت له أصول وقوانين، ونبغ كتّاب ساهموا في تطوير فن الترّسل من أمثال عبد الحميد*الّذي وضع للرّسائل أصولها وميّز فصولهاوأطال التّحميدات في أوّلها، و تبعه في ذلك كتّاب العصر العبّاسي، فكان لكل كاتب طبقته الخاصة به وتعددت مذاهب الكتابة، إلا انها بلغت اوجها في عهد ابن العميد**حتىّ قيل: «بدئت الكتابة بعبد الحميد و ختمت بابن العميد»[1].

فعلى الرّغم من شيوع الكتابة منذ صدر الإسلام، واستمرارها بعد عهد ابن العميد، فإنّ أهل البلاغة والأدب أقرّوا بفضل هذين الكاتبين لانهما دفعا بفن الترسل قدما إلى الأمام.

و ما يمكن قوله، هو أنّ الرّسائل تبوّأت في كلّ عصر مكانة خاصة لدى الكتّاب، فكانت لها خصائصها ومميزاتها الّتي جعلتها فنّا نثريا قائما بذاته.

و هنا يتبادر إلى أذهاننا سؤال هام وهو: هل اهتم الكتّاب الجزائريون قديما بفنالترّسل مثل المشارقة ؟ وما هي الموضوعات الّتي عالجوها ؟

ممّا لا شكّ فيه، أنّ فنّ الترسل حظي باهتمام كبير من قبل الأئمة الرّستميين، لحاجتهم إلى الاتصال بالاقاليم التي كانت تحت سيطرتهم و إصدار التّعاليم و الأوامر الخاصة بالدّولة، ولا يتم ذلك إلاّ عن طريق الرّسائل لبعد المسافة.

كما أنّ النّزاعات الّتي شهدتها الدّولة الرّستمية خصوصا في عهد عبد الوهاب كفتنة يزيد ابن فندين الّذي رفضولّي الإمام عبد الوهاب الحكم، و اشترط عليه ألاّ يقضي دون جماعة

*هو عبد الحميد بن يحي المعروف بالكاتب(132ه)

**هو أبو الفضل محمد بن الحسين العميد، كاتب العصر العبّاسي الثّالث و هو صاحب مذهب التّصنيع(360ه).

[1] النّثر الفنيّ في القرن الرّابع- زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1931م، ص 245.

معلومة، جعلت الكتّاب الجزائريين يراسلون إخوانهم المشارقة لاستشارتهم في الامر، ممّا يدل على أنّ كتابة الرّسائل لم تكن محصورة في الدّولة الرّستمية فحسب، وإنّما كان ذلك التّواصل حتىّ خارج الدّولة، إلاّ أنّ التّاريخ حفظ لنا النّزر القليل من تلك الرّسائل.

و فيما يلي جواب أهل المشرق لمعرفة ما تضمّنه ردّهم وللدّلالة على ذلك التّبادل الفكري و المعرفي بين دول المشرق و المغرب:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم، أمّا بعد، يا إخواننا قد بلغنا (من)قبلكم ما كتبتمونا من أمر الشّرط في الإمامة ألاّ يقضي أمر دون جماعة معلومة، فالإمامة صحيحة والشّرط باطل، فلو صح في الإمامة شرط، لما قام لله حق ولا أقيم له حد ولتعطّلت الحدود وبطلت الأحكام ولضاع الحق،والجماعة يتعذّر اتّفاقها على أنّ الإمام إن قدم إليه سارق، لا يصيب أن يقيم عليه الحد، فيقطع يده، حتىّ تحضر الجماعة، ولا يجاهد الإمام عدوّا، ولا ينهى عن فساد إلاّ بحضرة الجماعة المعلومة، فالإمامة صحيحة والشّرط باطل»[1].

فالمسلمون المشارقة أجابوا بصحّة الإمامة وبطلان الشّرط، كون الإمامة لا تبطل إلاّ بحدث في الإسلام مثل السّرقة والزّنى، كما أجازوا ولاية الإمامة لعبد الوهاب إن اجتمعت فيه صفات السّيرة الحسنة حتىّ ولو كان هناك من هو أعلم منه، وضربوا الأمثلة بالصّحابة والخلفاء مستشهدين بحديث الرّسول صلّى الله عليه و سلّم وذلك في قولهم:

«وأمّا ما ذكرتم من تولية رجل وفي جماعة المسلمين من هو أعلم منه فذلك جائز، إذا كان في القناعة والفضل بمنزلة حسنة، وقد وليّ أبو بكر الصّديق –رضي الله عنه و زيد بن ثابت أفرض منه، وعلي بن أبي طالب– كرّم الله وجهه أقضى منه، ومعاذ بن جبل–رضي الله عنه

[1] كتاب سير الأئمة و أخبارهم، أبو زكرياء، ص 91.

أعلم منه، وهذا ليس فيه اختلاف لقول رسول الله –صلّى الله عليه و سلّم (أفرضكم زيد، وأقضاكم علي، و أقراكم أبي، وأعلم أمّتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل) و قوله –صلّى الله عليه و سلّم (معاذ بن جبل سيّد العلماء)»[1].

فبهذا الجواب وليّ عبد الوهاب الحكم بعد والده، ممّا يدل على أنّه لا غنى لبني رستم عن العلاقات الخارجية وربط الصّلة مع أقوام وشعوب أخرى؛ ومن الرّسائل الّتي عثرنا عليها للأئمّة الرّستميين جواب الإمام عبد الوهاب على طرابلس بعدما بلغه نبأ وفاة السّمح بن عبد الأعلى واستخلاف البعض خلفا* فكتب إليهم هذه الرّسالة:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم.

أمّا بعدفإنيّ آمركم بتقوى الله العظيم، و الاتباع لما أمركم به والانتهاء عمّا نهاكم عنه، فقد بلغني ما كاتبتموني به من وفاة السّمح. واستخلاف البعض خلفا وردّ [أهل] الخير ذلك، فإنّ منليّ خلفا بغير رضا إمامه، فقد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى من توليته، فقد أصاب، فإذا أتاكم كتابي هذا، فليرجع كلّ عامل استعمله السّمح إلى عمله الّذي وليّ عليه إلاّ خلف بن السّمح، فحتىّ يأتيه أمري، وتوبوا إلى ربّكم وراجعوا التّوبة لعلّكم تفلحون»[2].

فالرّسالة بالرّغم من إيجازها فإنّها أدّت الغرض المقصود دون تكلّف ولا تصنّع، إذ ابتدأها بالبسملة والدّعوة إلى تقوى الله ليباشر في موضوعه الّذي هو خلع خلف بن السّمح معتبرا موالاته دون رضا عبد الوهاب إثما في حق المسلمين لما عرف عنه من أخلاق سيّئة، طالبا منهم التّوبة من هذا العمل الشّنيع الّذي قاموا به.

1كتاب سير الأئمة وأخبارهم،م س، ص 91 92.

*يلقبونه الخبيث بن الطيب.

2نفسه*، ص 120.

و الجدير ذكره، أنّ موضوعات عبد الوهاب كانت في أغلبها تدور حول شؤون الدّولة و ما يجري فيها من خلع عامل وتولية آخر، إذ كتب إلى أبي عبيدة* يأمره بالدّخول في أمور المسلمين قائلا:

«إن كنت ضعيفا في المال، فبيت مال المسلمين يغنيك، وإن كنت ضعيفا في البدن، فادخل في أمور المسلمين يقوي الله بدنك، وإن كنت ضعيفا في العلم، فعليك بأبي زكرياء بصلتين التّوكيتي**»[1].

إنّ سبب كتابة هذه الرّسالة أنّه لمّا توفي عامل عبد الوهاب أبو الحسن بن أيوب، اجتمع أهل نفوسة على تولية أبي عبيدة ووافقهم الإمام على ذلك، إلاّ أنّ أبا عبيدة رفض ذلك وقال لهم: "أنا ضعيف، أنا ضعيف، فلست أقدر على القيام بأمور المسلمين" فلمّا سمع الإمام بالخبر حلف بالعربية والبربر ية والحضرية ألاّ يقلّد أمور المسلمين إلاّ رجل يقول أنا ضعيف[2].

فالظّاهر أنّ الإمام عبد الوهاب تفطّن لرفض أبي عبيدة المسؤولية لا لهروبه منها وإنّما لورعه ألاّ يوفي المسلمين حقّهم، فرأى فيه الإمام عكس ذلك، و جعل لكلّ سبب نتيجة، إذ لا داعي للحجج، فالفقر غناه بيت مال المسلمين،والضّعف في البدن قوّته رعاية المسلمين و السير بهم سيرة حسنة، وقلّة درايته بأمور العلوم تصاحبها مجالسة أبي زكرياء بصلتين لتنمية رصيده العلمي والمعرفي.

وبهذا الجواب ولي أبو عبيدة، وكانت له القدرة على المسؤولية والقوّة في تسيير الأمور.

*هو أبو عبيدة عبد الحميد من أهل أجناون.

**كان عالما لكل الفضائل، و معلّما لكلّ ناهل.

[1]كتاب سير الأئمة و أخبارهم ،مس ، ص 124.

[2]ينظر نفسه، ص نفسها.

أمّا الرّسالة الثّالثة الّتي وقعت بين أيدينا للإمام عبد الوهاب فهي تختلف في موضوعها عن سابقتيها، إذ إنها رسالة وعظية دينية جسّد فيها مفاهيم الإسلام وقيمه وتحدّث عن أركانه و شرائعه قائلا:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم و صلّى الله على نبيّنا محمد و على آله و سلّم تسليما:

وهذه شريعة رسالة كتب بها عبد الوهاب بن عبد الرّحمن إمام تاهرت إلى أهل طرابلس:

أمّا بعد: فإنّ الإسلام شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمدا عبده ورسوله و الإقرار بما أنزل الله والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وصيام رمضان وحجّ البيت من استطاع إليه سبيلا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين وابن السّبيل وما ملكت اليمين، وغضّ البصر، وحفظ الفروج، وستر ما أمر الله به أن يستر و الاستئذان على أهل البيوت والنّكاح بالرّضا والفريضة بإذن الولي والشّهود ذوي عدل، و اتقاء المحيض والغسل من الجنابة وذكر اسم الله عند الذّبيحة وأداء الأمانة إلى جميع النّاس و التّعاون على البرّ والتّقوى والنّهي عن الفحشاء والمنكر والإثم والعدوان والتّوبة من الذّنوب والشّهادة لأهل الهدى بهديهم وولايتهم عليه، والشّهادة على أهل الضلاّلة بضلالتهم والبراءة منهم فمن أقرّ للمسلمين بهذا وجبت ولايته ومودّته والاستغفار له ووجب حقّه ما لم يحدث حدثا يخرجه من ولاية المسلمين»[1].

لقد أوضح الإمام عبد الوهاب في هذه الرّسالة لأهل طرابلس أركان الإسلام الخمسة ثمّ تطرّق للحديث عن المعاملة الحسنة الّتي نصّ عليها الإسلام، فمن التّعامل بين شتىّ أصناف البشر من بر الوالدين والرّفق باليتامى والمساكين وصيانة النّفس من المحرّمات كما تحدّث

[1] الإسلام و تاريخه من وجهة نظر إباضية، ابن سلاّم الإباضي، تح، ر، ف، شفارتز و سالم بن يعقوب، دار اقرأ، ط1، 1405هـ، 1985م، ص 107.

عن الأسس الّتي تنبني عليها العلاقة الزّوجية وفق الشّريعة الإسلامية والسّلوكات الّتي يجب أن يتّصف بها المسلم من حفظ الأمانة والتّعاون على أعمال الخير والابتعاد عن المنكرات، وختم رسالته بدعوتهم إلى موالاة أهل الهدى والبراءة من أهل الضّلالة.

وخلاصة القول، إنّ رسائل عبد الوهاب و جواباته امتازت بالإيجاز و الاختصار، فكانت موضوعاته واضحة مباشرة أدّت الغرض و أبلغت المقصود.

أمّا رسائل أفلح بن عبد الوهاب فقد كثرت بصورة ملفته للانتباه، و تباينت موضوعاتها بين الدّعوة إلى الدّين والنّصح والتّوجيه وبين الحديث عن شخصية نفاث المتمادية في العصيان و المنشقة عن طاعة الإمام.

و لابأس أن نورد بعض رسائله، منها رسالة كتبها إلى البشير بن محمدوهو أحد عمّاله، يقول فيها:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، من أفلح بن عبد الوهاب إلى البشير بن محمد، سلام عليك و إنيّ أحمد الله الّذي لا إله إلاّ هو، و أسأله أن يصلّي على سيّدنا محمد عبده و رسوله:

أمّا بعد:ألبسك الله عافيته فإنيّ أذكّرك عظمة الله لا تنساها، و فكّر في صغر خلقك، و في عظيم ما خلقه الله، وما جعله من النّكال والعذاب لابن آدم، وما عافى به من فاز برحمته من عظيم خلقه، من السّماوات والأرض و الجال والشّجر، وأذكّرك ما أعدّه الله لابن آدم

من الكرامة الّتي تكل الألسن عن وصفها، فلو لم تكن كرامة تطلب إلاّ النّجاة من جهنّم، لكان ذلك ما ينبغي للعبيد أن يتّصفوا من أنفسهم ويفارقوا جميع الّلذات»[1].

لقد استهلّ الكاتب رسالته بالبسملة والحمدلة والصّلاة والتّسليم على الرّسول صلّى الله عليه و سلّم كما ذكر اسم المرسل إليه داعيا له بالصّحة و اعظه بالتّدبر في عظمة الخالق، و التّأمل في ملكوت الكون، مذكّره بنعم الدّنيا الزّائلة لأنّ المنغمس فيها يكون مصيره جهنّم.

و بما أنّ الخيط النّاسج لهذه الرّسالة هو الوعظ والإرشاد، فإنّ أفلح ينصحه بالترّفع عن الدّنايا ولا يكون ذلك إلاّ بالتّمسّك بحبل الله المتين والتّضرع له بالدّعاء، إذ يتّضح ذلك في قوله:

«إلاّ أنّني أقول لك إنّ الدّواء في هذا هو الاستعانة إلى الله في العصمة، فمن أراد به الإحسان عصمه وجعله من أوليائه الّذين قال لإبليس فيهم: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً**﴾[2] فاطلب الله وارغب إليه في العصمة والتّوفيق، ومن أن يحول بينك وبين عدوّك واعلم أنّه لا شيء لمن عقل خير ممّن وعظه، ومن موعظة يأخذها فأقبل و اجتهد في القبول»[3].

كما يفهم من الرّسالة أنّ البشير بن محمد طلب من الإمام أن يجعل له نصيبا من أموال المسلمين، إلاّ أنّ الإمام أجابه بأنّ تلك الأموال ملك الدّولة ولا يمكن الأخذ منها فرفض طلبه

[1] الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، سليمان بن عبد الله الباروني باشا، ج2، دار البعث للطباعة و النّشر قسنطينة، الجزائر، ط2، 1423هـ 2002م، ص 245.

[2] سورة الإسراء، الآية (65).

[3] الأزهار الرياضيّة، ، ص 245.

بكلّ حزم، ممّا يدل على ورع أفلح وحفظه لأمانة المسلمين، بل أمر ه بتقوى الله والاجتهاد في العمل واتّباع سيرة السّلف الصّالح، ويظهر ذلك كلّه في قوله:

«وأمّا ما ذكرته من أن أجعل لك سبيلا، وأطلق يدك وأنّ الحاضر يرى ما لا يراه الغائب، فلعمري إنّه كذلك، ولكن ليس في هذا إنّما هي أسهم جعلها الله وأوقفها، وهي وسخ أموال النّاس، وليس لنا فيها قضاء، ولا زيادة ولا نقصان ولا امر ولا نهي، إلا على قدر الاجتهاد، فاتّق الله و اجتهد في توفير الحقوق وتوجيهها إلينا، على هذا مضى من كان قبلك .....إلخ»[1].

يبدو أنّ هناك فقرات سقطت من النّص، فعبارة إلخ تشير إلى ذلك.

وقد كتب رسالة أخرى إلى شخص لم يذكر الباروني اسمه، افتتحها بالبسملة والصّلاة والتّسليم على الرّسول –صلّى الله عليه و سلّم و الدّعاء له و للمرسل إليه قائلا:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله، أمّا بعد، عافانا الله وإيّاك عاقبة المتّقين الّذين أنعم الله عليهم بطاعته وهداهم إلى ما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب»[2].

ثمّ تطر ق إلى موضوعه الّذي هو الإيصاء بتقوى الله و طاعته والتّوكل عليه فقال واعظا نفسه و المرسل إليه:

«كتبت إليك ومن قبلي في عافية والله لا شريك له، أحببت أن أعلّمك ذلك بالكتابة به إليك لتحمد الله على ذلك وتشكره كما هو أهله وأوصي نفسي وإيّاك بتقوى الله ولزوم طاعته

[1] الأزهار الرياضية، م س، ص 245.

[2] نفسه ، ص نفسها.

والتّوفي على دينه والتّوكل عليه، وحده لا شريك له فإنّه عزّ وجلّ يقول﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يجْعَلْ لَهُ مَخْرَجا وَيَرْزُقه مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِ وَمَنْ يتَوَكَّل عَلَى اللهِ فَهُ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَاللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[1]»[2].

ويصر أفلح على ضرورة التّمسّك بالتّقوى لإثارة مشاعر المرسل إليه من أجل الاستعداد للآخرة والفوز بالجنّة، كما ينصحه بالصّبر على المكاره فذلك من عزم الأمور، إذ يقول:

«فالزم التّقوى نفسك واشعرها قلبك واصبر على ما أصابك إنّ ذلك لمن عزم الأمور و التّقوى من الله بمكان عظيم والمتّقون هم الفائزون، خلصوا من هموم الدّنيا وأشغالها ونجوا من عذاب الآخرة ونكالها»[3].

ولاستمالة القارئ أكثر، نجد الإمام انتقل من ضمير المخاطبة "أنت" إلى ضمير الجمع "أنتم"للتّأكيد على فكرة التّقوى بالترّغيب في الآخرة ونيل الثّواب والتّحذير من الدّنيا الخدّاعة مصدر الغواية والضّلال مع ضرورة التمسك بسيرة الماضيين من السّلف الصالح أهل البصيرة والدّين، فقال مرغّبا ومرهّبا:

«فمهّدوا لأنفسكم وقدّموا لمعادكم واعملوا عملا يسرّكم غدا مكانه فكأنيّ بكم وقد فارقتم الدّنيا ولحقتم بالموتى وعليكم بالتّمسّك بما مضى عليه سلفكم الصّالح أهل الفقه واليقين والبصيرة في الدّين نظروا إلى الآخرة فهان عليهم فراق الدّنا وما فيها فلا تغرنكم فإنها فانية

[1] سورة الطّلاق: الآيتين (2) و (3).
[2] الأزهار الرياضية، ص 245.
[3] نفسه، ص 246.

زائلة فكأنّنا وإيّاكم فقد فارقناها فوقفنا بين يدي الله تعالى فيجزي الّذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الّذين أحسنوا بالحسنى»[1].

ثمّ ختم رسالته بالدّعاء له وللمرسل إليه بأن يملأ الله قلبيهما بالتّقوى و طاعة الله الواحد و الحوقلةوالصّلاة والتّسليم على الرّسول –صلّى الله عليه و سلّم قائلا:

«عصمنا الله وإيّاكم بالتّقوى ورزقنا العمل بطاعته فإن ولى ذلك ومنتهى الرّغائب لا شريك له ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى صحبه وسلّم»[2].

فهاتان الرّسالتان كانتا بمثابة موعظتين خاطب بهما الكاتب العقل بأفكار دينية قوامها التّرغيب في الآخرة وإلزامية التّمسّك بتقوى الله والابتعاد عن شهوات الدّنيا بردع الأهواء، و بذلك برزت ملامح شخصية أفلح المتشبعة بالنّزعة الدّينية.

ومن المواضيع المهمّة الّتي عالجها أفلح واستقطبت اهتمامه قضية نفاث ابن نصر، فكان الإمام يراسل العمّال والمسلمين بشأن هذه الشّخصية أحيانا، و يراسل نفاث أحيانا أخرى، ونكتفي بإيراد الرّسالة الّتي بعثها إلى نفاث شخصيّا لأنّها خلاصة لتلك الرّسائل المتعلّقة بهذه الشّخصية المتمردة عن الطّاعة. يقول فيها:

«من أفلح بن عبد الوهاب إلى نفاث بن نصر.

أمّا بعد: فالحمد لله المنعم علينا والمحسن إلينا الّذي بنعمته تتم الصّالحات و لا يهتدي مهتد إلاّ بعونه وتوفيقه فله المنّة علينا ولا منّة لنا عليه وهو المحسن إلينا إذ هدانا لدينه و جعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصّالحين وأئمّتنا المهتدين الّذين في اتّباعهم نرجو الهدى وفي مخالفتهم

[1] الأزهار الرياضية، م س ،ص 246.

[2] نفسه، ص نفسها.

نخشى الهلكة، ولن يهتدي من خالف العدل، ولن ينجو من ابتدع غير الحقّ لأنّ تلك البدعة ضلالة، وكلّ ضلالة كفر وكل كفر في النّار»[1].

إنّ الملفت للانتباه أنّ هذه الرّسالة لم يستهلّها أفلح بالبسملة والتّسليم والدّعاء على خلاف الرّسالتين السّابقتين واكتفى بالحمدلة وذكر نعم الله على خلقه، فلعلّ ذلك راجع إلى غضب أفلح الشّديد على نفاث بسبب عدم مبالاته بتلك الرّسائل الّتي كان يكتبها له وينصحه فيها بالعودة إلى جادّة الصّواب، ممّا اضطر الإمام إلى مراسلة عمّاله يأمرهم بخلع كلّ الطّاغيين المتحاملين على مبادئ الدّولة، ويتّضح ذلك في قوله:

«وقد كتبت إليك غير كتاب أنصح لك فيه، وأدعوك إلى رشدك، وفي كلّ ذلك لا يبلغني من عمّالنا فيك إلاّ ما أكره ولا أرضاه لدين ولا دنيا، حتّى حرّرت كتابا منشورا إلى عمّالنا امرهم فيه بخلع كلّ من خالف سيرة المسلمين و ابتدع غير طريقهم، وسار بغير سيرتهم، و بنفيه وهجره وإقصائه»[2].

و يبدو جليا أنّ هذه الرّسالة جاءت ردّا على جواب نفاث الّذي أثار فيه السّخط على قرار الإمام المتّخذ في حق الخارجين عن السّلطة، فأجابه الإمام بأسلوب السّياسي المحنّك المدافع عن مبادئدولته مؤكّدا له البراءة من كلّ متمرّد طاغ بما فيهم نفاث، وذلك في قوله:

«كتبت إليّ كتابا كأنّك تسخط ذلك أترى أنيّ أؤازر من ابتدع في ديننا كلاّ ما كنت بالّذي يفعل ذلك، ولا أؤازر من يسعى في مخالفتنا ما كنّا على الهدى، ثمّ قلت: إنّا أمرنا

[1] الأزهار الرّياضية، م س، ص 264.

[2] نفسه،ص نفسها.

في كتابنا بالبراءة منك، فإن كنت كما كتب به إلينا عمّالنا، فأنت محقوق بالبراءة ومقصيّ من جماعتنا، لأنّنا ما كتبنا كتابنا ذلك إلاّ على كلّ من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا، وزعم أنّ عمّالنا اساقفة، وانهم لا طاعة لهم في حال كتمانهم، فهو محقوق بالبراءة ومقصيّ من جماعة المسلمين»[1].

ثمّ يتوعده بالعقاب والبراءة منه في حال انشقاقه عن الطّاعة ويعده باحتلاله المكانة العالية و المنزلة الرّفيعة في حال إثباته عكس ما قيل عنه، فيقول متوعدا و واعدا:

«فإن تكن أنت منهم، فأنت الّذي أبحث لنا البراءة منك، وأحللت بنفسك، ما لابد أن نفعله بك وبغيرك، وإن لم تكن كذلك فأظهر الانتفاء من ذلك وكذّب عن نفسك ما قيل عنك، لتكون عندنا بالحالة الّتي تستحقّها و تستوجبها»[2].

فالظّاهر أنّ أفلح كان يشك في إيمان نفاث، كما طلب منه أن يحدّد له غايته من تلك المراسلات في قوله:

«فجعلت تكتب إلينا فيما ليس لك به كتاب، فعلام تتجاهل الأمور فإن كانت غايتك إنّما هي أن نكتب إليك و تجيب، وتكتب إلينا ونجيب، فهذه غاية قصيرة والسّكوت عنك أهنأ و أولى بنا، ونحن بما منّينا به أحق من مجاوبة أهل التّكلف ومن ليس له غاية إلاّ أن يقال فيه: كتب فلان وقال فلان، ويفعل فلان»[3].

[1] الأزهر الرياضية، م س ، ص 264.

[2] نفسه، ص نفسها.

[3] نفسه، ص 265.

فالإمام أراد أن يضع حدّا للترّاسل، إن كانت غاية نفاث مجرّد الكتابة والتّسلية لإثارة غضبه دون الانقياد لأوامره، أمّا إذا كانت غايته تبرئة نفسه من الادّعاءات فلا بأس من الانضمام إليهم، إذ يقول:

«وإن كانت غايتك التّصحيح، فانف عن نفسك ماروي عليك وكن من جماعتنا و موافقي أسلافنا، فإذا تبيّنت الموافقة والانتفاء بما روي عليك، كان ذلك الّذي نحبّه منك ومن غيرك، وليس لك عندي غير هذا»[1].

فالكاتب أمر نفاث بأن يسلك أحد الاتّجاهين لا ثالث لهما، كما يتوعده بأن تكون هذه الرّسالة آخر رسالة يكتبها له إذا لم يتب من اعتقاداته الباطلة، لأنّ زمن الكتابة انتهى عند أفلح و لم يبق إلاّ التّهديد والعنف، ويظهر ذلك في قوله:

«وإن يكن حقّا ما روي عليك وما قيل فيك من مخالفة أصحابنا، فأنت وما رضيت به لنفسك، وإنيّ غير كاتب كتابا بعد هذا إلاّ أن انتهى إلينا منك ما نحبّه، فننزلك من أنفسنا بحيث نحب، والله المستعان، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم»[2].

والمستنتج من الرسالة أنّ الإمام أفلح بناها على الملاينة والهدوء تارة وعلى الشدّة والترّهيب تارة أخرى.

كما يتّضح ، أنّ فعل الكتابة كان موجودا بكثرة في العهد الرّستمي، فكانت المراسلات بين الإمام والعمّال ومن المفترض أنّها تودلت الرّسائل فيما بينهم أو مع غيرهم، إلاّ أنّه للأسف الشّديد ضاعت تلك الرّسائل.

---

[1] لأزهار الرياضية،م س ، ص 265.

[2] ا نفسه ، ص نفسها.

أمّا فيما يخصّ رسائل أفلح فاتّسمت بالسّهولة والوضوح، وغلب على أسلوبها التّأثّر الدّيني والسّياسي.

وآخر رسالة أوردها الباروني للأئمة الرستميين، رسالة محمد بن أفلح إلى جميع رعاياه، والتي يجري موضوعها حول الوعظ والإرشاد والنّصح، فكانت امتدادا لرسائل الأب، وممّا ورد فيها بعد البسملة والحمدلة والصّلاة والسّلام على الرّسول –صلّى الله عليه و سلّم :

«فإنّ أفضل ما يتواصى به العباد ويتحاضوا عليه تقوى الله تعالى، ولزوم طاعته، والزّجر عن معصيته، والترّغيب فيما يورث التّواب من القول الطّيب و العمل الصّالح، وعليكم معاشر المسلمين بالتّهيؤ للقدوم على الله، والتّأهب والاستعداد ليوم تشخص فيه الأبصار، وتتغيرّ فيه الألوان، ويشيب فيه الولدان و﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ و تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى و مَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ**﴾[1]»[2].

لقد عمد أبو اليقظان إلى الإيصاء بتقوى الله وضرورة التّمسك بطاعته وحذّر من غضبه وعصيانه فحثّ رعاياه على تجهيز أنفسهم للآخرة مرهّبهم من هول يوم القيامة، بتوظيف الآية الدّالة على ذلك لإلهاب مشاعرهم والتّأثير فيهم، وبما أنّه في مقام النّاصح الرّاشد فها هو يدعوهم إلى التّمسك بالدّين ويحفّزهم على طلب العلم ليرصدوا أنفسهم ويحتسبوها من أجل الدّفاع عنها ضدّ الّذين عدلوا عن منهاج الرّسول –صلّى الله عليه و سلّم ومنهاج أهل الدّعوة من أئمّتهم، فيقول واعظا محفّزا:

---

[1] سورةالحج:الآية 2

[2] الأزهر الرياضية، م س ص 142.

«واعلموا رحمكم الله أنّ أهل العلم بالله القائمين بهذه الدّعوة قد انقرضوا وقلّت الخلوف منهم، فرحم الله امرءا مسلما احتسب بنفسه وأرصدها لله في طلب العلم، والنّقض على من حاد الله وعدل عن منهاج رسول الله –صلّى الله عليه و سلّم– وضاد المحقّين من عباده، حتىّ تكون كلمة الله هي العليا والباطل زهوقا»[1].

ثمّ يأمرهم بإلزامية التّمسك بما مضى عليه السّلف والأئمّة الإباضيون ويدعوهم إلى السّير على طريقهم ويحذّرهم من الخروج عن طاعتهم طالبا منهم اتّباعهم ومخالفة المتمردين الضّالين قائلا:

«وعليكم معشر المسلمين باتّباع الماضين من أسلافكم، والمتقدّمين من أئمّتكم الصّالحين من أهل دعوتكم، فاقتفوا آثارهم، واهتدوا بهداهم واحذروا الزّيغ عن طريقهم و الميل عن منهاجهم، وخالفوا أهل البدع المضلّة والأهواء المزلّة، ممّن أراد أن يبدّل دينكم ويلبسكم شيعا...»[2]

وختم رسالته بالتّوكل على الله وطلب التّوفيق منه –جلّ و علا– .

فهذه الرّسالة ارتكزت على فكرتين محورتين أولاهما الدّعوة الدّينية و الحرص على العمل بتلك المواعظ، إذ ظهر محمد بن أفلح واعظا ناصحا، و ثانيهما الدّعوة السّياسية بحثّ رعاياه بما لهم من واجب إزاء دولتهم ومحاربة المخالفين، فكان آمرا محذّرا، و بذلك عالج موضوعه بأسلوب الدّاعي الدّيني والسّياسي المحنّك.

[1] الأزهار الرياضية، م س، ص 143.

[2] انفسه،ص نفسها.

والجدير بالملاحظة، أنّ رسائل بني رستم في حدود ما عثرنا عليه من نصوص، غلب عليها الخطاب النّثري والمرجعية الدّينية وذلك راجع إلى أثر الفتوحات الإسلامية الّذي كان راسخا في النّفوس، فكتبت بأسلوب يساير العصر ويواكب الظّروف.

ومن الرّسائل الّتي كتبت في القرن الرّابع الهجري رسالة أبي العبّاس فضل بن نصر التّاهرتي الّتي كانت جوابا على رسالة بعثها إليهصديقه ليعزيه في ابنه،وقد تضمّنت مايلي:

"وصل كتابك فجدّد شوقا إلى رؤيتك، وهيّج صبابة إلى الاجتماع بك، وخيّل إليّ على شحط الدّيار وبعد المزار شخصك، وصوّر لي على نأي المساوف بيني وبينك مثالك"[1].

المستقطب للانتباه،أنّ أبا العبّاس كثير الاشتياق لصديقه، فبمجرّد أن وصلته الرّسالة تدفّقت عليه عبارات الشّوق المنبعثة من عاطفة صادقة الإحساس، كيف لا ؟ وقد تخيّل صديقه أمامه بالرّغم من بعد المسافة وتمنّى لقاءه في تلك اللّحظة، ثمّ وقف وقفة المتأمّل على ما وعظه صديقه به من التجلّد بالصّبر لفقدان ابنه و بما أنّ صديقه كان في مقام المواسي، استشهد له بأبيات بكر بن حماد الدّالة على الصّبر عند المصيبة. ويتّضح ذلك في قوله:

"ووقفت على ما وعظت به وعزّيت عليه، فنبه من غفلة وأيقظت من رقدة، وذكرت قول بكر بن حماد في ولده:

وَ هَوِّنْ وَجْدِي أَنَّنِي بِكَ لاَحِقٌ وَ أَنَّ بَقَائِي فِي الحَيَاةِ قَلِيلُ
وَ أَنْ لَيْسَ يَبْقَى لِلْحَبِيبِ حَبِيبُهُ وَ لَيْسَ بِبَاقٍ لِلْخَلِيلِ خَلِيلُ
وَ لَوْ أَنَّ طُولَ الحُزْنِ مِمَّا يَرُدُّهُ لَنَادَمَنِي حُزْنٌ عَلَيْهِ طَوِيلُ
بَلْ رُبَّمَاتْ عَلَى القَلْبِ لَوْعَةٌ يُفَرِّجُهَا صَبْرٌ هُنَالِكَ جَمِيلُ"[2]

[1] رياض النّفوس، المالكي، ج2، ص 420.
[2] نفسه، ص 420 421.

وبعد هذا التّأمل، يجيب صديقه بعاطفة مجروحة بألم الفراق مليئة بالحزن، فهو لا يستطيع الصّبر لأنّه لا يعرف سبب وفاة ابنه ولا مكانه، متأثّرأبيات بكر بن حماد الّتي تعبرّ عن حالته قائلا:

«غير أنّني يا أخي، إذا فكّرت في أوّل هذا الشّعر لم أملك عبرا، ولم أجد صبرا، وهو قوله:

تَبَدَّدْ مَا قَدْ كَانَ مِنْكَ مُجَمَّعَـا وَ جَلَّلَهُ رَمْل عَلَيْـهِ مَهِيـــــلُ

فلاَ عَلَم يُنْبِيكَ أَيْـنَ مَحَلّـــهُ و لا جَدَتيَشْفِـي عَلَيْهِ غَلِيـلُ

خَلاَ أَعْظُمٍ قَدْ بَدَتْ وَ مَفَاصِلٍ تَمِيلُ [بِهَا] الأَرْيَاحُحَيْثُ تَمِيلُ»[1]

فهذه الرّسالة عالجت موضوعا أدبيا بحتا، ممّا يدل على أنّ فنالترّسل بدأ يزدهر ويتطوّر حتىّ بلغ أوجه في نهاية القرن الرّابع الهجري وبداية القرن الخامس الهجري وما رسالة ابن الرّبيب إلى أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم إلاّ دليل على ذلك، إذ يقول فيها:

«إنّي فكّرت في بلدكم أهل الأندلس، إذ كان قرارة كلّ فضل، ومقصد كلّ طرفة، ومورد كلّ تحفة، إن بارت تجارة أو صناعة فإليكم تجلب، وإن كسدت بضاعة فعندكم تنفق، مع كثرة علمائه ووفور أدبائه، وجلالة ملوكه، ومحبّتهم للعلم وأهله، ورفعهم من رفعه أدبه، وكذلك سيرهم في رجال الحروب يقدّمون من قدّمته شجاعته وعظمت في الحروب نكايته، فشجع عندكم الجبان، وأقدم الهيبان، ونبه الخامل، وعلم الجاهل...»[2]

[1] رياض النفوس،م س، ص 421.

[2] الذّخيرة، ابن بسّام الشستريني، ق1 ، مج1 ، ص 433 134.

استهلّ الكاتب رسالته بالثّناء على الأندلس فوصفها أحسن وصف، ذاكرا مناقبها و فضلها على جميع الميادين العلمية والأدبية والحربية والاقتصادية... وهلمّ جرّا، مادحا أهلها فتأنّق في أسلوبه واستعمل عبارات الثّناء، فجاءت أفكاره بيّنة الغرض.

و بعد هذا الوصف المبدع للأندلس بلد العلم والعلماء يصف تقصير أدبائها وتفريطهم في تدوين مآثر بلدهم ضاربا المثل بعلماء الأمصار الّذين دوّنوا كتبا بقيت خالدة، فيقول:

«وتنافس النّاس في العلوم، ثمّ مع ذلك هم في غاية التّقصير ونهاية التّفريط، من أجل أنّ علماء الأمصار دوّنوا فضائل أعيانهم وقلّدوا الكتب مآثر أقطارهم، وأخبار الملوك والأمراء، و الكتّاب والوزراء، والقضاة والعلماء، فأبقوا لهم ذكرا في الغابرين ولسان صدق في الآخرين»[1].

ويواصل مؤكّدا فكرة التّفريط والتّقصير، معاتبا ولائما زميله على تكاسل الأدباء الأندلسيين بل إهمالهم الكتابة عن فضائل ملوكهم واعلام بلدهم وبلاغة كتّابهم وسير وزرائهم وعدل قضاتهم، فيقول بأسلوب غلبت عليه المبالغة أحيانا:

«وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم، كلّ امرئ قائم في ظلّه لا يبرح، وثابت على كعبة لا يتزحزح، يخاف إن صنف أن يعنف أو تخطفه الطير او تهوي به الرّيح في مكان سحيق، لم يتعب نفسا أحد منهم في مفاخر بلده، ولم يستعمل نقسا في فضائل ملوكه، ولا بلّ قلما بمناقب كتّابه ووزراءه، ولا سوّد قرطاسا بمحاسن قضاته وعلمائه، على أنّه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه، و بسط ما قبض الإهمال من بيانه، لوجد للقول مساغا...»[2]

[1] الذخيرة،م س، ص 134.
[2] نفسه، ص 135.

وفي موضع آخر، ينفي ابن الرّبيب ادّعاء أبي المغيرة بتأليف الأندلسيين للكتب ولم تصل، مفسّرا ذلك بقرب المسافة كونهم على بيّنة بأخبار الأندلسيين، فلو ألفّوا الكتب لتلقوها بصدر رحب مثلما تلقوا كتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه، إذ يقول موضّحا:

«فإن قلت: إنّه كان ذلك من علمائكم، وألفّوا كتبا لكنّها لم تصل إلينا فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق، لأنّه ليس بيننا وبينكم إلاّ روحة راكب، أو دلجة قارب، لو نفث ببلدكم مصدور، لأسمع ببلدنا من في القبور، فضلا عمّن في الدّور والقصور، وتلقوا قوله بالقبول، كما تلقوا ديوان ابن عبد ربّه منكم الّذي سمّاه بالعقد»[1].

ثمّ نلاحظ وجود نقد لاذع لابن عبد ربّه وكتابه العقد الفريد، فهو يرى بأنّه ألّف كتابه لجمع آداب المشارقة ولم يعط الأندلسيين حقّهم المستحق في الكتاب إلاّ ما كان من تمثّله ببعض أشعارهم، فيقول معاتبا و معارضا:

«على أنّه يلحقه فيه بعض اللّؤم، إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده و مناقب ملوكه يتيمة سلكه لكنّه أكثر وطوّل، وأخطأ المفصل، وأطال الهز بسيف غير مقصل، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيهم وإغفال ما يهمّهم»[2].

ويختم رسالته طالبا من أبي المغيرة أن يزيل عنه حيرته إن كان عنده الحل قائلا:

«فأرشد أخاك، أرشدك الله، إن كان عندك في ذلك الجلية وبيدك فصل القضية، إن شاء الله»[3].

---

[1] الذخيرة،مس،ص 135.

[2] نفسه، ص نفسها.

[3] نفسه، ص 136.

فأجابه أبو المغيرة برسالة حذف ابن بسّام أكثر فصولها، لكن نكتفي بذكر شهادة أبي المغيرة على هذه الرّسالة الأدبية قائلا: «فوقفت على الصّحيفة الّتي ظاهرها ديباج مرقوم، وباطنها لؤلؤ منظوم و وشي محوك، وذهب مسبوك فرأيت صور الأدب باهرة المرأى والعيان، شاهدة لك بأذلق لسان، وأصدق بيان أنّك أبو عذرتها، ومالك جملتها، وواحد فنونها، ووارد معنيها»[1].

فهذه الشّهادة الصّادرة عن أديب أندلسي له باع في الأدب العربي و المتمثّلة في ذلاقة اللّسان وحسن البيّاجة وقوّة البيان وسيطرة الصّنعة كلّها خصائص الرّسلة الأدبية الرّاقية توحي بأنّ فنّ الترّسل الجزائري بلغ ذروته و تدل على أنّ الجزائر أنجبت كتّابا بلغاء.

كما تدل هذه المراسلات على ذلك التّبادل الفكري المعرفي بين البلدين، وأنّ سمات الأدب بينهما مشتركة استمدّت خصائصها من المشرق العربي منبع الأدب والأدباء.

أمّا العصر الحمادي فقد زخر بكتّاب جادت أقلامهم بالكتابات النّثرية للرسائل السّلطانية من أجل تنظيم الشّؤون المتعلّقة بالدّولة، والإخوانية لتبادل الشّكر والعتاب والتّعزية لأنّ الدّولة كانت بحاجة إلى ذلك، وفي هذا الصّدد يقول محمد أبو رزاق: «احتياج الدّولة إلى الكتابة في مثل هذه الموضوعات لتسيير شؤونها، يستوجب انتخاب كتّاب نبهاء ذوي مروءة وحدق، إن كانوا موجودين في الأمّة، وهذا أمر متوقّع إبّان نشأة دولة بني حماد، لأنّهم لم يستقدموا كتّابا، فيما علم عنهم لأنّ مملكتهم كانت مزدهرة بالعلوم والآداب، و فيها فقهاء و أدباء»[2].

[1] الذخيرة،م س، ص 136.

[2] الأدب في عصر دولة بني حمّاد، ص 173.

غير أنّه للأسف الشديد، اكتفت المصادر بالإشارة لتلك الرّسائل دون تدوينها، مثل رسالة النّاصر بن علّناس إلى جريجوار السّابع و الّتي لم يحفظها لنا التّاريخ بالرّغم من أهميتها، إلاّ أنّ للمصادر تطرّقت إلى جواب جريجوار السّابع للمتضمّن سبب بعث النّاصر تلك الرّسالة والمتمثّل في طلب تعيين قس على الكنيسة، وإخباره بإطلاق سراح المسيحيين وصحب مع تلك الرّسالة هدايا، فشكره الجريجوار على عمله وهداياه و اعترف له بالفضل والمحبّة، كما عبرّ عن احترامه لحرية الأديان بين المسلمين و المسيحيين[1].

و قد قال محمد طمار عن رسالة الجريجوار: «**إنّا تعد أهم رسالة من باباوات روما** إلى ملوك **المغرب**»[2].

كما علّق توماس لاتري الّذي ترجم جواب الجريجوار من اللاّتنية قائلا: «**ربّما لم يعلن قط** أحد رؤساء الكنيسة في التّاريخ عطفه ومحبّته لأمير مسلم مثلما فعل جريجوار السّابع»[3].

ومن رسائل الحماديين الّتي تمّ العثور عليها، رسالة سلطانية لأبي عبد الله محمّد الكاتب **المعروف بابن دفرير*** الّتي كتبها عن يحي بن العزيز أثناء سقوط الدّولة أمام جيوش عبـد المـؤمن **بن علي ليطلب النّجدة من الأمراء العرب، إذ استهلّها بالحمدلة و الصّلاة على الرّسول –صلّى الله عليه و سلّم** و عبرّ عن **رضا يحي** بقضاء الله و قدره عمّا أصابه، قائلا:

---

[1] ينظر دولة بني حمّاد، عبد الحليم عويس، ص 188 189.

[2] **الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، ص 145.**

[3] دولة بني حمّاد: ملوك القلعة و بجاية: إسماعيل العربي، الجزائر، 1980م، ص 180.

* هو كاتب يحي بن العزيز في الدّولة الحمّادية، كان جليلا يلتزم السّجع.

"كتابنا ونحن نحمد الله على ما شاء، رضى بالقسم وتسليما بالقدر، **وتعويلا على جزائه الّذي** يجزى به من شكر، ونصليّ على محمد خير البشر، **وعلى آله ما لاح نجم بسحر**"[1].

تمّ تطرّق إلى موضوعه، بحيث صرّح باهزام يحيىأمام جيوش عبد المؤمن بن علي، فعبرّ عن خيبة أمله من وزيره الخائن ميمون بن حمدون، إذ لا حياة **لمن تنادي، فمن وضع ثقته فيه** واعتبره **أمينا للدّولة، تمكّن الحقد من قلبه ونكر المعروف بخيانة الدّولة ومساعدة الأعداء** في تنفيذ مهمّتهم، وذلك في قوله:

"**وبعد، فإنّه لمّا** أراد الله أن يقع ما وقع، لقبح آثار من خان في دولتنا **وضيع، استفزّ أهل** موالاتنا الشّنآن وأغرى من اصطفيناه وأنعمنا عليه الكفران، فأتوا من حيث لا يحذرون، ورموا **من حيث لا ينصرون، فكنّا** في الاستعانة بهم والتّعويل عليهم كمن يستشفي داء بداء ويفرّ من صلّ خبيث إلى حيّة صمّاء، حتىّ بغث مكرهم وأعجل عن التّلاقي أمرهم، وردّ و بال أمرهم **إليهم**"[2].

و بعدما عبرّ عن يأس يحيى **وفقدانه الأمل من تقديم الإعانة من أهل موالاته، استعطف الأمراء العرب طالبا منهم النّجدة مستغيثا:**

"**فعند ذلك اعتزلنا** محلّة الفتنة، وملنا إلى مظنّة الأمنة، وبعثنا في أحياء هلال نستنجد منهم أهل النّجدة ونستنفر من كنّا نراه للمهمّ عدّة، وأنتم في هذا الأمر أولى من يليهم الخاطر وتثنى عليهم الخناصر"[3].

---

[1] الخريدة، الأصفهاني، قسم شعراء المغرب، ج1، ص 179.

[2] نفسه،ص180.

[3] نفسه، ص نفسها.

إنّ ابن دفرير عالج موضوعه **بطريقة أدبية فنية ممّا يدل على تمكّنه من علم البلاغة** واطّلاعه على معايير الكتابة الفنية **من أسلوب بليغ وأفكار منظّمة وألفاظ منتقاة أوضحت المعنى وبيّنت الغرض.**

كما أورد الأصفهاني رسالة سلطانية لأبي القاسم عبد الرّحمن **العالمي*** **كتبها عن أحد ملوك** بجاية إلى أحد **الأوفياء للدّولة الحمادية قائلا:**

«**ولمّا** كنت في مضمار سلفك جاريا، ولنا مواليا، وفي قضاء طاعتنا متباهيا، **رأينا أن نثبت مبانيك ونؤكّد أواخيك، ونوجب لك ولخلفك ما أوجبه سلفنا لسلفك تمييزا لهم عن الأكفّاء، ومجازاة** لهم على **محض الصّفاء والولاء**، فاستدم هذه النّعمة العظيم خطرها بالشّكر فأنت به **جديرو** ﴿**مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نزدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنّ اللهَ غَفُور شَكُور**[1]﴾»[2].

مضمون الرّسالة واضح وهو تبشير ذلك الرّجل **المخلص للدّولة برضا الملك عنه وذلك بتعيينه خلفا عن سابقيه من أسرته** الموالية اعترافا له **بخدمته** وصدقه في العمل **لما قدّمه للدّولة** من طاعة وولاء وفضل كما أمره بأن يستديم النّعمة بالشكر موظّفا الآية الّتي تخدم المعنى.

والملفت للانتباه **أنّ الرّسالة وردت ناقصة دون مقدمة، إذ يتّضح ذلك من قول الأصفهاني «وله من رسالة»**[3] فهو لم يوردها بحذافيـــرها، **كما** أنّنا لم نستطع معرفة **المرسل والمرسل إليه، بالرّغم من أنّ رسائـل ابن العالمـي الّـتي** كتبها عن **الموحدين اتّسمت**

*عرف أيضا بابن القالمي، مجهول سنة الولادة و الوفاة، كاتب الدّولة الحمّادية علي عهد يحي بن العزيز، ثمّ تقلّد الكتابة لعبد المؤمن بن علي، كان حيا في النّصف الأوّل من القرن 6°.

[1] سورة الشورى: الآية(23).

[2] الخريدة ، ص 180.

[3] نفسه، ص نفسها.

بالإطناب والتّطويل، ووردت بمقدمات التزم فيها المنهج المتّبع في الرّسائل، لكن هذا لا ينفي أنّ الرّسالة صريحة في معانيها، طرّزت بسجع زادها رونقا وجمالا فتأنّق في كتابتها.

ومن كتّاب الدّولة الحمادية الفقيه أبو حفص عمر بن فلفول الّذي قال عنه صاحب الخريدة: "هو كاتب السّلطان بتلك البلاد يحي بن العزيز الحمادي وخالصته وصاحب سرّه، وله اليد الطّولى في الإنشاء الدّال إعجازه فيه على البلاغة المؤدية لسحره في نثره"[1].

إلاّ أنّ الأصفهاني وغيره من المؤلّفين أشادوا ببلاغة هذا الكاتب ومقدرته الإنشائية، دون أن يذكروا لنا رسالة من رسائله، فكم هو مؤسف ألاّ نعرف عنه سوى اسمه ولا نعثر على نثره هو وغيره من الكتّاب الجزائريين قديما، وبالرّغم من ذلك، فإنّ النّماذج الّتي استشهدنا بها، أوضحت لنا نوعية المواضيع المعالجة في تلك الفترة، إذ تطوّرت من معالجة المواضيع الدّينية في القرنين الثّاني والثّالث الهجريين بأسلوب غلبت عليه البساطة والسّهولة إلى معالجة المواضيع الأدبية في القرنين الرّابع والخامس الهجريين بطريقة فنية دلّت على مهارة أولئك الكتّاب الإبداعية و تمكنهم من اللّغة وناصية البيان.

[1] الخريدة،م س، ص 179.

الفصل الثاني

فنّ الخطابة

تعرف الخطابة بأنّها من أبرز الفنون القولية إذ تهدف إلى إيصال خبر او فكرة ما لجماعة من النّاس مستعملة المشافهة كأداة غايتها إقناع المستمعين والتّأثير فيهم مخاطبة بذلك العقل والقلب معا، فهي إذن «فنّ مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته»[1].

كما تعد الخطابة لسان الدّولة في جميع نواحي الحياة «فهي ضرورة حيوية للدّول والشّعوب والمجامع الدّولية لا يستغني عنها حاكم ولا زعيم ولا قائد ولا مصلح ولا نائب ولا معلّم ولا كاتب ولا ممثّل حتّى الدكتاتوريات التي تعيش على حتف الحريّات اتخذتها الوسيلة للتسلط على الأذهان وترويج ما تدعو إليه من حقّ أو بهتان»[2].

ونظرا للحاجة إليها، فقد استعملها العرب منذ الجاهلية، ودارت موضوعاتها في نطاق البيئة الّتي نشأت فيها، فكانت تستعمل في المواقف الهامّة والمصيرية كالدّعوة للحرب أو السّلم، وفي المحافل والمجتمعات، وبمجيء الإسلام اختلفت مواضيعها وأصبح من أهمّ أغراضها الدّعوة إلى الدّين، والتّحريض على الجهاد في سبيل الله، وقد بلغت الخطابة تطوّرا ملحوظا في القرنين الأوّل والثّاني الهجريين لأسباب أهمّها:

---

[1] فنّ الخطابة، أحمد محمّد الحوفي، دار نهضة للطباعة و النشر، مصر، ط4، ص4.

[2] الخطابة في صدر الإسلام، طاهر درويش، ج1، دار المعارف مصر، ط2، 1968م، ص7.

1 أثر الفتوحات الإسلامية بحيث كان الفاتحون يلهبون مشاعر عساكرهم عن طريق الخطابة من أجل القتال في سبيل الله ونيل الشّهادة للفوز بالجنّة، كخطبة عقبة بن نافع* أمام تيهرت** عند محاصرته إيّاها، الّتي يقول في جزء منها:

«أيّها النّاس إنّ أشرافكم وخياركم، الّذين رضي الله تعالى عنهم، وأنزل فيهم كتابه، بايعوا رسول الله –صلّى الله عليه و سلّم بيعة الرّضوان***على قتال من كفر بالله إلى يوم القيامة وهم أشرافكم والسّابقون منكم في البيعة باعوا أنفسهم من ربّ العالمين بجنّته بيعة رابحة»[1].

إذ استهل خطبته لجنوده بتحفيزهم على القتال ضاربا المثل ببيعة الرّضوان بالحديبية، فألهب مشاعرهم ليتسابقون إلى القتال من أجل تحقيق النّصر والشّهادة.

2 عامل المناسبات: فالإسلام سنّ صلاة الجمعة والأعياد الدّينية إذ كان الأئمّة يسعون جاهدين للتّأثير في المسلمين وذلك بشرح أحكام القرآن وآداب السّنّة «فالخطابة لها الحظّ الأوفر من أمر الدّين، لأنّ الخطبة شطر الصّلاة الّتي هي عماد الدّين في الأعياد والجمعات والجماعات، وتشتمل على ذكر المواعظ التي يجب ان يتعهّد بها الإمام رعيّته لئلا تدرس من قلوبهم اثار ما أنزل الله –عزّ و جلّ من ذلك في كتابه إلى غير ذلك من منافع الخطب»[2].

3 الانقلاب السّياسي الدّيني بعد مقتل عثمان بن عفّان –رضي الله عنه والّذي أدّى إلى التّعصّب المذهبي وتعدّد الفرق، فكان كلّ حزب يعتمد على الخطابة في نشر نحلته و تأييد

---

*قائد جيش و رجل سياسة ولد قبل وفاة الرّسول صلّى الله عليه و سلّم قدم إلى افريقية عام 46هـ، اختطّ مدينة القيروان سنة 50هـ، قام بعدّة فتوحات إلى أن استشهد عام 63هـ بتهودة الّتي تعرف اليوم بقرية سيدي عقبة قرب بسكرة.

**تيهرت القديمة الّتي أشرنا إليها في المدخل.

***بيعة الرّضوان هي البيعة الّتي ورد ذكرها في قوله﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ سورة الفتح، الآية (18).

[1] رياض النّفوس، المالكي، ج1، ص 37.

[2] الصّناعتين، أبو هلال الحسن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ،محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات عيسى الباجي، ط2، ص 142.

دعوته كما كان "كلّ حزب ينتقض خصومه بذكر معايبهم، و قامت لذلك محاورات ومناظرات كثيرة عنيفة، و هي في جملتها لم تخرج عن منهج الخطابة"[1].

من خلال استعراض أهم الأسباب الّتي ساعدت على انتشار فن الخطابة وازدهارها ورقّيها، يتّضح نوع المواضيع الّتي كانوا يعالجونها آنذاك من دينية وسياسية وحربية واجتماعية... وهلمّ جرّا.

و لابأس أن نورد خطبة طارق بن زياد* الّتي كانت نموذجا للخطابة في عهد الولاّة، بحيث ألقاها أمام جيوشه بعدما أحرق السّفن الّتي حملتهم إلى الجبل الّذي يسمّى اليوم باسمه، فقطع بذلك أملهم للرّجوع من أجل محاربة "لذريق" ملك إسبانيا.

يستهل طارق كلامه مخاطبا جنوده بقطع كلّ فرص الخيار عليهم من أجل التّفكير في التردّد أو الرّجوع، فلا مجال للهروب، وبذلك أراد أن يلهب مشاعر عساكره من أجل القيام بواجبهم العسكري، إذ لم يبق أمامهم سوى إشهار السّيف في وجه العدوّ إمّا النّصر أو الاستشهاد في سبيل الله، فيقول:

"أيّها النّاس: أين المفرّ؟ البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلاّ الصّدق و الصّبر، واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلاّ سيوفكم، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي

[1] الخطابة و إعداد الخطيب، د عبد الجليل شلبي، دار الشّروق، القاهرة، ط2، 1986م، ص 210.

* قائد شهير، نسبه الإدريسي إلى قبيلة زناتة البربرية، ولاّه موسى ابن نصير مدينة طنجة، و في سنة 92هـ زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك، جهزّه باثني عشر ألف جندي عبر بهم البحر إلى إسبانية بجيش عظيم، فخشي طارق ان يتقهقرجنوده و احرق اسطوله و القى فيهم هذه الخطبة و قتل لذريق سنة 94هـ، استدعاه الوليد إلى دمشق حتى توفي سنة 101ه.

عدوّكم وإن امتدّت بكم الأيّام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتعوضت بقلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم»[1].

وتظهر شخصية طارق أكثر عندما يحذّر جنوده من التّهاون في المواجهة أمام عدوّ لا يستهان به من القوّة وكثرة الجيوش وفي الوقت نفسه يحثّهم على الجهاد ويغرس فيهم روح المنافسة بتجريد مشاعرهم من الخوف لتحقيق النّصر، كما يعرب عن رغبته في الاستشهاد لإقناع جنوده أكثر والتّأثير فيهم، فيقف موقف القائد الّذي يتقدّم جيوشه في المعركة قائلا:

«فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطّاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينه، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت وإنيّ م لأحذّر كم أمرا أنا عنه بنجوة، ولا أحملنكم على خطّة أرخص متاع فيها النّفوس [من غير أن] أبدأ بنفسي»[2].

وبعدما حثّهم على الجهاد في سبيل الله لينعموا بالسّعادة في الآخرة، يذكّرهم بالصّبر الّذي هو مفتاح الفرج فالصّبر على المصاعب ينتج عنه خيرات كثيرة، ويغريهم بنعم الدّنيا وخيراتها، وما يتولّد عنها من سعادة متأثّرا بسورة الرّحمن، إذ يخاطب جنوده مغريا:

«واعلموا إن صبرتم على الأشقّ قليلا، استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلا فلا ترغّبوا أنفسكم عن نفسي فما حظّكم فيه بأوفى من حظّي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان

[1] النّبوغ المغربي في الأدب العربي، تأليف: عبد الله كنّون، ج2، ط2، ص347.
[2] نفسه، ص 347 348.

من بنات اليونان، الرّافلات في الدّر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملك ذوي التّيجان...»[1].

ويستمر في إغرائهم بنعم الدّنيا إلى أن يعلن عن استعداده للمواجهة كونه أوّل من يبادر لقتال لذريق، ويطلب من جنوده إن استشهد قبل الوصول إليه أن يقوموا بتعيين من يخلفه شرط أن يكون متّسما بالبطولة ورجاحة العقل، فهو بذلك يحسّس جنوده بالمسؤولية ويشعرهم بالثّقة، يقول:

«اعلموا أنيّ أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأنيّ عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم "لذريق" فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معي فإن هلكت بعد فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تستندون أموركم إليه وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فإنّهم بعده يخذلون»[2].

وقد برزت في هذه الخطبة ملامح شخصية طارق بن زياد الحربية والدّينية فخاطب العقل والعاطفة معا، أي الواجب العسكري والشّعور الدّيني، كما جمع فيها بين الجانب المعنوي الّذي هو الاستشهاد في سبيل الله لنيل رضا الرّب والفوز بالجنّة دون إغفال الجانب المادّي لما تطمح إليه النفوس في النّعيم بخيرات الدّنيا، فاختار بذلك الألفاظ المعبرّة الّتي جاءت بلهجة صادقة أحدثت وقعا في النّفوس نابعة من شخصية استفادت كثيرا من الإسلام والحروب حتىّ شكّ بعض المؤلّفين في نسبتها كونها لقائد بربري.

[1] النبوغ المغربي، م س، ص348.
[2] نفسه، ص نفسها.

غير أنّ عمر بن قينة أجاب عن هذا الشّك قائلا: "لم يكن طارق المتوفى سنة (101هـ 719م) حديث عهد بالإسلام حتىّ يكون ذلك مصدر شكّ في نسبة الخطبة إليه، فلم يكن أوّل من أسلم أسلم قبله أبوه، بل يذكر البعض جدّه، وهذا واضح حتىّ من خلال الاسم والنّسب العائلي "طارق بن زياد بن عبد الله"»[1].

وخلاصة القول، إنّ خطبة طارق بن زياد تعد من النّصوص النثرية المغربية الرّفيعة، ولو لم تكن كذلك لما نالت اهتمام العديد من المؤلّفين واحتلّت القسط الأوفر في كتب الأدب العربي.

وإذا كانت خطبة طارق قيلت بتلك الفصاحة والبلاغة في عهد الولاة، فما بالك بالخطب الّتي ألقيت في عهد الإمارات المستقلّة عموما والعهد الرّستمي خصوصا؟

إنّه لمن المجحف في حق فنّ الخطابة الجزائرية قديما أن نعثر على القليل القليل فالبرّغم من أنّ الباروني قال: "المشهور أنّ لهؤلاء الأئمة كلّهم دواوين خطب للجمع والأعياد إذ كانوا يخطبون بأنفسهم ولا يعيدون خطبة خطبوا بها قطّ"[2] فإنّ تلك الدّواوين ضاعت في ظّل الزّمن الغافل، ولم نعثر إلاّ على خطبة واحدة لأولئك الأئمة، ألا وهي خطبة الإمام عبد الوهاب بن رستم عشية تولية السّمح بن عبد الأعلى على طرابلس الّتي يقول فيها:

"قد علمتم معشر المسلمين أنّ السّمح وزيري وأخص النّاس بي وأحبهم إلي وأنصحهم لدولتي، وبذلك لا أصبر على فراقه، وقد آثرتكم على نفسي تتميما لرغبتكم، فها أنا قد ولّيته

[1] أدب المغرب العربي قديما، ص10.

[2] الأزهار الرّياضية، الباروني، ج2، ص 379.

عليكم، فأحسنوا الطّاعة له والانقياد لأوامره، ما سار فيكم بسيرة المسلمين، ولم يحد عن جادّة العدل والإنصاف، ولم يرتكب ما يؤذن بسخط الرّب وبمخالفتنا»[1].

إنّ موضوع الخطبة مباشر، فالإمام مدح السّمح معتبره أقرب النّاس إلى قلبه لما يتّصف به من نزاهة وحكمة وإسداء نصيحة، وإرضاء لرغبة الطرابلسيين ولاّه عليهم ودعاهم إلى طاعته واتّباع سيرته، وكان ذلك بأسلوب سهل واضح.

ولقد ذكر ابن الصّغير خطباء الدّولة الرّستمية وهم ابن أبي إدريس وأحمد التّيـــه وأبو العبّاس بن فتحون وعثمان بن الصفّار وأحمد بن منصور[2].

كما أشار إلى خطبة أحمد التّيه بقوله: "فسمعت أحمد التّيه يقرأ بعد فراغ إلى أن بلغ مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَ السَّمَاوَاتِ العُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى[3] فحرّف المعنى عن موضعه أراد أن يقيم أصله و يجعله بابا من الحلول على العرش»[4].

فهذا دليل على أنّ فنّ الخطابة كان شائعا في الأدب الجزائري القديم، غير أنّ قول ابن الصّغير بأنّ الخطيب حرّف المعنى عن موضعه، جعل بخّار إبراهيم بكير يعلّق عليه بأنّه اتهام خطير للإباضية، كون الخطيب قرأ "استوي" بياء عوض "استوى" بألف مقصورة، لاختلاف في القراءات لا غير، لأنّ الإباضية لا يقولون بالحلول[5].

[1] الأزهار الرياضية م س، ص 380.
[2] ينظرأخبار الأئمة الرستمين، ص 105.
[3] سورة طه الآيتان (5،4).
[4] اخبارالأئمةالرستميين، ص 105.
[5] ينظر الدولةالرستمية،ص 339 340.

وبالرّغم من أنّ ابن الصّغير ذكر أسماء الخطباء وأشار إلى خطبة أحمد التّيه، فإنّه يقول: «كلّ من رأيت من خطبائهم على منابرهم فليس يستمعون إلاّ خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، خلا خطبة التّحكيم فإنهم كانوا إذا فرغوا من الخطبة الاولى قاموا إلى الثّانية و حكموا»[1].

فهذا القول الصّادر عن ابن الصّغير يحيلنا على تساؤل، وهو كيف يمكن للخطباء الرّستميين أن يستمعوا لخطب علي بن أبي طالب وهم ينتمون لخوارج الإباضية الّذين رفضوا التحكيم*؟ و نحن نعلم أنّ التّعصّب المذهبي كان سائدا في تلك الفترة. فربّما كانوا يستمعون إلى تلك الخطب لتنمية الرّصيد اللّغوي والاقتباس منها لما احتوته من جمال الأسلوب والفصاحة، فتعاملوا معها من الناحية الأدبية غاضين النّظر عن قائلها.

ولقد أورد ابن الصّغير خطبة أحمد بن منصور الّتي ألقاها في يوم من أيّام الجمعة والّتي حمّله عليها رجل يقال له أحمد بن يحياج.

ويتجلّى الخطاب النّثري عند أحمد بن منصور في تعظيم الله والتّنويه بفضائله، إذ يفتتح خطبته بالحمدلة و ذكر نعم الله على خلقه، فكلّ ما خلقه الله فيض من نعمه، ويظهر عظمة الخالق في تسير الكون مقرّا له بالرّبوبية والتّوحيد قائلا:

«الحمد لله الّذي ابتدأ الخلق بنعمائه، وتغمّدهم جميعا بحسن آلائه، فوفق كلّ امرئ منهم في صبائه على طلب ما يحتاج إليه من غذائه، وسخّر له من يكلوه إلى وقت استغنائه ثمّ احتجّ

[1] أخبار الأئمة الرستميين، ص 105 106.

* حادثة التحكيم، لمزيد من التّفاصيل ينظر علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، فؤاد افرام البستاني، دار المشرق، بيروت لبنان 1983م، ص 17 و ما بعدها.

على من بلغ منهم بالآيات وحذّر إليهم بابنائه، وأعذر إليهم بابلائه (كذا) الّذي لم يزل بصفاته وأسمائه لا يشتمل عليه زمان، ولا يحيط به مكان»[1].

وللدّلالة على عظمة الخالق أكثر، يتطرق إلى معجزات الله الّتي تدلعلى هيبته، فهو خلق كلّ شيء، و يخلق الشّيء وضدّه كالأرض والسّماء، ثمّ يصف قدرة الإله في الخلق ضاربا المثل بخلق السّماء الّتي رفعت بلا عمد ولا حبل، وكأنّه بذلك يشير إلى التّأمل والتّدبّر في تفوّق الله على خلقه والتّمعن في قدرته الّتي لا تضاهيها أيّ قدرة، فيقول منبهرا بهذا الإعجازالرّباني:

«خلق الأماكن و الأزمان ثمّ استوى إلى السّماء وهي دخّان، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين، فقدّرها أحسن تقدير، واخترعها من غير نظير، لم يرفعها بأعمدة لم تدرك بالمعاينة، ولم يستعن عليها بأحد استكبارا عن الشّركة والمعاونة وزّينها للنّاظرين وجعل فيها رجوما للشياطين، فتبارك الله أحسن الخالقين»[2].

ويستمر في ذكر نعم الله على خلقه كنعمة القرآن الكريمالّذي يبين فيه الله –جلّ وعلا جميع الشّرائع والأحكام لأنّ اللّجوء إلى كتاب الله يزيل كل المفاهيم الغامضة، وفي حالة ما أشكل تأويله لابدّ من اللجوء إلى أحاديث الرّسول –صلّى الله عليه و سلّم ، فالله سبحانه وتعالى أمر عباده بطاعته وطاعة رسوله، ممّا يدل على أنّ الخطيب ذو نزعة دينية ، إذ يقول منوّها بالقرآن والحديث:

---

[1] أخبار الأئمّة الرستميين، م س ،ص106.

[2] نفسه، ص 106 107.

"بل جعل القرآن إماما للمتّقين وهدى للمؤمنين، وملجأ للمتنازعين وحكما بين المتخالفين، ودعا أولياءه المؤمنين إلى اتباع تنزيله، وأمرهم عند التّنازع في تأويله بالرّجوع إلى قول رسوله –صلّى الله عليه وسلّم بذلك نطق حكم كتابه إذ قال جلّ ثناؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَ أحسن تَأوِيلاً﴾[1]، وَتَعَهَّدَ نبيّه –صلّى الله عليه وسلّم عند رجوع الأمّة في تأويل ما أشكل عليها إليه بأن يبين لهم معنى ما أنزل عليه فقال ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلاّ لِتُبَيَّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[2]»[3].

فبيّن فضل القرآن مدعّما قوله بالاستشهاد من القرآن الكريم متأثّرا بأسلوبه ثم يذكر ما حثّ عليه كتاب الله تعالى، إذ لا داعي للتّحريف، ويعترف بقدرة الله المطلقة على خلقه، يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء فيقول:

"ولم يكل لهم تعالى إلى القول في دينه بآرائهم، ولا أذن لهم في مسامحة أهوائهم فتكون الأحكام مبتدعة والآراء مخترعة، والأهواء متّبعة بل أحصاها كلّ شيء عددا وضرب لكلّ شيء أمرا، ليهلك من هلك عن بيّنة و يحي من حيي عن بيّنة"[4].

ويعود ليكرر حمده لله كوسيلة للشّكر على نعمه، مسلّما أمره له، مؤكدا بتوحيده الّذي لا يشاركه فيه أحد؛ متوكّلا عليه في جميع الأمور قائلا:

"أحمده حمدا يبلغ رضاه ويحسن آلاءه وأستعينه على ما استحفظنا من ودائعه، وحفظنا ما استودعنا من شرائعه وأومن به إيمان من أخلص له عبادته واستشعر طاعته، وأتوكل عليه

---

[1] سورة النّساء (59).
[2] سورة النّحل (64).
[3] أخبار الأئمّة الرستميين، م س، ص 107.
[4] نفسه، ص 107، 108.

توكل من انقطع إليه ثقة به ورغبة فيما لديه وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له شهادة معترفا له بالرّبوبية والتّوحيد مقرّا له بالعظمة والتّمجيد، خائفا من إنجاز ما قدّم من وعيد»[1].

وبعد هذا التّمجيد لله سبحانه و تعالى و إيمانه به و ورعه منه، يقرّ برسالة محمّد –صلّى الله عليه وسلّم– للبشرية جمعاء وسعيه في نشر تعاليم الإسلام فيقول:

«وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله اصطفاه لنفسه وليا وارتضاه لخلقه نبيا، فأوجده على حفظ ما ضمّنه قويا وبأداء ما استودعه مليا وبالدّعاء إلى ربّه خفيا متوقّفا عن ورود المشكلات ومشمرا عند انجلاء الشّبهات لا يرعوى لمن عذله ولا يلوى على من خذله ولا يطيع غير من أرسله يصدع بالأمر ويطفئ نار الكفر، ولا تأخده في الله لومة لائم، ولم ينحرف عنه لرغم راغم»[2].

ويواصل ذكرا فضل سيّدنا محمد –صلّى الله عليه وسلّم– الّذي استطاع أن يهدي كثيرا من الخلق إلى الصّراط المستقيم، فدخلوا الإسلام طائعين غير كارهين وآمنوا بالرّسالة النّبوية بعدما كانوا عاكفين على عبادة الأصنام، إذ يقول:

«أرسله على حين فترة من الرّسل ودرس من السّبل وتضامن من أهل الملل، والنّاس فريقان عالم متكبرّ وجاهل مستظهر فالعالم الّذي سبق له الخذلان ينزعه الشّيطان ويجمع به الطّغيان فيستنكف عن الدّخول في دين الإيمان، والجاهل مستنكع في غيّه متحيرّ في أمره منتظر ما يكون من غيره فلم يزالا يعكفان على الأزلام، ويعتصمان بالأصنام والرّسول عليه السّلام يرعا رعى

[1] أخبار الأئمة الرستميين،م س، ص 108.
[2] نفسه، ص نفسها.

السّوام ويدعوهم إلى دار السّلام فلم يزل –صلّى الله عليه وسلّم يعظهم بالآيات ويقرعهم بالمعجزات حتى استقام من أراد الله توفيقه من أهل الدّيّانات...»[1].

ويختم خطبته بالصّلاة على النّبي المصطفى الّذي أرسله الله رحمة للعالمين بكتاب أحكمت آياته، يقول مشيدا بخاتم الأنبياء:

«فختم الله به النّبيين وأكمل به الدّين وأوجب به الحجّة على العالمين صلّى الله عليه وعلى آله الطّيبين وإخوانه من المرسلين وأوليائه من المؤمنين»[2].

وبعدما بجّل عظمة الخالق ونعمه و نوّه بالرّسالة الّتي حملها سيّدنا محمد –صلّى الله عليه وسلّم مستمدا ذلك من ثقافته الإسلامية و روحه الدّينية جلس ثمّ قام فحكّم قائلا:

«الحمد لله نستعينه ونستغفره ونؤمن به ونستهديه ونستنصره ونبرأ من الحول والقوّة إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمّدا عبده ورسوله، أرسله على الهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون، الله ربّنا ومحمد نبينا والإسلام ديننا والكعبة قبلتنا والقرآن ديننا»[3].

لقد ابتدأ أحمد بن منصور خطبته بالحمدلة والاستغفار من الذّنوب وتفويض الأمور كلّها لله، مقرّا بوحدانية الله معترفا بنبوة سيّدنا محمد –صلّى الله عليه وسلّم مؤمنا بالدّين الإسلامي الّذي عماده القرآن و قبلته الكعبة.

---

[1] أخبار الأئمة الرستمين،م س ، ص108، 109.

[2] نفسه، ص 109.

[3] نفسه، ص نفسها.

و بعد هذا الابتداء يقول:

"رضينا بحلاله **حلالا** وبحرامه حراما لا نبتغي عنه بدلا ولا عنه حولا ولا نشتري به ثمنا، **لا حكم إلاّ لله اتّباعا لكلام الله وسنّة نبيه عليه السّلام وخلافا لأهل البدع، لا حكم إلاّ لله خلعا ونبذا وفراقا** لجميع أعداء الله، لا حكم إلاّ لله ولو كره الجبارون الحاكمون بغير **ما أنزل الله وأشهد أنّ من لم** يحكم **بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظّالمون والفاسقون**"[1].

في هذا الجزء من الخطبة ظهرت شخصية الخطيب **المتعصّبة للنّزعة الإباضية، إذ عرض** لمبادئ الدّعوة الخارجية، باستعمال عبارة **"لا حكم إلاّ لله" هذا الشّعار الذي رفعه الخوارج** في وجه علي **–كرّم الله وجهه أثناء حادثة التّحكيم، كما رأى بأنّ الحكم الذي يبتعد** عن القرآن والدّين يعتبر كفرا وظلما وفسقا وتتّضح نزعته الخارجية الإباضية أكثر في قوله:

"اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وارحم محمدا وآل محمد وبارك على محمد وآل محمد كما صلّيت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد، **اللّهمّ صلّ على العصبتين المباركتين من المهاجرين** والأنصار والتّابعين لهم بإحسان، اللّهمّ وارحم الشّراة في سبيلك أهل الفضل في الإسلام وصلّ على الخليفتين المباركتين بعد نبيّك محمّد أبي بكر وعمر إمامي الهدى بما عملا به من كتابك وما أثراه من سنّة نبيك"[2].

ملاحظ أنّ الخطيب تعصّب حتىّ في الدّعاء إذ دعا بالصّلاة والرّحمة والبركة للرّسول **–صلّى الله عليه وسلّم** وللخليفتين أبي بكر و عمر ولم **يذكر عثمان –رضي الله عنه وعليّا - كرّم الله وجهه .**

[1] أخبار الأئمة الرستمين، م س، ص 109.
[2] نفسه، ص 109 110.

ثمّ يدعو للإمام أبي حاتم بالإصلاح والإرشاد والنّصر والفتح **ممّا يدل على أنّ الخطبة** ألقيت في عهده، فيقول:

«**اللّهمّ و**اصلح الأمير يوسف بن محمد، أصلحه وأصلح على يديه ووفّقه للخير وأعنه عليه **وافتح له من عندك أعوانا وأنصارا على طاعتك، اللّهم اعزز به الإسلام وأهله واذلل به الكفر** وأهله انصره نصرا عزيزا، وافتح له فتحا يسيرا وهب له من عندك نصيرا كفى بك وليا وكفى بك نصيرا»[1].

ويختم خطبته بالدّعاء لجميع المسلمين بالمغفرة والإيمان والرّحمة، فيقول متضرّعا:

«**اللّهم اغفر لنا ولإخواننا** الّذين **سبقونا بالإيم**ان ولا تجعل في قلوبنا غلاّ للّذين آمنوا، ربّنا إنّك رؤوف رحيم»[2] ثمّ قرأ السّورة الّتي تثبت وحدانية الله ألا وهي قل هو الله أحد و نزل[3].

وخلاصة القول، إنّ هذه الخطبة كشفت من حيث مضمونها **عن عقيدة الخطيب الدّينية ونزعته الإباضية.**

وعلى غرار الخطب الرّستمية، سارت الخطب في العهد الفاطمي، فاتّسمت بالنّزعة الشّيعية العلوية، وفي هذا الصّدد يقول **إحسان النّص:** «غير خاف أنّ الحجّة القويّة الّتي كان الحزب **الشّيعي يقيم دعوته عليها إ**نّما هي الانتساب إلى البيت النّبوي الهاشمي فالقرابة من الرّسول – **صلّى الله عليه وسلّم** هي حجر الزّاوية في بناء الدّعوة العلوية، وكان من الطّبيعي أن يلح خطباء **الشّيعة على** هذه الفكرة في جلّ خطبهم»[4].

---

[1] أخبار الأئمة الرستمين، م س، ص 110.

[2] نفسه، ص نفسها.

[3] اينظر نفسه، ص نفسها.

[4] الخطابة العربيّة في عصرها الذّهبي، دار المعارف، مصر 1119م، ط2، ص 169.

ويتّضح ذلك في خطبة المعز الّتي ألقاها في عيد الأضحى ورثى فيها والده ثمّ تطرّق لموضوع خلافته، فبعد أن استهلّها بالهيللة والحمدلة والاستغفار والشّهادة والإقرار بوحدانية الله، ونعمه على خلقه والتّبجيل بعظمة الخالق والصّلاة والتّسليم على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم والاعتراف برسالته وتفضيله على الخلق، قال:

«أفضل الصّلاة وأزكاها وأكملها وأتماها وأخلدها وأبقاها على المهديين من عترته الكرام الأبرّين الّذين اختارهم للخلافة وارتضاهم للإمامة، وأكّد بوحيه للرّسل حجتهم، وأوجب في التّنزيل طاعتهم بعد تفضيله إيّاهم على العالمين بأبوّة محمد سيد المرسلين، وعلى أفضل الوصيين، وعلى سيّدة النّساء فاطمة خامسة أصحاب الكساء صلوات الله عليهم وعلى أميري المؤمنين المهدي بالله والقائم بأمر الله»[1].

إنّ ملامح النّزعة الشّيعية العلوية ظاهرة، إذ يفخر المعز بتفضيل الفاطميين على كافة الخلق كونهم من أبناء الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم وينتسبون لعلي –كرّم الله وجهه وفاطمة الزّهراء، كما أقرن الصّلاة عليهم بالصّلاة على المهدي بالله والقائم بأمر الله أي الخلفاء الفاطميين الأوائل وذلك من أجل الإلحاح على فكرة الانتماء للرّسول –صلّى الله عليه وسلّم وآل بيته.

ثمّ يصفهما بصفات الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم فيمدحهما بأنهما سيّدا الخلق، هاديا النّاس إلى الصّراط المستقيم وهما قامت الدّعوة الإسلامية إذ يبجّلهما ويعظّمهما قائلا:

[1] المعز لدين الله الفاطمي، تأليف: عارف تامر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1982م، 1402ه، ط1، ص 64.

"سيدي الورى وإمامي الهدى الّذين اعلن الله بهما دعوة الحق وانطق بهما الإيمان والمؤمنين وأقام بهما دعوة الدّين، وأزهق بحقّهما باطل المدّعين وأكاذيب المتحرّضين وقطع بسيوفهما دابر الظّالمين، صلوات الله ورحمته وبركاته ورضوانه وتحيّاته عليهما"[1].

وبعد هذه الإشادة بالإمامين والوصف البديع لهما، يتضرّع بالدّعاء لوالده أن يخصّه الله كونه صاحب الآيات الباهرة والمعجزات والبراهين الخارقة، وهو بذلك يضفي عليه صفات القداسة، فينوّه بفضائله مستعملا عبارات الرّمز الفاطمي إذ يقول:

"اللّهمّ أخصص الإمام الفاضل والوصيّ العادل، والبرّ الفاضل والغيث الوابل ذا الآيات المعجزات والعزائم النّافذات الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات الصّابر في البأساء والضرّاء حتىّ طهّر الأرض من جبابرة الأعداء، عبدك ووليّك ونجيّك وصفيّك أبا الطّاهر المنصور بك و المتوكل عليك والمفوّض إليك العامل بما يرضيك ويقرّب إليك ويزلف لديك"[2].

ثمّ يتحدّث عن أثر الفاجعة وما خلّفه والده من فراغ ووحشة قائلا:

"الّذي فجعتنا بفقده وأوحشتنا ببعده وأفردتنا منه وأوحشتنا فقبلت دعاءه وأجبت نداءه وجمعت بينه و بين أحبّته في مستقرّ جنّتك وسعته رحمتك"[3].

فالمعز يرى بأنّ الله أجاب دعاء والده وأدخله الجنّة ثمّ تنفجر عاطفة الخطيب المليئة بالحزن ولوعة الفراق والحرقة لفقدان الوالد، فيرثيه مظهرا فضائله مفصحا عمّا يضمره لأبيه من إعجاب إلى درجة عالية من القداسة، مؤكّدا على انتمائه لآل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم

[1] المعز لدين الله الفاطمي، م س، 64.
[2] نفسه، ص 65.
[3] نفسه ، ص نفسها.

مخاطبا والده وكأنّه يراه، حتى عجز لسانه عن إحصاء مناقبه لما أصابه من فاجعة الموت، فيرثيه حزينا على فراقه:

«إنّ القلق وشدّة الحرق عليك بالغ يا أبتاه يا سيّداه، يا إسماعيلاه يا أبا الطّاهر، يا بحر علوم الأئمّة الطّاهرين، الهداة المهديين، يا بقية أبناء الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم وأبناء الوصي والطّاهر البتول، يا إمام الأئمة، يا مفتاح باب الرّحمة، يا سراج الهدى وشمس الورى ومجلي الطّخباء يا مخصوصا من الله بتعجيل الكرامة عظم والله علينا المصاب بك، وجلّ البلاء، وعدم العزاء لفقدك وقصرت الألسن عن إدراك إحصاء شمائلك لفقدك...»[1].

كما يتطرّق لموضوع خلافته، فيخاطب والده وكأنّه أمامه مؤكّدا له بأنّه لولا فضل الله عليه بتشريفه بأبوّة الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم ولو لم يكلّفه المنصور بالمسؤولية وضرورة وجود إمام لتدبير شؤون الرّعية وهدايتهم للطّريق الصّحيح لطلب الموت من أجل لقاء والده، فيقول مفتخرا بالأصل الّذي ينحدر منه ومتأسيا على فقد الوالد:

«فوحقّ من اختصّك بكرامته وحباك بجزيل عطائه وشرّفك بأبوّة رسوله، لولا ما أوعزت إليّ به وأكّدته عليّ من القيام به بحقّ الله والذّب عن أمّة جدّك رسول الله، واستنقاذهم من غمرة الجهالة وبحار الضّلالة ومهاوي الفتن ومعاطب المحن وما تقرّر عندي ورسخ في صدري من الجزاء بمقدار الوفاء لله ولرسوله ولأئمة الهدى لضربت على وجهي سائحا في البلاد قالبا للمهاد راضيا ببلغة من زاد إلى أن يلحقني الموت سريعا بك فأفوز بقربك ورحمة ربّك»[2].

[1] المعز لدين الله الفاطمي، م س ،ص 65.

[2] نفسه ، ص 65.

غير أنّ المعز يرى أنّ نيران الحزن والأسى يطفئها الصّبر والتّجلّد، فيظهر مدى إيمانه بالله، ويغلّب عقله على عاطفته، لأنّ كلّ إنسان مصيره الموت، فيقول مؤمنا بقضاء الله وقدره:

"لكني فكّرت ونظرت وتدبرت فلم أرى وجها أستوجب به **درجتك واللّحاق بشرفك سوى** الصّبر والاحتساب، فتجلّدت وصبرّ ني ربيّ فصبرت وغلب عليّ اليقين فأمسكت وقلت: **إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلّي العظيم، والحمد لله على ما أبلى والشّكر** على ما أدلى"[1].

وما يمكن ملاحظته من هذه الـ**خطبة "أنّا كشفت عن النّزعة الشّيعية العلوية.**

والواضح أنّ تلك الخطب امتزجت فيها النّزعة المذهبية بالأفكار الدّينية، نظرا لتعدد المذاهب آنذاك، فظهر ذلك التّعصّب المذهبي لدى الخطباء، أمّا الخطب في العهدين **الزّيري والحمادي لم نعثر عليها، لكن من المحتمل أن تكون عالجت مواضيع أدبية بطريقة فنية وترفّعت عن النّزعة المذهبية.**

[1] المعز لدين الله الفاطمي، م س ، ص65 66.

الفصل الثّالث

فنّ الوصايا

إنّ الوصية فن نثري قديم قدم الشّعوب، عرفها العرب منذ الجاهلية، لانها مواعظ وحكم صادرة عن تجارب الحياة وقيمها.

كما عدّها أغلب المؤلفين بأنها نوع من أنواع الخطب مثل إحسان النّص[1] وبطرس البستاني[2].

ويبدو أنّ الوصية وإن تطرّقت إليها الخطابة كموضوع، لا يمكن عدّها من أنواع الخطب لتفرّدها بخصائص تميّزها، فالخطبة والوصية كلتاهما تستعملان للنّصح والإرشاد بالترّغيب فيما ينفع والتّحذير عمّا يضر، إلاّ أنّ الأولى تلقى في جمّ غفير من النّاس وفي المواسم والجامع، بينما الثّانية تكون لأشخاص معيّنين في زمن معينّ .

وقد اختلفت موضوعات الوصية وفقا لطبيعة الأحداث والأشخاص؛ إلاّ أنّ جلّها كانت تصب في تقوى الله والتّمسّك بالدّين والجهاد في سبيل الله، وحفظ القرآن كوصية عقبة بن نافع لأولاده عندما خرج بأصحابه وبكثير من أهل القيروان قاصدا المغرب، فقال لهم:

إنّي بعت نفسي من الله وما أدري ما يأتي عليّ في سفري»[3].

استهل وصيته مصرّحا بتسليم نفسه وروحه لله من أجل الجهاد والقتال في سبيل الله والفوز بالجنّة، متأثرا بقوله تعالى: إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الجَنّة

[1] ينظر الخطابة في عصرها الذّهبي، ص 38.

[2] ينظر أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام، ص 255.

[3] رياض النّفوس، المالكي، ج1 ،ص 34.

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ[1]**.مّما يدل على حفظه للقرآن وعمله به،** ويتّضح ذلك أكثر عندما يوصي أبناءه قائلا:

"يابنيّ أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها:

إيّاكم أن تملأوا صدوركم بالشّعر وتتركوا القرآن، فإنّ القرآن دليل على الله عزّ و جلّ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللّبيب ويدلّكم على مكارم الأخلاق ثمّ انتهوا عمّا وراءه"[2].

فعقبة أوصى أبناءه بالتّحلي بثلاث خصال، أوّلها **يحذّرهم من أن يكون الشّعر هو** الغالب على قلبهم بحيث لا يتفرغون لسواه ويصدهم عن ذكر الله والقرآن، متأثّرا في ذلك بقول الرّسول –صلّى الله عليه و سلّم **(لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا)**[3]**. كما نصحهم بأن يأخذوا من كلام العرب ما**يهذّب نفوسهم وينمّي عقولهم.

أمّا ثاني خصلة أوصاهم **بها فهي قوله:**

"أوصيكم أن لا تداينوا ولو لبستم العباء فإن الدّين ذلّ بالنّهار وهمّ باللّيل فدعوه تسلم لكم أقداركم وأغراضكم وتبق لكم الحرمة في النّاس ما بقيتم"[4].

لقد وقف عقبة موقف الواعظ الزّاهد، فأوصاهم بأن يتركوا الدَّين لأنّه قهر.

وآخر خصلة ينصحهم بها هي أخذ الدِّين والعلم من أهل الورع والتّقوى **المتواضعين الّذين يخافون الله ويقرّبون بين العبد وربّه، يقول:**

---

[1]سورة التّوبة: الآية (111).

[2]رياض النفوس، م س، ص 34.

[3]صحيح البخاري، تأليف: الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، ضبطه و رقمه و ذكر تكرار مواضعه: د.مصطفى ديب البغا، دار الهدى، عين مليلة، 1992م، ج5، ص2279.

[4]رياض النّفوس،المالكي/ ص34.

"ولا تقبلوا العلم من المغرورين من الرّخصين فيجهّلوكم دين الله ويفرّقوا بينكم وبين الله تعالى ولا تأخذوا دينكم إلاّ من أهل الورع والتّقوى فهو أسلم لكم ومن احتاط سلم ونجا في من نجا"[1].

ثمّ يختم وصيته بالسّلام، داعيا الله أن يستشهد أثناء جهاده لنيل رضا الله والاستمتاع بنعيم الجنّة فيقول:

"عليكم سلام الله وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا ثمّ قال: اللّهم تقبّل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك"[2].

فظهرت شخصية عقبة بن نافع متشبّعة بالثّقافة الإسلامية متأثّرة بالقرآن الكريم والحديث الشّريف.

وقد ظلّت الوصايا تتّسم بالنّزعة الدّينية بعد عهد الفتوح والعصر الإسلامي، مثل وصية السّمح وزير عبد الوهاب لأهل طرابلس عندما حضرته الوفاة، يقول فيها:

"أوصيكم ونفسي بتقوى الله والاتّباع لما أمركم به والانتهاء عمّا زجركم عنه، وطاعة إمامكم عبد الوهاب –رضي الله عنه– وتأييده مادام مستقيما عن الحقّ الّذي عليه سلفكم، وجاهدوا من خالفه"[3].

فهذه الوصية صريحة في معانيها، مباشرة في موضوعها الّذي يركض حول تقوى الله وطاعته وطاعة الإمام عبد الوهاب ومحاربة الخارجين عن سيرته.

---

[1] رياض النفوس ،م س، ص 34 35.

[2] نفسه، ص35.

[3] كتاب سير الأئمة و أخبارهم، أبو زكرياء، ص 119.

كما أوصى أبو يعقوب يوسف بن سيلوس السّدراتي* ابنه قائلا:

"لا يكن ندبك للنّاس إلى الخير أوكد من ندبك لنفسك ولا يكن غيرك أسبق للخير منك، كن للنّاس كالميزان، وكالسّيل للأدران، وكالسّماء للماء"[1].

تجلّت هذه الوصية في ذكر الخصال الّتي يجب للابن أن ينتهجها في حياته، فأمره بأن يكون سبّاقا للخير، عادلا في حكمه على النّاس، واعظا مرشدا بتنقية قلوب النّاس من الدّنايا كما ينقّي الماء الأوساخ، وأن يكون كريما معطاء لا يبخل على النّاس بفضله وخيره فيغمرهم بجوده مثل السّماء الّتي تجود بخيراتها فتتدفق امطارها.

وزبدة القول إنّ الوصية كتبت بأسلوب عميق نوعا ما يتطلب التّدبر والتمعّن في الأفكار لفهم المضمون، فوشّى وصيّته بالصّور الّتي تمثل المعنى وتوحي إليه.

أمّا وصية المعز لدين الله الفاطمي لبلكين بن زيري عندما استخلفه على إفريقية فقد تبدّلت معانيها بتبدّل موضوعها، إذ يقول له:

"أشفني في أولاد المجوس زناتة ومزاتة، واعلم أنيّ قد تركت لك بإفريقية مائة ألف منزل فمتى هممت بمحاربة عدوّ فاجعل على كلّ منزل فارسا واحدا، فإنّك تكتفي بذلك حرب من تريد حربه ويريد حربك"[2].

---

*من علماء الدّولة الرّستمية في جناحها الغربي.

[1] تاريخ المغرب الكبير، محمّد دبّوز، ج3، ص392.

[2] طبقات المشايخ بالمغرب، الدّرجيني، ج1 ، ص138 139.

لقد انتهج في هذه الوصية العسكرية سبل القتال لبلكين من أجل تحقيق النّصر على قبيلتي مزاتة وزناتة، وكان ذلك بأسلوب سهل واضح، ممّا دل على أنّ شخصية المعز الخطيب ظهرت أكثر من شخصية المعز الموصي.

أمّا في القرن الخامس الهجري، فكان التّأثّر بالقرآن الكريم و المعاني الدّينية لازال راسخا عند شيوخ المذاهب، كوصية الشّيخ أبي عبد الله محمد بن بكر الأريغي* لضيف يقال له عبد الرّحمن:

"قد انتقلتم من موضع تركّكم فيه والدكم إلى غيره فكونوا للنّاس كما قال لقمان لابنه: "لاتكن حلوا فتبلع، ولا مرّا فتلفظ"، واتّقوا الله في والدتكم، فإنّ حقّها عليكم عظيم فإنّه قيل لو حمل رجل والدته على ظهره فحج، ما أدّى حقّ ضربة واحدة ضربها برجله في بطنها وأمّا والدكم فقد سلمتم من حقوقه إذا لم تدركوه"[1].

يفهم من هذه الوصية أنّ والد ذلك الزّائر متوفى، فأوصاه أبو عبد الله بأن يكون معتدلا وسطا في تسوية الأمور مستمدّا هذه الفكرة من وصية لقمان لابنه، كما أوصاه بالإحسان لوالدته متأثّرا بأسلوب القرآن الكريم.

وقد أوصى عمران بن يعلا** بخصال منها: "قراءة القرآن والمواظبة عليه، والرّغبة إلى الله، والرّأفة بالضّعفاء"[2].

*من شيوخ الإباضية انتقل إلى أريغ سنة 409هـ.

[1]سير مشايخ المغرب، أبو الرّبيع الوسياني، تحقيق و تعليق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ص27.

**من شيوخ الإباضية.

[2]نفسه، ص 69.

فموضوعات أبي عبد الله لم تخرج عن المواضيع الّتي عالجها القرآن الكريم، **كما أوصى** الشّيخ إسماعيل بن أبي زكرياء بقوله:

"اذهب إلى منزلك، فإن وجدت من تقدّمه في الأمور فاتّبعه، فإن لم تجده ووجدت من تتعاونون معه فتعاونوا على البرّ والتّقوى، فإن لم تجده، ووجدت من يسعى إلى الخير، فكن **أمامه، فإن لم** تجد أحدا من هؤلاء فاستقم على الطّريق وحدك"[1].

يتجلّى مضمون هذه الوصية في دعوة الشّيخ إ**سماعيل** إلى الاستقامة على طريق الهداية لوحده، إذا **لم يجد** أحد هذه الأصناف من النّاس: العالم **المتفوّق والإنسان الآمر بالمعروف والنّاهي عن** المنكر، وأن يكون سبّاقا للخير.

ومن وصايا القرن الخامس الهجري، وصية أبي زكرياء* **لتلامذته، ونصّها:**

"إيّاكم والتّسارع إلى قبول **صنائع النّاس وهداياهم، فإنّه قيل كن عبدا لله ولا تكن عبدا** للنّاس، وأنشد في ذلك:

وَ لَسْتُ وَ إِنْ قَرَّبْتُ يَوْمًا ببائِعٍ لدِيني وَ أَخْلاَقِي رَجَاءَ التَّقَرُّب
وَ يَعْتَادُهُ قَوْم لِقَوْمٍ تِجَارَة يَمُوعُنِي مِنْ ذَلِكَ دِيني وَ مَنْصِبِي"[2].

يتّضح من هذه الوصية، أنّ أبا زكرياء حذّر تلامذته **من تقديم** عمل ما مقابل الهدايا **والأموال لأنّ الطّمع يفقد** المرء إنسانيته ومكانته عند الله، فوظّف الأبيات الّتي **تخدم** المعنى.

والجدير بالملاحظة، أنّ هذه الوصايا كتبت بأسلوب مباشر واضح المعالم لم يخرج **عن التّأثّر بالقرآن الكريم.**

---

[1] سير مشايخ المغرب،م س، ص 71.

*أبو زكرياء يحي بن أبي بكر من شيوخ الإباضية (470ه).

[2] كتاب سير الأئمة و أخبارهم، **أبو زكرياء، ص25.**

وآخر وصية وقعت بين أيدينا في العهد الحمادي، وصية أبي الفضل، إذ يستهلّها بالبسملة والحمدلة ويبيّن غرضه منها قائلا:

"بسم الله الرّحمن الرّحيم:

الحمد لله الحفيظ، هذا ما أودع العبد يوسف الرّب الّذي خلق الأشياء، ورزق الأحياء، وملك العالمين، وحفظ السّماوات والأرض، أودع جميع ولد أبيه وأهله وأهل أبيه، وأهل أخيه وجميع ما حولهما من نعمه، وملكهما من قسمه، ظاهرا وباطنا، وصيرّ ذلك إلى أمانته، واستحفظه في ذلك كلّه، ونبرأ إليه من حوله وقوّته، ولم يرج سوى فضله وطوله"[1].

لقد استمدّ أبو الفضل معاني وصيته من واقع حياته المتشبّع بالثقافة الإسلامية البحتة، فظهرت شخصيته مؤمنة بالله متوكّلة عليه، إذ فوّض جميع أمور أهله إلى الله سبحانه وتعالى، وبعاطفة إيمانية صادقة يستمر في تعظيم الله ويعترف بخصائص ربوبيته قائلا:

"هو الحفيظ الّذي لا يهمل، الوكيل الّذي لا يغفل، العليم الّذي لا يجهل، الجواد الّذي لا يبخل، الأوّل الّذي ينعم ويتطوّل، هو الأخير الّذي لايزال ولا يتحوّل، السّالم من سلمه، والغانم من عصمه، والمفلح من كرمه، قد رضيه مستودعا، ووثق به مستحفظا، ولم يحتج معه إلى ما يحتاج إليه من الأمانات وتحصيل التّقبيضات، وانتقال المآلات،

[1] عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية، تأليف: أبو العبّاس الغبريني، تحقيق و تعليق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص 332.

في ضروب التّصريفات، فإنّ الكل **تحت قبضته، والخلق عند ربوبيته،** فالتّبرؤ إليه تفويض والثّقة **به تسليم...**»[1].

وبعد هذا التّبجيل بعظمة الخالق وقدرته الإلاهية في تسيير الكون، يشهد الرّب – **عزّ وجلّ على الإيداع** المذكور دون سواه ويعترف بإمضاء هذا **الحكم على نفسه كما يصرّح بشرعية ما** التزمه في وصيته، **فيعلن** تمتّعه بكامل قواه العقلية أثناء كتابتها في وقت معلوم، و**يتّضح** ذلك في قوله:

«**أشهد العبد يوسف المذكور على هذا الإيداع الموصوف الرّب** المودع وحده، فلا شاهد بعده، وأمضى على نفسه حكمه، فلا يخاف أحد ظلمه، قد رضيه ربّا وعبده عبدا، **وذلك بعد أن قرأ ما** سطّره، وعرف سرّه وجهره، وهو صحيح العقل، جيّد النّقل، نافذ **الميز** في تاريخ لا ينساه المودع، ولا يتعدّاه في ساعة المراد من يوم الرّشاد في شهر التّوفيق من عام **التّحقيق**»[2].

ثمّ يعود ليكرّر فكرة تفويض أمر أهله لله **–سبحانه وتعالى** ويختم وصيته بالصّلاة و **التّسليم على رسوله** المصطفى سيّدنا محمد قائلا:

«**وحسب** المودع في وديعته من أودعه **وعليه أوقف رغّيته وتضرّعه، ولم يشرك أحدا معه،** بل أفرده وصرف إليه الهمّ أجمعه، أسأل الله أتمّ الصّلاة وأزكاها وأعمّ البركة **وأتماها لرسوله المصطفى وآله وسلّم تسليما**»[3].

---

[1] عنوان الدراية، م س، ص 332 333.

[2] نفسه، ص 333.

[3] نفسه، ص نفسها.

فهذه الوصية دلّت على مقدرة أبي الفضل الإنشائية، إذ تأنّق في نظم أفكاره بأسلوب واضح بينّ الغرض، وانتقى الألفاظ العذبة فعالج موضوعه بطريقة فنية.

ما يمكن قوله في حدود ما عثرنا عليه من وصايا لم تخرج عن معالجة المواضيع الدينية إلاّ أنّها في نهاية القرن الخامس الهجري ارتقت وما وصية أبي الفضل إلاّ دليل على ذلك.

الفصل الرابع

فنّ التّأليف

لقد أسلفنا في فصل الرّسائل كيف شاعت الكتابة، ومن المعلوم أنّ الجزائر في تلك الفترة زخرت بكتّاب ألّفوا في جميع المجالات الدّينية والسياسية والعلمية والأدبية، غير أنّ التّدوين في حدّ ما عثرنا عليه كان ضئيلا جدّا.

ومن بين الكتب الّتي وقعت بين أيدينا، كتاب مسائل نفوسة للإمام عبد الوهاب بن عبد الرّحمن بن رستم الّذي قال عنه ابن الصّغير: "كان لعبد الوهاب كتاب معروف بمسائل نفوسة الجبل، لأنّ نفوسة كتبت إليه في مسائل أشكلت عليها وأجاب عن كلّ مسألة ممّا سألت عنه، وكان هذا الكتاب في أيدي الإباضية مشهورا عندهم معلوما يتداولونه قرنا بعد قرن، إلى أن لحق الفضل فأخذته عن بعض الرستميين فدرسته ووقفت عليه".[1]

فهذا القول الصّادر عن ابن الصّغير الّذي عاصر الرّستميين يوحي بمدى أهمّيّة الكتاب وقيمته.

ويصّنف هذا الكتاب ضمن المؤلّفات الفقهية لأنّ عبد الوهاب اعتمد في إجاباته على المبادىء الإسلامية وأحكام القرآن والسّنة الّتي شرّعها الله.

ويحتوي الكتاب على 314 سؤالا، قسّم إلى10 مجموعات وقد كان عبارة عن مخطوط، خطّ باليد ووسائل الكتابة التّقليدية من حبر وورق وأقلام، وبفضل تطوّر وسائل الكتابة الحديثة، حقّق من طرف إبراهيم محمد طلاي وأخرجه في الصّورة الّتي هو عليها الآن.

[1] أخبار الأئمة الرستميين، ص39.

أمّا المسائل فكانت موجّهة من شخص يقال له "الحجّاج بن علي" وهذا ما نستشفّه في بداية الكتاب:

"الحمد لله والصّلاة والتّسليم على رسول الله وآله: من عبد الوهاب بن عبد الرّحمن إلى الحجّاج بن علي جواب مسائله عفانا الله وإيّاك، وردت علينا مسائلك فهمتها وذكرت..."[1].

ولا بأس أن نورد بعض المسائل والأجوبة:

سؤال 1 من المجموعة الثّالثة في الأركان الخمسة: "وذكرت رجلا يسمع الآذان، ولا يسعى إليه، أيسعه ذلك ؟"[2]

الجواب: "إنّه ينبغي لكلّ من يسمع الأذان أن يجيبه، فإن تخلّف لعذر أو لحاجة لابدّ منها وبعذر فالله أولى بالعذر، وإن كانت الصّلاة أهلا أن تؤثر على حوائج الدّنيا"[3].

فالإمام عبد الوهاب باشر في الإجابة دون الإطالة والتّعليل مبيّنا الحكم الشّرعي بإيجاز، لأنّ هذا السّؤال لا يحتاج إلى الإسهاب، فمن واجب المؤمن إجابة الآذان من أجل الصّلاة.

وفي موضع آخر نجده أطال في الإجابة بالتفسير والتّعليل مستشهدا بالآية الّتي تخدم المعنى، وهذا ما سنلمحه من خلال هذه المسألة:

---

[1] كتاب مسائل نفوسة، تأليف :الإمام عبد الوهّاب بن عبد الرّحمن بن رستم، تحقيق و ترتيب: إبراهيم طلاي، المطبعة العربية 1991م، ص36.

[2] نفسه، ص 58.

3نفسه، ص نفسها.

سؤال 12 من المجموعة الرّابعة في الإيمان والنّذور: "وذكرت رجلا حرّم على رجل دخول بيته وللمحرّم عليه في ذلك البيت ضيعة متاع، طعام أو دقيق، أو حلف له لا يخرج ضيعته، أله أن يقتحم في بيته بغير إذنه فيخرج ضيعته أم لا ؟"[1]

الجواب: "إنّ الله تبارك وتعالى قال: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تدخُلُوا بُيُوتًا غَيْر بُيُوتِكُمْ حَتَّى تسْتَأنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا**[2] الآية: التّسليم ثمّ الاستئذان، فإن أذن له بالدّخول دخل وإن أبوا من الدّخول يسألون إخراج ضيعتهم والأمتعة إلى أهلها، فإن أبوا من إخراج الضّيعة والأمتعة استعدى لهم السّلطان فيأمرهم بإخراج الضيّعة بالرّغم لا بالرّضى، فإن أبوا من السّلطان الدّخول ليوم وإخراجه ضيعة القوم بعدما تبيّن لهم في سيرتهم ضيعة وأمتعة، وكذلك إن لم يمكن السّلطان يحجز بين النّاس أن تؤخذ ضيعتهم كان لهم أن يقتحموا عليه ويأخذوا ضيعتهم من بيّنة"[3].

الملاحظ أنّ هذه الإجابات تراوحت بين الإيجاز والإطناب في بيان الحكم الشّرعي، وبين الإطالة والتعليل والاستدلال وذلك حسب طبيعة السّؤال وحجمه، كما أنّ أسلوب عبد الوهاب مباشر، إذ انتهج نفس الطريقة الّتي انتهجها في كتابة خطبه ورسائله وهي الطّريقة السّهلة الواضحة، فظهرت شخصية الإمام عبد الوهاب المتفقّهة في الدّين العالمة بأحكام القرآن والملتزمة بالعقيدة والمتزوّدة بالثّقافة الإسلامية من خلال كتابه.

[1] مسائل نفوسه، م س، ص 96.
[2] سورة النّور، الآية 27.
[3] ا مسائل نفوسة، ص 96.

ولقد سار على دربه ابنه أفلح إذ له جوابات عن مسائل فقهية، وهو عبارة عن مخطوط؛[1] كتب بأسلوب سهل واضح المعالم، فكان امتدادا لكتاب مسائل نفوسة.

وبما أنّ الدّولة الرّستمية لها تاريخ وعرفت بثوراتها وحروبها وانتصاراتها، وبرجالها الأبطال، فقد استقطبت اهتمام ابن الصّغير الّذي ألّف لها كتاب أخبار الأئمّة الرّستميين" إذ أطلعنا على سير الأئمّة الرّستميين وتاريخهم الحافل بالمجد والقوّة، فتعرّض لأحوال الأئمّة وسياستهم الواحد تلو الآخر، غير أنّه لم يتطرّق لسيرة اليقظان أبي اليقظان، ممّا طرح عدّة احتمالات، فربّما يكون ابن الصّغير قد أنهى كتابه قبل تولية اليقظان الحكم، أو ربّما لم يصل إلينا الكتاب كاملا...

ولقد خصّص كتابه للحديث عن تاريخ تيهرت وما اعتراها من فتن وثورات ابتداء من عهد الإمام عبد الوهاب، الّذي تمّ على يديه افتراق الإباضية كما أسلفنا، دون أن ينسى ذكر فضل أولئك الأئمة وشجاعتهم وورعهم.

فاهتمّ ابن الصّغير بالتّأريخ لأنّه: «فنّ عزيز المذهب جمّ الفوائد، شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتىّ تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدّين والدّنيا»[2].

وبذلك كان ابن الصّغير مؤرّخا، تقول وداد القاضي في هذا الصّدد: «القراءة الدّقيقة لتاريخ ابن الصّغير تدلّ على أنّ ابن الصّغير لم يكن مجرّد راوية التّاريخ وإنّما كان مؤرّخا حقّا»[3].

---

[1] جوابات الإمام أفلح بن عبد الوهّاب، جمعية أبي إسحاق أطفيش لخدمة التّراث، غرداية 1422ه 1001م.

[2] المقدّمة، ابن خلدون، ص 12.

[3] مجلّة الأصالة: مقال بعنوان ابن الصّغير مؤرّخ الدّولة الرّستمية، العدد45، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر 1387ه 1977م، ص44

كما احتلّت الرّواية الشّفوية الجزء الأكبر من الكتاب، ابتداء من عهد عبد الرّحمن ابن رستم إلى غاية أواسط عهد أبي اليقظان، وذلك لاستعماله الصّيغ التّالية: أخبرني بعض الإباضية، أخبرني جماعة من الإباضية وغيرهم، قال لي جماعة ممّن شافهني وكلّمني، إذ كان يتلّقى تلك الأحداث التّاريخية عن طريق الإخبار، فكانت المشافهة هي المصدر الأوّل في كتابه.

وقد ذكر اسم أحد روّاته حيث يقول: "حدثني أحمد بن بشير قال: ضرب أبو اليقظان سرادقه لحدث أراده وبرز بنفسه إلى سرداقه، وقال: وعلم النّاس بخروجه فخرج إليه الفقهاء والقرّاء و ضربوا أبنيتهم حول سرادقه"[1].

فهذا القول الصّادر عن ابن الصّغير يوحي بأنّ أحمد بن بشير عاش في عهد أبي اليقظان، وهذا ما يؤكّد قول عبد الكريم جودت بأنّ "أحمد بن بشير ظهر في تيهرت في عهد أبي اليقظان واتّصل بعلمائها كابن الصّغير"[2].

وابن الصّغير ذكر بنفسه أنّه عاصر أبا اليقظان في أواخر عهده، ويتّضح ذلك من خلال قوله: "وقد لحقت أنا بعض أيّامه وإمارته وحضرت مجلسه"[3].

ممّا يدلّ على أنّه اعتمد كذلك على المشاهدة كمصدر ثان، أمّا أسلوبه في كتابة أحداثه التّاريخية فكان سهلا واضحا، بعيدا عن التكلّف والتّعقيد، ممّا جعل مبارك الميلي يعلّق عليه بقوله: "وهو كتاب لغته قريبة من العامية لكنّه المادّة الوحيدة لهذه الدّولة"[4].

---

[1] أخبار الأئمة الرستميين، ص 83.

[2] العلاقات الخارجية للدّولة الرستمية، ص 173.

[3] أخبار الأئمة الرستميين، ص80.

[4] تاريخ الجزائريين القديم و الحديث، ج2، ص 90.

غير أنّ محمود إسماعيل يصف كتاب ابن الصّغير قائلا: «إنّ أسلوبه ومنهجه كما يتّضح في تاريخه للدّولة الرّستميّة ينم عن طول باع في ميدان التّاريخ»[1].

كما تطرّق ابن الصّغير في كتابه إلى ذكر بعض ملامح الحياة الفكرية في عهدي أبي اليقظان وأبي حاتم، وأشار إلى المناظرات الّتي كانت تعقد قائلا: «أنّ الفقهاء تناجت المسائل بينهم وتناظرت واشتهت كلّ فرقة أن تعلم ما خلفتها فيها عاقبتها»[2] بل «كان هذا وقودا صالحا لإشعال المناظرة وحدّتها حياة عنيفة قوية»[3].

وقد ظهر هذا الأديب في كتابه فقيها أيضا له دراية بالمسائل الكلامية من خلال مناظرته لرجل من الإباضية يسمّى سليمان ويكنى بأبي الرّبيع حول مسألة فقهية بحتة تتعلّق بنكاح الصّغريات، وكان التّفوّق فيها لابن الصّغير إذ دعّم كلامه بالحجة من القرآن الكريم والسّنة[4].

فعلى الرّغم من أنّ المصادر لم تذكر لنا حياة ابن الصّغير ولا نعرف عنه إلاّ القليل بدا من كتابه ذا ثقافة واسعة جمعت بين الدّارية بفن التّاريخ والمعرفة الفقهية الخالصة.

وبالرّغم من أنّ أبا زكرياء من علماء القرن الخامس الهجري، فإنّه لم يتجاهل تاريخ الإباضية في كتاب عنونه بـ "سير الأئمة وأخبارهم" المعروف بتاريخ أبي زكرياء الّذي قال عنه عادل نويهض بأنّه «أقدم أثر تاريخي للإباضيين في المغرب العربي حتى عصر المؤلّف»[5]. إذ ألف لهم كونه إباضي المذهب، فأغفل الحديث عن ملوك بني حماد، ممّا يدلّ على أنّ النّزعة المذهبية الإباضية ظهرت حتى في كتابه.

---

[1] الخوارج في المغرب الإسلامي، بيروت، 1976م، ص 09.

[2] أخبار الأئمّة الرستميين، ابن الصّغير، ص 102.

[3] ضحى الإسلام، أحمد أمين، ج2، مكتبة النّهضة العربية المصرية ط7، ص 55.

[4] ينظر أخبار الأئمة الرستميين، ص 102 و ما بعدها.

[5] معجم أعلام الجزائر، ص 341.

ولقد اعتمد أبو زكرياء هوالآخر على الرّواية الشّفوية فاستعمل الصّيغ الدّالة على ذلك كقوله: بلغنا، ذكر غير واحد من أصحابنا، حدّث غير واحد، كما أشار إلى بعض روّاته وهو سليمان بن يخلف المزاتي، وكان أحيانا يستعمل طريقة العنعنة في سيره وأحاديثه مثل قوله: «حدّث أبو الرّبيع بن يخلف، عن أبي عبد الله محمّد بن بكر –رضي الله عنه عن الشّيخ أبي نوح سعيد بن زنغيل–رضي الله عنه أنّه...»[1]

فربّما استعمل هذه الطّريقة لتأثّره بطريقة ابن هشام في السّيرة النّبوية، أمّا أسلوبه فكان مباشرا واضحا بعيدا عن التّوشية والتّصنيع.

وما يمكن قوله، فإنّ ما عثرنا عليه من مؤلّفات لكتّاب جزائريين آنذاك، وبالرّغم من أنّ التّدوين كان ضئيلا مقارنة مع كثرة الأدباء والعلماء والمؤرّخين والفقهاء فإنّ تلك الكتب يرجع لها الفضل الكبير، لأنّها كانت سندنا في هذا البحث.

من خلال استعراض هذه الفنون النّثرية يتّضح أن تلك النّصوص كتبت بأسلوب يساير العصر ويواكب الظّروف، فكان التّدرّج في معالجة المواضيع، إذ إنّه في العهدين الرّستمي والفاطمي كثرت المواضيع ذات النّزعة الدّينية والمذهبية، أمّا في العهد الصنهاجي بطوريه الزيري والحمادي فقد عولجت المواضيع الأدبية البحتة بطريقة فنية.

وفيما يخص المناظرات، وإن ساعدت على تفتّح الفكر المذهبي وأمدّته بآراء واجتهادات، ففتحت بذلك مجالا للحرّية إلاّ أننا لم نعثر عليها، بل عثرنا فقط على ما أورده ابن الصّغير من مناظرتين في كتابه، كما أشارت بعض المصادر إلى مناظرة مهدي النّفوسي،

[1] ينظر معجم أعلام الجزائر، م س، ص 253.

لكن لم يذكرها بحذافيرها، لذلك لم نورد لهذا الفنّ فصل، وبالنّسبة للمقامات لم يذكر لها أي أثر.

وخلاصة القول، إنّ الكتّاب الجزائريين اهتموّا بالنّثر إلاّ أنهم لم يبتكروا فنّا نثريّا خاصّا م، و إنّما انتهجوا نهج الفنون النّثرية الّتي كانت سائدة في غير بيئتهم الجزائريّة.

الباب الثالث

الخصائص الفنية للأدب الجزائري القديم من مطلع القرن الثّاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري

الباب الثالث:

الخصائص الفنية للأدب الجزائري القديم من مطلع القرن الثّاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري

الفصل الأوّل: اللّغة

أ الشّعر

ب النّثر

الفصل الثاني: الإيقاع

أ الشّعر

ب النّثر

الفصل الثالث: الصورة الفنية

أ الشّعر

ب النّثر

الفصل الرابع: الاقتباس والتضمين

أ الشّعر

1 الأثر الإسلامي

2 الأثر الأدبي

ب النثر

1 الأثر الإسلامي

2 الأثر الأدبي

لكل أدب خصائص فنية يتميز بها تبعا لظروف العصر وطبيعة البيئة التيّ يعيش فيها الأديب، لكن هذا لا ينفي من وجود خصائص مشتركة لا يمكن لأي أديب الاستغناء عنها، وبما أننا أمام عدد قليلمن النّصوص الأدبية الجزائرية التيّ قيلت في تلك القرون الطويلة، ويتعذر علينا تجديد جميع الخصائص، فإنّنا سنقف عند أبرز الظواهر الفنية التيّ ميزت هذا الأدب شعرا ونثرا، والمتمثلة في:

الفصل الأول: اللّغة

الفصل الثاني: الإيقاع

الفصل الثالث: الصّورة الفنية

الفصل الرابع:الاقتباس والتضمين

الفصل الأول

اللّغة

أ- الشّعر:

إنّ اللغة هي الوسيلة الأولى الّتي يعبرّ بها كلّ شخص عن أفكاره و أحاسيسه وما يختلج في نفسه وفقا للأحداث الّتي يمر بها في حياته، فتكون لغته إمّا عادية كالكلام الّذي نتحدث به في حياتنا اليومية، وإمّا فنية راقية كلغة الأديب الّذي يحرص دائما على توفير الألفاظ الّتي تنسجم تمام الانسجام مع معانيه لأنّ «خير الكلام ما كانت ألفاظه قوالب لمعانيه»[1] «فاللّفظة صوت وضع ليكون رمزا للمعنى»[2]، كما أنّ الأديب ينتقي ألفاظه من بيئته والّتي تتماشى مع طبيعة ظروف الحياة، وتعبرّ عن الحالة الّتي يعيشها بطريقة فنية متميزة.

وهذا ما نجده عند الأدباء الجزائريين في الفترة التي غطّاها بحثنا هذا، فشعراء الوصف جعلوا من مناظر الطّبيعة الخلابة لوحات فنية رائعة، إذ إنّ المتأمل في قول ابن هاني واصفا باقة من الزّهور:

الوَرْدُ فيِ رَامِشْنَةٍ مِنْ نَرْجِسٍ وَ اليَاسَمِينُ وَ كُلُّهُنّ غَرِيبُ[3]

وقول الطّبني مضفيا حلّة جماليه من الفضة على النّهر:

والنَّهْرُ مَكْسُو غلالة فضَّـــةٍ فَإِذَا جَرَى سَيْل فَثوب نَضَّـــارِ[4]

---

[1] البديع في البديع في نقد الشّعر، أسامة بن منفذ، تحقيق: علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ 1987م،ص244.

[2] النّقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار النّهضة، مصر 1973م، ص 253.

[3] ديوان ابن هاني، ص 58.

[4] تاريخ الأدب الجزائري، محمد طمار، ص 93.

وقول ابن قاضي ميلة منبهرا ببدائع الشّجرة:

جَلَتْ بعُودٍ يُنَاغِيهَا وَ يُسْعِدُهَا انْظُرْ بَدَائِعَ مَا يَأْتِي بِهِ الشَّجَرُ

غَنَّتْ عَلَيْهِ ضُرُوبُ الطَّيرِ سَاجِعَةً حِيناً فَلَمَّا ذَوَى غَنَّى بِهِ البَشَرُ[1]

و قول ابن رشيق واصفا الشّتاء:

حَلَبَ حَكَتْ ثَكْلَى أُصِيبَت بِوَاحِدٍفَعَاجَتْ لَهُ تَحْوَ الرِّيَاضِ عَلَى قَبْرِ[2]

و كذلك قول ابن حمديس متغنيا بحسن صنع الأسد الّتي سكنت بركة من الماء:

وَ ضَرَاغِمسَكَنَتْ عَرِينَ رِئَاسَةٍ تَرَكَتْ خَرِيرَ المَاءِ فِيهِ زَئِيرَا

فَكَأَنَّمَا غَشَى النَّضَارُ جُسُومَهَا وَابْلَةَ فِي أَفْوَاهِهَا البِلَّوْرَا[3]

يلاحظ أنّ هذا المعجم اللّغوي المتكون من (الورد، نرجس، الياسمين، النهر، فضة، سيل، نضّار، الشّجر، الطّيور، ساجعة، سحاب، الرياض، ضراغم، خرير الماء، البلّورا ...) دلّ على الطبّيعة من ناحيتها الخضراء الزاهية بألوانها اللّامعة، فجعلوا من الجماد حركة، ومن الصّورة حياة تحرّك الأحاسيس وتبعث في نفس المتلقي غبطة وسرورا، وهذا ما يعرف بـ «محاملة الترّف الخالي من كلّ بصيرة إنسانية باطنة على حساب البداوة أو الفطرة السّاذجة الّتي تحتضن فيها النّفس أهون المخلوقات وتشّبع حنينها الدّائم إلى التّنصّل من وثائق البريق المتوهّج النّافع، و شواهد الحضارة المادية، ولوازم الترّف الثّقيل الّذي يخلط بين المعايير»[4].

[1] وفيات الأعيان، ابن خلكان، مج5، ص 348.

[2] ديوانه، ص 78.

[3] ديوانه، ص 484.

[4] الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1983م، ص 5.

ومثل هذه الألفاظ للعبرّة عن الجمال، نجدها عند الشّعراء الّذين تغنّوا بحسن المرأة وبهائها، من نظرات معبرّة جميلة و بياض للوجه و احمرارللخدين الّذي يدلّ على الحياء، كقول أحمد بن الفتح في مقدمته الغزلية عن قينة بصرية جمعت بين حسن الخَلق و الخُلق:

قَبَّحَ الإلَهُ اللَّهْـو إلاّقَيْنَـــةً بَصَرِيَةً فيِ حُمْرَةٍ وَ بَيَـلضِ
الخَمْرُ فيِحَظَاتِهَا وَ الوَرْدُ فيِ وَجَنَاتِهَاالكَشْحُ غَيْرُ مُفَاضِ
فيِ شَكْلِ مُرْجِيٍّحِوُنُك مُهَاجِرٍ وَ عَفَافِ سُنِيٍّ وَ سَمْتِ إِبَاضِ[1]

أو الألفاظ الّتي تدلّ على دلالها وسحر عيونها، مثل قول علي بن أبي الرّجال:

مَرَّ بِنَا يَهْتَـزُ فيِ مَشْيِـــهِ مِثْلَاهْتِزَازِ الغُصنِ الرَّطْـبِ
فَمقْلَتِي تَرْتَـعُ فِي حُسْنِـهِ وَ مُقْلَتَاهُ أَحْرَقَتْ قَلْـــبِي[2]

وفي المقابل، نجد بعض الشّعراء وظّفوا لغة الذّمّ والضّجر، فانتقوا الألفاظ الدّالة على القبح و الاشمئزاز النّابعة من تجربتهم القاسية وظروفهم الصّعبة الّتي عاشوها في مكان ما، وفي هذا المعنى يقول سعيد بن واشكل التّاهرتي هاجيا مدينة تنس:

إِلَى تنسذَاتُ النُّحُوسِ فَإِنَّهَـــا يُسَاقُ إِلَيْهَا كُـلُّمُتْنَقِصِ العُمْـــرِ
هَوَ الدَّهْوُ السِّيَافُ و المَاءُ حَاكِم وَ طَالِعُهَا المَنْحُوسُ صمصامة الدَّهْرِ
بِهَاَدالبَرْغُوثُ يَحْمِلُ رَاجِـــلاً وَ يَأْوِي إِلَيْهَا الذِّئْبُ فيِ زُمَرِ الحَشْرِ[3]

[1] المسالك و الممالك، البكري، ص 110.
[2] العمدة، ابن رشيق، ج2، ص 60.
[3] المسالك و الممالك، البكري، ص 62.

وبما أنّ الشّعراء الجزائريين عاشوا كثيرا من المآسي والآلام كفقدان الأهل وتدمير المدن وفراق الحبيبة، فإنهم وظفوا لغة البكاء والتفجّع والحرقة والأسى، فانظر إلى هذه الأبيات الّتي تذوب حرقا و تنفجر ألما، بحيث يقول بكر بن حماد:

بَكَيْتُ عَلَى الأَحِبَّةِ إذ تَوَلّوا وَ لَوْ أَنِّي هلكْتُ بكوا عَلَيَّا
فَيَا نَسْلِي بَقَلؤُكَ كَانَ ذخْرًا وَ فَقْدُكَ قَدْ كَوَى الأَكْبَادَ كَيَّا[1]

ويقول سعيد بن واشكل شاكيا حالته:

نَأَى النَّومُ عَنِّي وَاضْمَحَلَّتْ قوَى الصَّبْرِ وَ أَصْبَحْتُ عَنْ دَارِ الأَحِبَّةِ فِي أَسْرِ[2]

ويقول الطّبني متأسيا على استحالة عودة حبيبته إليه:

هَجَرَتْنَا، فَمَا إِلَيْهَا سَبِيل غَيْرَأَنَّا نَقُولُ كَانَتْ وَ كُنَّا[3]

وفي المعنى نفسه تقريبا، يقول ابن حمديس حزينا على فراق جاريته جوهرة:

وَاوَحْشَتَا مِنْ فُرَاقِ مُؤْنِسَةٍ يُمِيتُنِي ذِكْرُهَا وَ يُحْيِيهَا
أَذْكُرُهَا وَ الدُّمُوعُ تَسْبِقُنِي كَأَنِيّ لِلأَسَى أُجَارِيهَا[4]

و يقول أبو حفص عمر بن فلفول عن نأي حبيبته:

وَ قَالُوا إِن عَنْكَ الحَبِيبُ فَمَا الَّذِي تَرَاهُ إِذَا بَانَ الحَبِيبُ المُوَاصِلُ[5]

---

[1] الدر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش، ص 87.
[2] المسالك و الممالك، البكري، ص 62.
[3] المغرب في حلى المغرب، المغربي، ج2، ص 207.
[4] ديوانه، ص 461.
[5] الخريدة، الأصفهاني، مج2، ص 179.

إنّ المعجم اللّغوي المتكوّن من هذه النّماذج (بَكَيْتُ ، بكوا، فقدك، كَوَى الأكبَادَ، كَيًّا، نَأَى النَّوْمُ، هجرتنا، كانت وكنّا، واوحشتا، فراق، الدّموع، الأسى، نأى عنك الحبيب، بان...)يدلّ على الحزن العميق، النّابع من عاطفة صادقة مجروحة آلمها الفراق والبعد.

غير أنّ بعض الشّعراء وجدوا من يضمّد جراحهم ويخفّف آلامهم، فلجأوا إلى لغة الصّبر الّتي تدل على استقرار النّفس وهدوئها و الإيمان بقضاء الله و قدره، كقول بكر بن حماد راثيا ابنه:

وَلَوْ أَنَّ طُولَ الحُزْنِ مِمَّا يَرُدُّهُ لَنَادَمَنِي حُزْنٌ عَلَيْهِ طَوِيلُ
بَلْ رُبَّمَا دَارَتْ عَلَى القَلْبِ لَوْعَةٌ فَيُرْجِعُهَا هُنَالِكَ صَبْرٌ جَمِيلُ[1]

و قول أبي حفص عمر بن فلفول:

فَقُلْتُ أَلاَ لِلصَّبْرِ مَفْزَعُ عَاشَقٍ وَ لَلصَّبْرُ أَحْرَى بِي إِنْ غَالَ غَائِلُ
سَأُصْحَتَّى يَفْتَحَ اللهُ فِي الهَوَى بِوَصْلِ حَبِيبٍ طَالَ فِيهَا الطَّوَائِلُ[2]

ونظرا لتشبّع الشّعراء الجزائريين بالثقافة الإسلامية، وتدبّرهم في الكون بأنّ كل شيء زائل، فإنهم وظفوا لغة تذكير النفس بالموت وتجهيزها من أجل الاستعداد للحياة الأبدية، وفي هذا المعنى يقول بكر بن حماد معتبرا من الأمم السابقة الّتي فتكها الدّهر:

نَهَارٌ مُشْرِقٌ وَ ظَلاَمُ لَيْلٍ أَلَحَّا بِالبِلَى وَ السَّوَادِ
هُمَا هَدَّمَا دَعَائِمَ عَمَرَ نُوحٍ وَ لُقْمَانَ وَ شَدَّادَ بْنَ عَادِ[3]

[1] رياض النّفوس، المالكي، ج2، ص 421.
[2] الخريدة، الأصفهاني، ص 179.
[3] رياض النفوس، المالكي، ج1، ص 507.

ويقول ابن حمديس الصّقلي معترفا بكثرة ذنوبه معاتبا نفسه على مسايرة الأهواء:

يَـا ذُنُوبِـي ثَقَّلْتِ وَاللهِ ظَهْـــرِي بَـان عُذْرِي فَكَيْفَ يُقْبَلُ عُذْرِي[1]

وقد تطرق بعض الشّعراء إلى توظيف لغة الدّعاء التّي تراوحت بين الدّعاء بالنّصر و الحفظ للممدوح، ومناجاة الرّب وطلب العفو والمغفرة، ومن ذلك قول ابن قاضي ميلة داعيا لثقة الدولة الكلبي بالرّعاية:

رَعَى اللهُ مَنْ تَرْعَى حِمَى الدّينِ عَيْنُهُ وَ يَحْمِي حِمَى الإِسْلاَمِ وَ اللَّيْلُ أَغْضَفُ[2]

وقول ابن النّحوي طالبا من الله أن يكشف عنه ضره:

لَبِسْتُ ثَوْبَ الرَّجَا و النّاس قَدْ رَقَدُوا فَقُمْتُ أَشْكُوإِلَى مَوْلاَيَ مَا أَجِدُ
وَ قُلْتُ يا سَيدي يَا مُنْتَهَى أَمَلِـــي يَـا مَنْ عَلَيْكَيُشَفَ الضَّرُ أعْتَمِـدُ
أَشْكُو إِلَيْكَ أُمُوراً أَنْتَ تعلَمُهـــــَا مَـالِي علَيْـهَا صَبْروَ لاَ جَلَـــــدُ[3]

كما تراوحت بين الدّعاء بالويل واللّعنة والسّخط وطلب اللّاعفو من الله على الشّخص المذنب، و هي لغة نبعت من نفس غاضبة، كقول بكر بن حماد:

فَلاَ عَفَـا اللهُ عَنْـهُ مَـا تحمـلـــه و لاَ سَقَـى قَـبـر عمـران بن حطانا[4]

وما يمكن قوله إنّ لغة الدعاء وإن اختلفت مضامينها، فإنّها صبّت في قالب واحد هو اللّجوء إلى الله والتّضرع إليه.

---

[1] ديوانه، ص 332.

[2] وفيات الأعيان، ابن حلكان، مج5، ص 161.

[3] البستان، ابن مريم، ص 301.

[4] الدر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش، ص 66.

ومن خلال ما استعرضناه من مختارات شعرية، وما تطرقنا إليه من أفكار سواء تلك الّتي ذكرناها أم لم نذكرها، فإنّها دلت على شاعرية اصحابها و تمكّنهم من اللغة وقدرتهم على انتقاء الألفاظ العذبة الّتي تحمل المعاني البليغة.

ب النّـثـــر:

لقد عالج الأئمة الرستميون قضايا دينية أكثر ممّا هي ادبية، لانهم كانوا ينطلقون من الثّقافة الإسلامية البحتة، فضمّنوا نصوصهم النثرية عبارات وألفاظا خيّل لنا في بادئ الأمر أنّها من كلامهم، ولكن في أغلبها ما هي إلاّ **اقتباس و تضمين من القرآن**، لما كانوا يجدونه فيها من حلاوة وتزكية لتلك النّصوص، كما سنرى في فصل **الاقتباس والتّضمين**.

غير أنّ هذا لا ينفي توظيفهم لغة الحمد والشّكر والتّضرّع إلى الله **والوعظ والإرشاد والتّدبر** في عظمة الخالقالّتي عبرّ ت عن نزعتهم الدينية.

كما أنّ رسائل الإمام أفلح بن عبد الوهاب اتسمت بالتّنوع في اللّغة، فرسالته **الموجهة** إلى نفاث مثلا، وظف فيها لغة التّهديد والإنذار في قوله:

"فـإن كنت كما كتب به إلينا عمالنـا، فأنـت محقوق بالبـراءة، ومقـصي مـن جماعتنا، لأنّنا ما **كتبـنا كتابنا ذلك إلاّ علـى كلّ من ابتـدع** في ديننا خـلاف أسلافنا، وزعم أنّ عمالنا أساقفـة، وأنّهم لا طاعة لهم في حال كتمانهـم، فهو محقوق بالبراءة ومقـصي من جماعة المسلمين، فإن تكن أنت منـهم، فأنت الّذي أبحـث لنا البـراءة منـك، وأحللت بنفسك، ما لابدّ أن نفعله بك وبغيرك"[1].

[1] الأزهار الرياضية، الباروني، ج2، ص 265.

فانتقى الألفاظ المشبعة بالوعيد والعبرّة عن عقاب نفاث وهدر دمه في حال انشقاقه عن الطّاعة.

وفي المقابل نجده وظّف لغة الهدوء والملاينة في قوله:

"وإن لم تكن كذلك، فأظهر الانتفاء من ذلك وكذّب عن نفسك ما قيل عنك، لتكون عندنا بالحالة الّتي تستحقها وتستوجبها"[1].

وبالرّغم من غلبة النّزعة المذهبية الخارجية، خصوصا في خطبة أحمد بن منصور، فإنّها لم تخل من الألفاظ الموجزة والمعاني الرقيقة الّتي أدّت الغرض المقصود، كقوله:

"النّاس فريقان: عالم متكبر، وجاهل مستظهر، فالعالم الّذي قد سبق له الخذلان، ينزعه الشّيطان ويجمح به الطّغيان، فيستنكف عن الدّخول في دين الإيمان، والجاهل مستنكع في غيه، متحير في أمره، منتظر ما يكون من غيره، فلم يزالا يعكفان على الأزلام، ويعتصمان بالأصنام، والرّسول يرعى رعى السوام ويدعوهم إلى دار السّلام، فلم يزل –صلّى الله عليه وسلم يعظهم بالآيات ويقرعهم بالمعجزات حتىّ استقام من أراد الله توفيقه"[2].

نلاحظ تسلسلا في الأفكار وسلاسة في اللّغة، إذ أراد الخطيب أن يبينّ أصناف النّاس الّذين كانوا في الجاهلية وهما صنفان: عالم متجبر وجاهل ضائع، وبمجيء الرّسالة المحمدية وفضل الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم دخل الكثير من هذين الصّنفين في دين الله.

[1] الأزهار الرياضية م س، ص 265.

[2] أخبار الأئمة الرستمين، ابن الصّغير، ص 108.

وقد اتّسمت خطبة المعز الفاطمي هي أيضا بالنّزعة الشيعية العلوية، لكنّها في الوقت نفسه امتازت بجزالة اللّفظ، وبلاغة المعنى، فلمّا رثى والده، وظّف لغة الحزن والحرقة لما سبّبته تلك الوفاة من جرح عميق كقوله: «إن القلق وشدّة الحرق، عليك بالغ يا أبتاه، يا سيداه ... عظم والله علينا المصاب بك، وحلّ البلاء، وعدم العزاء لفقدك، وقصرت الألسن عن إحصاء شمائلك لفقدك»[1].

غير أنّ تدبره في الوجود وتأمّله فيه أدّى إلى انكسار لغة الحزن أمام لغة الصّبر الّتي دلّت على مدى إيمانه بقضاء الله وقدره وخضوعه للأمر الواقع، وذلك في قوله:

لكنّي فكّرت ونظرت وتدبّرت فلم أر لي و جها استوجب درجتك، واللّحاق بشرفك سوى الصّبر و الاحتساب، فتجلدت وصبّرني ربّي فصبرت وغلب عليّ اليقين فأمسكت، وقلت إنّا لله وإنّا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم، والحمد لله على ما أبلى والشّكر على ما أدلى»[2].

أمّا أبو العباس فضل بن نصر النّاهرتي، فقد عالج موضوعا أدبيا بحتا إذ جاءت رسالته حسنة الصّنعة، متخيرة الألفاظ، واضحة المعاني، فلمّا عبرّ عن اشتياقه لصديقه مثلا، استعمل الألفاظ الدّالة على الشّوق والحنين بطريقة فنية:«وصل كتابك، فجدّد شوقا إلى رؤيتك، وهيّج صبابة إلى الاجتماع بك، وخيّل لي على شحط الدّيار، وبعد المزار شخصك، وصور لي على نأي المساوف بيني وبينك مثالك»[3].

[1] المعز لدين الله الفاطمي، عارف تامر، ص 65.
[2] نفسه، ص نفسها.
[3] رياض النفوس، المالكي، ج2، ص 420.

ممّا دلّ على تمكّنه من اللّغة وناصية البيان، شأنه في ذلك شأن كتّاب الدّولة الصّنهاجية بطوريها الزّيري والحمادي، إذ عالجوا قضايا أدبية، فكانت نصوصهم النّثرية رصينة العبارات، منتقاة الألفاظ، رقيقة المعاني، بعيدة عن الاسترذال والتّكلف، تحدث أثرا و وقعا في النّفوس، كقول ابن الربيب موظّفا لغة العتاب واللّوم عندما تحدّث عن تفريط الأدباء الأندلسيين وتقصيرهم في تدوين مآثر بلدهم:

"وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم، كلّ امرئ قائم في ظلّه لا يبرح، وثابت على كعبه لا يتزحزح، يخاف إن صنف أن يعنف ... لم يتعب نفسا أحد منهم في مفاخر بلده، ولم يستعمل نقسا في فضائل ملوكه، ولا بلّ قلما بمناقب كتّابه ووزرائه، ولا سوّد قرطاسا بمحاسن قضاته وملوكه"[1].

فالمستقطب للانتباه، أنّ ابن الربيب وظّف الألفاظ والعبارات الّتي دلت على تكاسل الأندلسيين واهمالهم الكتابة عن فضائل بلدهم بأسلوب فني متميز.

وبالصّياغة الفنية نفسها، نسج ابن العالمي رسالته، موظّفا عبارات الشّكر والامتنان والاعتراف بالفضل والجميل لذلك الصّديق الوفي للدولة:"ولمّا كنت في مضمار سلفك جاريا، وفي قضاء طاعتنا متباهيا، رأينا أن نثبت مبانيك، ونؤكد أواخيك"[2].

والشّيء عينه، نجده في رسالة ابن دفريو من جمالية أسلوب وانتقاء ألفاظ ووضوح معان، كتوظيفه الألفاظ الدّالة على الخيانة والمكر والخديعة في قوله: "وبعد، فإنّه لمّا أراد الله أن يقع

[1] الذخيرة، ابن سبام، مج1، ص 135.

[2] الخريدة، الأصفهاني، قسم شعراء المغرب، ج1، ص 180.

ما وقع لقبح آثار من خان في دولتنا وضيع، **استفز أهل موالاتنا الشنآن، وأغرى** من اصطفيناه **وأنعمنا عليه الكفران**»[1].

إلى غير ذلك من الأفكار الّتي استعملوها في رسائلهم، ووظّفوها بطريقة أدبية فنية متميزة، وإضافة إلى هذه الرّسائل، نجد وصية أبي الفضل، الّتي وإن صبّ موضوعها في **الإيمان بالله وتفويض جميع الأمور** إليه، **فإنّه لم يحاك أسلوب** القرآن، بل تأنّق في توظيف لغته، فجاءت **وصيته حسنة الألفاظ، بليغة** المعاني، متماشية وما **تقتضيه الوصية.**

وما يمكن قوله إنّ الأدباء الجزائريين شعراء وكتّابا وظّفوا اللّغة الّتي انسجمت مع مضمونها **ومع طبيعة ظروف الحياة المختلفة،** لما استوحوه من مواقفهم وتجار **م، فكانت لغتهم سهلة واضحة** بيّنة **الغرض.**

[1] الخريدة م س، ص 180.

الفصل الثاني

الإيـقــاع

أ- الشّـعــر:

يعد الإيقاع الأصل الّذي ينبني عليه أسلوب النّص الأدبي وتلاحم عناصره، فهو يمتزج بالألفاظ امتزاجا وثيقا، إذ إنّ النّغمة الّتي تحدثها اللّفظة وما ينتج عنها من وقع في الأذن، تزيد من جمال الإيقاع وقوّته، والإيقاع نوعان داخلي وخارجي، والأدب الجزائري القديم لا يخلو من هذين الإيقاعين.

وفيما يلي بعض النّماذج لتلك التّكرارات والتـرديدات الّتي أحـدثـت إيـقاعات داخلية، منها قول بكر بن حماد في رثاء ابنه:

بَكَيْتُ عَلَى الأَحِبَّةِ إِذْ تَوَلَّـوْا وَ لَوْ أَنِّي هَلَكْتُ بَكوا عَلَيَّـا
فَيَا نَسْلِي بَقَاؤُكَ كَانَ ذخـــرا وَ فَقْدُكَ قَدْ كَوَى الأَكْبَادَ كَيَّا[1]

فالتّكرار الحاصل بين بَكَيْتُ ، بكوا في البيت الأوّل، وبين كَوَى، كَيَّا في البيت الثّاني أحدث لذّة جمالية أدّت إلى تكوين هذا الإيقاع الدّاخلي.

ويقول الشّاعر متغزّلا:

فَرَاعُ الهَوَى شُغْل وَ مَحْيَا الهَوَى قَتْل وَ يَوْمُ الهَوَى حَوْلٌ بَعْضُ الهَوَى كُلُّ
وَجُودُ الهَوَى بُخْلٌ رُسْلُ الهَوَى عِدَى وَقُرْبُ الهَوَى بُعْدُ وَسَبْقُ الهَوَى مَطْلُ[2]

---

[1] الدرّ الوقاد، محمّد بن رمضان شاوش، ص 87.
[2] البيان المغرب، ابن عذاري، ص 198.

إنّ الإيقاع الدّاخلي في هذين البيتين بينّ ، شكّله تكرار لفظة**الهَوَى** ثماني مرات، حصرت في أربع ثنائيات متناقضة متوائمة، ممّا أدّى إلى حدوث هذه اللّذة كلّها، وقد زاد هذين البيتين جمالا تكرار حرف اللّام سبع مرّات في هذه الألفاظ: **شَغْل، قَتْل حَوْل، كُلّ بخُلْ رُسْل، مَطْل.**

ويقول ابن هاني مادحا جعفر بن علي:

يَا خَيْرَ مُلْتَحِفٍ بِالمَجْدِ وَ الكَـرَمِ و أَفْضَلَ النَّاسِ مِنْ عُرْبٍ مِنْ عَجَمِ
يَا ابْنَ السَّمَدَوِ النَّدَى و المَعْلُوَاتِ مَعًا الحِلْمِ و العِلْمِ وَ الآدَابِ وَ الحِكَمِ[1]

إنّ **الجناس الحاصل بين السَّدَى و النَّدَى وبين الحِلْمِ والعِلْمِ** هُوَ الَّذِي نتج عنه هذا الإيقاع، إضافة إلى تكـرار **حـرف المـيم** خمس مرّات **ممّا** ضاعف من جمال هذا الإيقاع **الشّعري، فحدثت رنّة موسيقية** تستريح لها النّفس، **ومثل هذا الجناس** نجده في قول ابن رشيق:

العَفْوُ فِيمِ فَذَاكَ الصَّارِخُ النَّاعِـــي وَ لاَ أُجِيبَتْ بِخَيْرٍ دَعْوَةُ الـدَّاعِـي[2]

فتفنّنه في تـرديـد **الأصـوات** بين كلمتي **الـدّاعـي و النّاعي وتجانس** الحروف وتلاؤمها، وتكراره لكلمتي **دعوة، الدّاعي** أدّى إلى حدوث انسجام جمالي ونغم موسيقي تستلذه الأسماع.

[1] ديوان ابن هاني، ص 335.
[2] ديوانه، ص 92.

وفي بعض الأحيان، يردّد الشّاعر الكلمة نفسها في البيت الواحد كقول ابن حمديس مادحا المنصور:

ذُو أَيَــادٍ بِــأَيَــادٍ وَصَــلَــتْ كَتَوَالِـي دِيَمٍ بَعْدَ دِيَـــمْ[1]

فترديد كلمة **أياد** مرّتين **وكلمة ديم** مرّتين أكسب البيت لونا من الموسيقى تستحسنها الأذن وتقبل عليها.

ويقول أبو حفص عمر بن فلفول متغزّلا:

فَقُلْتُ أَلاَ لِلصَّبْرِ مَفْزَعُ عَاشِــقٍ و لِلصَّبْرِ أَحْرَى بِي إِنْ غَالَ غَائِلُ
سَأَصْبِرُ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ فِي الهَوَى بِوِلَصِحَبِيبٍ طَالَ فِيهَا الطَّوَائِلُ[2]

إنّ **الإيقاع** الداخلي بين ّ في هذين البيتين، شكلّه تكرار كلمة الصّبر ثلاث مرّات، إذ ردّدها مرّتين في البيت الأوّل، ووظّف الفعل أصبر في البيت الثّاني لأنّ الصّبر هو أمله الوحيد في عودة حبيبته إليه، إضافة إلى التكرار **الحاصل بين غال، غائل** في البيت الأوّل و **طال، الطّوائل** في البيت الثّاني، فهذا التّكرار أحدث تموسقا وانسجاما صوتيا في **المسامع.**

إلى غير ذلك من الموازنات الصّوتية والتّكرارات الّتي أفضت إلى تكوين الإيقاع الدّاخلي وزادت من رنّة الأوزان، ولكن لا تكتمل أجزاء القصيدة إلاّ إذا وفّر لها الإيقاع الخارجي المكوّن من الوزن والقافية، والمتمعن في هذه القصائد والمقطوعات الشّعرية الّتي وردت في البحث، يجدها لم تخرج عن البحور الخليلية المعروفة في الشّعر العربي كالطّويل والبسيط و الكامل وغيرها كما أنّ الأوزان ذات المقاطع الطّويلة هي الّتي كانت أكثر شيوعا في تلك الفترة.

[1] ديوانه ، ص 390.
[2] الخالدة الأصفهاني م ج1، ص 179.

فالشّاعر الّذي يقف وقفة تأملية لاستخلاص العبرة من حال من كانوا أحياء وما آلوا إليه، مذكّرا نفسه بالموت، لابدّ أن يختار وزنا طويل المقاطع الّذي يتماشى مع وقفته الطّويلة تلك ونفسه الطوّيل ونظرته المتأنّية المتدبّرة في الكون، كقول بكر بن حماد:

قِفْ بِالقُبُورِ فَنَادِ الهَامِدِينَ بِهَا مِنْ أَعْظُمٍ بَلِيَتْ فِيهَا وَ أَجْسَادِ[1]*

كما أنّ الشّاعر الّذي يشهد تدمير مدينته ومفارقة الأهل والأحباب أو فراق الحبيبة هو بحاجة إلى وزن طويل المقاطع ليبثّ فيه أحزانه وانفعالاته، فيطلق زفراته وأنّاته علّه يشفي نفسه من الحرقة و الألم، كمرثية ابن رشيق الّتي يقول في مطلعها:

كَمْ كَانَ فِيهَا مِنْ كِرَامٍ سَادَةٍ بِيضِ الوُجُوهِ شَوَامِخِ الإِيمَانِ[2]

إنّ حالة القهر واليأس الّتي انتابت ابن رشيق بعد خراب مدينة القيروان وانهيارها على يدي بني هلال، ولدت في نفسه كثيرا من الأحزان والآهات صبّها في البحر الكامل.

والشّيء نفسه، نجده في قول عمر بن فلفول متغزّلا:

قَالُوا نَأَى عَنْكَ الحَبِيبُ فَمَا الَّذِي تَرَاهُ إِذا بَانَ الحَبِيبُ المُوَاصِلُ[3]

*البحر البسيط.

[1] الدر الوقّاد، محمّد بن رمضان شاوش، ص 80.

[2] معالم الإيمان، الدّبّاغ، ج1، ص 18.

[3] الخريدة، الأصفهاني، ج1، ص 179.

فحالة الحرمان مصحوبة بالحزن الشّديد الّذي أصاب الشّاعر بعد نأي حبيبته لا يشفيها إلاّ البحر الطّويل الّذي "يتّسع لتفرغ فيه العواطف جملة، فهو يتناول الغزل الممزوج بالحسرة، والحساسية الّتي يخالطها شيء من الإنسانية"[1].

أمّا القافية فيعرّفها إبراهيم أنيس قائلا: "ليست القافية إلاّ عدّة أصوات تتكرّر في أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة، وتكرّرها هذا يكون جزءا هامّا من الموسيقى الشّعرية"[2].

وقد وردت القوافي المطلقة بكثرة في الشّعر الجزائري القديم، لأنّه من خلالها يطلق الشّاعر صوته صارخا مستغيثا أو باكيا منفعلا أو فرحا مبتهجا فيريد تعميم ما يحسّ به من حزن أو سرور على جميع من يسمعه، كقول بكر بن حماد:

بَكَيْتُ على الأحِبَّةِ إذْ تَوَلَّوْا وَ لَوْ أَنِّي هَلَكْتُ بكوا عَلَيَّا[3]

وقول ابن هاني:

وَ المُشْرِقَاتُ النَّيِّرَاتُ ثَلاَثَةُ الشَّمْسُ وَ القَمَرُ المُنِيرُ وَ جَعْفَرُ[4]

كما استعملوا القوافي المقيّدة لكن على نطاق ضيّق لأنّها توحي بالهدوء والصّمت والخضوع للأمر الواقع، كقول ابن حمديس:

بَيْتُكَ فِيهِ مَصْرَعُكْ وَ فِي الضَّرِيحِ مَضْجَعُكْ[5]

[1] تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ج3، ص 26.
[2] موسيقى الشّعر، مكتبة الأنجلو مصرية، ط6، 1988م، ص 246.
[3] الدر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش، ص 87.
[4] ديوان ابن هاني، ص 165.
[5] ديوان ابن حمديس، ص 306.

وقد صحب هذه القوافي رويّات شاع استعمالها في الشّعر العربي، وتكيّفت مع جميع المواقف المختلفة كالرّاء والدّال واللاّم والميم والنّون والباء، وفي هذا الصّدد يقول عبد الملك مرتاض: «اهتدينا إلى أنّ الأصوات الرائية والبائية والنّونية والدّالية من أكثر الرويات استعمالا في الشّعر العربي إطلاقا، حيث كنّا لاحظنا مثلا أبا الطيّب اصطنع صوت اللاّم في سبع وأربعين قصيدة والميم في إحدى وأربعين والدّال في أربع وثلاثين و الباء في ثلاث وثلاثين والرّاء في إحدى وثلاثين والنّون في عشرين»[1].

كما اختاروا الضّاد والطّاء رويين لبعض المقطوعات والنّتف الشّعرية، إذ استعملوهما بنسب ضئيلة وذلك لقلّة شيوعهما في القصيدة العربية القديمة، إضافة إلى خلو أشعارهم من الرويّات المهجورة الغثة الاستعمال كالثّاء والخاء والذّال والشّين والظّاء والغين[2].

ب النّثـــــر:

وبالنّسبة للإيقاع في النّثر فهو موجود، و ممّا يمثل ذلك، في تقديرنا، هذا المقطع من خطبة أحمد بن منصور إذ يقول:

«.... فتبارك الله أحسن الخالقين، تعالى أن تطلق في وصفه أراء المتكلفين أو أن تحكم في دينه أهواء المتقلدين بل جعل القرآن إماما للمتقين وهدى للمؤمنين وملجأ للمتنازعين وحكما بين المتخالفين، ودعا أولياؤه إلى إتّباع تنزيله وأمرهم عند التّنازع في تأويله بالرّجوع إلى قول رسوله –صلّى الله عليه وسلّم »[3].

[1] دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي، د، ط، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 51.

[2] ينظر محاضرات في موسيقى الشعر، د زبير دراقي، شريفي عبد اللطيف د ط، د ت، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 111.

[3] أخبار الأئمة الرستميين، ابن الصّغير، ص 106 107.

فمن التّشاكلات الإيقاعية الّتي حلّت النص التّشاكل اللّفظي القائم على الترّادف بين:

المتكلّفين = المتقلّدين.

المتّقيـــن = المؤمنين.

المتنازعين = المتخالفين.

فهذه الألفاظ لها تشاكل صوتي وتوافق معنوي.

أمّا الإيقاع الخارجي في هذا المقطع فقد اتّخذ سيرتين:

سيرة سباعية، تجسّدت في تشكيلة متألّفة من سبعة فواصل متساوية وهي:

الخالقين = المتكلفين = المتقلّدين = المتقين = المؤمنين = المتنازعين = المتخالفين.

وسيرة ثلاثية تجسّدت في تشكيلة إيقاعية متألّفة من ثلاثة فواصل متساوية وهي:

تنزيله = تأويله = رسوله.

و يقول المعز لدين الله الفاطمي في هذا الجزء من خطبته:

"اللهم أخصص الإمام الفاضل والوصي العادل، والبرّ الفاضل والغيث الوابل ذا الآيات المعجزات والعزائم النّاقدات الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات، الصّابر في البأساء والضّراء، حتى طهّر الأرض من جبابرة الأعداء"[1].

[1] المعز لدين الله الفاطمي، عارف تامر، ص 65.

إنّ الإيقاع الداخلي بيّن في هذا الجزء شكّله التّوافق اللفظي والمعنوي بين الفاضل والعادل والوابل فكلّها ألفاظ تدلّ على حسن السّيرة و السّخاء.

والتّشاكل بين الضّراء والأعداء الّتي تصب في معنى واحد و هو الأذى.

أمّا الإيقاع الخارجي فهو مكوّن من ثلاث سير: سيرة رباعية، تجسّدت في تشكيلة متألّفة من أربع فواصل متساوية.

الإمام الفاضل=الوصي العادل= البرّ الفاضل= الغيث الوابل.

و سيرة ثلاثية تجسّدت في تشكيلة متألّفة من ثلاثة فواصل متساوية:

ذا الآيات المعجزات = العزائم النّافذات، الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات.

وسيرة ثنائية تجسّدت في تشكيلة إيقاعية:

الصّابر في البأساء و الضرّاء = طهّر الأرض من جبابرة الأعداء

ومثل هذه الإيقاعات بنوعيها الداخلي والخارجي نجدها عند كتّاب الدّولة الصّنهاجية بطوريها الزّيري والحمادي، نكتفي بذكر جزء من رسالة ابن الرّبيب في قوله:

"ليس بيننا وبينكم إلاّ روحة راكب أو دلجة قارب، لو نفث ببلدكم مصدور، لأسمع ببلدنا من في القبور، فضلا عن الدور والقصور"[1].

[1] الذخيرة، ابن بسّام، ج1، ص 135.

فلفظتي راكب وقارب تحملان معنى واحد وهو السّفر، ولفظتي القبور والقصور لهما نفس الدّلالة والّتي تعني المكان، وتكرار الحروف وتنوعها أفضى إلى تكوين الإيقاع الداخلي.

ولقد اتخّذت الإيقاعات الخارجية في هذا الجزء سيرتين، سيرة ثنائية تمثّلت في تشكيلة إيقاعية وهي:

لم يكن بيننا وبينكم إلاّ روحة راكب = أودلجة قارب.

وسيرة ثلاثية تجسدت في تشكيلة إيقاعية هي:

لو نفث ببلدكم مصدور = لأسمع ببلدنا من في القبـــور = فضلا عن الدّور والقصور.

وخلاصة القول، إنّ الأدباء الجزائريين اغترفوا من الإيقاع الفنيّ بنوعيه الدّاخلي والخارجي وحاولوا جاهدين إحداث تلك التفاعلات الإيقاعية، من أجل إحداث متعة أدبية وفنية في نفس المتلقي، ممّا دلّ على مقدرتهم النّسجية.

الفصل الثّالث

الصّورة الفنية

أ- الشّعر:

تعد الصّورة الفنية " أساس العمل الأدبي"[1] لذلك اهتم بها الادباء، فعبّروا عن انفعالاتهم وعواطفهم مستعملين التّصوير الفني لتقريب المفاهيم الغامضة من المتلقي وجعله يتخيّل المشهد أمامه فيعيش تلك الحالة، وقد استمدوا صورهم من البيئة التي نشاوا فيها وما يتّصل بها من مناظر الطّبيعة الخلاّبة بنوعيها الحية والجامدة؛ لأنّ "للبيئة بصمتها الخاصة الّتي تطبع الأديب بطابعها الخاص و سماتها المتميّزة"[2].

غير أنّ التّصوير في الشّعر أوضح وأبرز "فالشّعر ليس مجرّد تصوير لحظة احمرار وجنات الحبيبين أو رؤية جمال الزّهرة، أو روعة لون الغروب بل الشّعر هو الّذي يمتد سلطانه فيشمل الحياة بأسرها بل وما بعد الحياة"[3]، كون الشّاعر يصف الأشياء كما تبدو له، "لا كما هي في حقيقتها ويلوّنها ليس في أبعادها العادية، ولكن ينظمها في ألوان، ويراها خلال الوسط الخيالي الّذي صنعته الأحاسيس"[4] لأنّ "كلّ ما في الطّبيعة إنّما يحمل طابعا وشخصية في نظر الفنان الكبير، لأن نظرته النّفاذة تخترق الأشياء، فتنفد إلى معانيها الكامنة، و تستجلي ما خفي من مدلولاتها"[5].

---

[1] النّقد الأدبي القديم في المغرب العربي –نشأته و تطوره دراسة و تطبيق د محمد مرتاض، مطبعة اتحّاد الكتّاب العرب دمشق، 2000م، ص 132.

[2] قضّايا الإبداع الفنيّ ، محمد مصطفى أبو الشّوارب، محمود المصري، دار الوفاء، ط1، 2005م، ص 9.

[3] الرؤية المعاصرة في النّقد، محمد زكي العشماوي، دار النّهضة العربية للطّباعة و النّشر، د،ط ،د، ت ص 151.

[4] القول الشّعري، منظورات معاصرة، رجاء عيد، الإسكندرية، منشأة المعارف، د، ط، د – ت ص 43.

[5] مشكلة الفن، زكريا إبراهيم، ، مكتبة مصر، 1988م، ص 62، النص من قول رودان.

وهذا ما نجده في الشّعر الجزائري القديم، إذ تأثّر الشّعراء بما تزخر به الطّبيعة فتفاعلوا معها لإنتاج صورهم، كقول بكر بن حماد، مستمدّا صورته من عالم الحيوان:

أَحْبُو إِلَى المَوْتِ كما يَحْبُو الجَمَلُ قَدْ جَاءَنِي مَا لَيْسَ فِيهِ حِيَل[1]

فالشّاعر لما أحسّ بدنو أجله، وأصبح عاجزا عن التّصرف في الأمور شبه نفسه بالجمل المتهالك، والشّيء عينه نجده عند الطّبني في قوله:

و قَالُوا هَجَاكَ فَقُلْتُ كَلْب عَوَى إِلَى لَيْثِ العَرِينِ[2]

لقد شبه النّمام بالكلب في الخسة والدّناءة بينما شبه نفسه بالأسد لما يتسم به من جرأة وشجاعة.

أمّا ابن هاني فقد شبه باقة منمقة من الزّهور الزّاهية الألوان بثلاثة أصناف من بني الإنسان، إذ يقول:

الوَرْدُ فِي رَامِشْنَقٍ مِنْ نَرْجِسٍ و اليَاسَمِينُ وَ كُلُّهُنَّ غَرِيبُ
فَاحْمَرَّ ذَا و اصْفَرَّ ذا و ابْيَضَّ ذَا فَبَدَتْ دَلَائِلُ أَمْرُهُنَّ عَجِيبُ
فَكَأَنَّ هَذَا عَاشِقٌ وَكَأَنَّ ذَا كَ مُعَشَّقٌ كَأَنَّ ذَاكَ رَقِيبُ[3]

تصوير فنيّ رائع، فالورد باحمراره شبيه بالعاشق الّذي تحمر وجنتاه من شدة الخجل بمجرد رؤية محبوبته، والنّرجس باصفراره شأنه شأن المعشّق الّذي يضنيه الحب إذا جفاه الحبيب، والياسمين الأبيض لونه لون الحارس الّذي لا تغفو عينه فتبيض من شدّة الأرق،

[1] الدر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش، ص 92.
[2] جدوة المقتبس، الحميدي، ص 51.
[3] ديوان ابن هاني، ص 58.

فهو بذلك رسم صورة غاية في الدّقّة فائقة الحسن، وصف فيها ثلاثة أنواع من الزّهور أضفى عليها ثلاث خصال، فاستطاع أن يشخص الجماد وأضاف إلى الصّورة حركة زادت من جماليتها.

ومن خلال هذه التشبيهات تتّضح العلاقة الوطيدة بين الإنسان والطّبيعة والعكس، إذ لا غنى لأحدهما عن الآخر.

وقد ظلّت الطّبيعة تفرض نفسها على الشّعراء الجزائريين فاستمدوا منها صور العطاء والكرم، كقول أحمد بن الفتح:

مَا عذرهَا و البَحْرُ عِيسَى رَبُّهَا ملك المُلُوكِ وَ رَائِض الرُّواضِ [1]

ففي مدحه لملك البصرة، وظّف الكناية في قوله (البحر عيسى ربّها) وهي كناية عن كثرة الكرم، لأنّ البحر يفيض على البشرية بما فيه من نعم سابغة ومعادن ثمينة نفيسة يستنفع بها الجميع، والملك كذلك سخاؤه مثل هذا البحر، فهو يجود على النّاس بخيره الوفير وعطائه الكثير.

كما وظّفوا صور البطولة والشّجاعة، ومن ذلك قول ابن قاضي ميلة مادحا ثقة الدّولة:

حُسّام عَلَى مَنْ نَاصَبَ الدّينَ مُصْلَت وَ سِتْر على مَنْ رَاقَبَ اللهَ مُغْذَفُ [2]

فالبيت يحتوي على صورتين: الأولى كنى بالحسام المصلت أي السّيف المسلول الّذي يفتك بالمشركين للدّلالة على قوة بأس الممدوح ونكايته وحسن بلائه في الحروب، والثّانية كنى بالسّتر المغذف للدّلالة على حماية ثقة الدّولة للدّين ودفاعه عنه.

[1] المسالك و الممالك، البكري، ص 110.
[2] وفيات الأعيان، ابن خلكان، مج5، ص 161.

والمستقطب للانتباه في الشعر الجزائري القديم، **هو الإكثار من صور الموت والحزن** والأسى، فهذا بكر بن حماد يرسم صورة **الموت** قائلا:

سَحَابُ المَنَايَا كُلّ يَوْمٍ مُظِلَّـــة فَقَدْ هَطَلَتْ وَلِي وَلَاحَ بُرُوقُهَا[1]

لقد أبدع في صورته، إذ شبه **الموت بالمطر** الغزير الّذي يؤدي إلى الكوارث الطّبيعية فيهلك الكائنات جميعها فحذف **المشبه به (المطر) وأبقى على صفة من صفاته وهي (السحابة المظّلة) وما تحدثه عندما تبدأ** بالهطول حوله ويلمع بروقها، فتقترب منه شيئا فشيئا **لتزهق روحه، فهو ينتظرها باستمرار، ممّا يدل على نزعته الدّينية الزهدية وشخصيته المؤمنة** بمصير الإنسان و **نهايته الحتمية.**

أمّا ابن رشيق فقد جعل الأقطار الإسلامية ومعالم الطّبيعة تحس وتشعر **بما آلت إليه** القيروان، وهي في مأتم كبير،حيث يقول معبرّ ا عن حزنها **و ألمها:**

حَزِنَتْ لها كور العـراق بأَسْرِهـا وَ قُرَى الشَّامِ وَ مِصْرَ وَ الخَرَسَانِ
وَ تَزَعْزَعَتْ لمصابِهَا و تنكّـدَتْ أَسَفا بِلاَد الهِنْـد و السِّنْـدَانِ
وَ عَفَا مِنَ الأَقْطَارِ بَعْدَ خَلاَئِهَـا مَا بَيْنَ أَنْدَلُـسٍ إِلَـى حَلْوَانِ
وَ أَرَى النُّجومَ طَلَعْنَ غَيْرَ زَوَاهِـرٍ فِي أُفُقِهِـنّ وَ أَظْلَـمَ القَمَـرَانِ
وَ أَرَى الحِبَالَ الشَّم أَمْسَتْ خُشّعًا لِمُصَـابِهَـا و تَزَعْزَعَ الثّقَـلاَنِ
وَ الأَرْضُ مِنْ وَلَهٍ بِهَا قَدْ أَصْبحَتْ بَعْـدَ القَـرارِ شدِيدة المَيَـلاَنِ[2]

[1] الدر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش ،ص78

[2] معالم الإيمان، الدّباغ، ج1، ص 20.

إنّ هذه اللوحات الحية للجماد، وفق فيها ابن رشيق لأنّها تتماشى مع نفسيته المكلومة، والّتي ترى كل من حولها حزينا متأسيا، كما أن تشخيص الجماد يعطي الصّورة أبعادا جمالية تجعلك تتخيل المشهد كأنّك تراه، ومثل هذا اللّون من الصور، نجده أيضا عند ابن حمديس كتصويره لحادثة غرق جوهرة قائلا:

عَانَقَهَا المَوْجُ ثمّ فَارَقَهَا عَنْ ضمّةٍ فَاضَ رُوحهَا فِيهَا[1]

إنّا صورة الموت، رسمها الشّاعر ببعث الحياة في السّاكن، إذ جعل الموج شخصا يعانق جوهرة لا لشوقه لها و إنّما ليفارقها ويأخذ روحها إلى الأبد، وكأنّه يروي قصة حب باءت بالفشل، فحذف المشبه به (الإنسان المحب) ورمز إليه مستعيرا لفظتي (العناق و الفراق)، فعبرّ بتحريك المشهد عن حالته الشّعورية النابعة من قلب ينبض حزنا وينزف جراحا.

وإضافة إلى هذه الصور البيانية الّتي زادت المعاني قوة وبيانا، نجد المحسنات البديعية كالتقابل الّذي يعرفه البلاغيون بقولهم: "أقسام التّقابل يمكن أن تندرج تحت مفهوم التّناسب حيث تتقابل وحدات معنوية مع وحدات معنوية أخرى نحو قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كثيراً﴾[2]، فالضحك يتناسب مع البكاء، والقلّة تتناسب مع الكثرة"[3]؛ و مثل هذا التقابل نجده في قول بكر بن حماد:

نَهَارُ مُشْرِقٍ وَ ظَلاَمُ لَيْلٍ أَلَحَّا بالبَيَاضِ و السَّوَادِ
هُمَا هَلَّمَا دَعَائِم عمر نوحٍ وَلُقْمَانَ وَ شَدَّادَ بْنَ عَادِ[4]

[1] ديوانه ، ص 462.
[2] سورة التّوبة: الآية (82).
[3] البلاغة و الأسلوب محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية، 1984م، ص 217.
[4] رياض النفوس، المالكي، ج1، ص 507.

لقد وفـق في إيجـاد التّناسب بين الألفاظ المتقابلة، فإشراقة النّهار تتناسب مع ظلمة اللّيل، واكتمل البيت بتوظيف الطّباق بين البياض والسّواد، وليس الهدف من هذا التشكيل الفني إظهار لون النّهار وإشراقته ولون الليل وظلمته، وإنّما الهدف منه ذكر الأمم الّتي أبادها الدّهر بتعاقب أيامه ولياليه.

ويقول الطبني هاجيا خصمه:

يؤنبنـــي بِغَيْبَـــةِ مســتطيــل وَ يَلْقَانِي بِصَفْحَـةِ مُسْــتكِينِ[1]

فهذا التّشاكل الواقع بين الألفاظ وتقابلها أدّى معنى واحدا وهو كشف الوجه الحقيقي للإنسان المنافق.

أمّا الطّباق فنجده بكثرة في نصوصهم، كقول الشّاعر التّاهرتي:

فَرَاغُ الهَوَى شُغْل وَ مَحْيَا الهَوَى قَتْـل وَ يَهْوَالهَوَى حَوْلَ بَعْضُ الهَوَى كُلُّ
وَجُودُ الهَوَى بُخْلُ وَ رُسْلُ الهَوَى عِدَى قُرْبُ الهَوَى بَعْدُ و سَبْقُ الهَوَى مَطْلُ[2]

فالبرّغم من تناقض الألفاظ وتضادها، فإنّ الشاعر أبدع في توظيفها إذ صبّت في قالب واحد وهو التعبير عن مشاعر الهوى وما ينتج عنه من عذاب.

وبالمقابل نجد الترّادف الّذي وظّفه الشعراء لتأكيد المعنى وتوضيحه، مثل قول ابن النّحوي:

أَصْبَحْتُ غَرِيبَ الشَّكْلِ مُنْفَـــرِدًا كَبَيْتِ حَسَّانِ فِي دِيوَانِ سَحْنُـــونِ[3]

---

[1] جدوة المقتبس، الحميدي، ص 50.

[2] البيان المغرب، ص 198.

[3] البستان، ابن مريم، ص 301.

فالترّادف الحاصل بين غريب، منفردادلّ على إحساس الشاعر بالوحدة.

كما استعمل الشّعراء الجناس كقول ابن قاضي ميلة:

فَيَا ثِقَةَ المَلَكِ الّذِي المُلْكُ سَهمهُيُرَاشُ لأِ كَبَادِ الأَعَادِي وَ يُرْصَـــفُ[1]

لقد ماثل بين جناسين تامين سماعا ومتشابهين شكلا ومختلفين معنى فالملك الأولى يقصد بها الممدوح والملك الثانية دالة على ما يملكه من خيرات، فاستطاع بذلك أن يتلاعب بالألفاظ.

إلى غير ذلك من الصّور البيانية والمحسنات البديعية الّتي صنعها الشعراء الجزائريون وأضافت لأشعارهم معاني سامية حسنة التأثير في النّفوس.

ب النّثـــر:

لقد تأثّرت النصـوص النثريـة في العهد الرّستمي بأسلوب القرآن، إذ نسجت على منواله، واستمدت صورها منه، لذلك كان حظ الخيال قليلا، فالنّاثر كان في موقف العابد لا في موقف النّاسج المصور، غير إننا نجد بعض الصور البيانية كالكناية في قول أفلح بن عبد الوهاب: "وكأني بكم وقد فارقتم الدنيا"[2]، وهي كناية عن المـوت، والكناية عن الشّـرك بالله في قــول أحمد بن منصور: "العالم الّذي سبق له الخذلان، ينزعه الشيطان"[3].

[1] وفيات الأعيان، ابن خلكان، مج5، ص 161.

[2] الأزهار الرياضية، الباروني، ص 246.

[3] أخبار الأئمة الرستميين، ابن الصغير، ص 109.

أمّا في القرن الرّابع الهجري فقد ظهرت الصور البيانية بكثرة فهذا المعز لدين الله الفاطمي يوظف التشبيه قائلا "يَا سراج الهدى، وشمس الورى"[1]، إذ شبه والده بالسراج الّذي ينير لإشراقته وصفائه وحسن سريرته، كما شبهه بالشمس لعلو شأنه وبعد همته فاستمد صورته من عناصر الطّبيعة المضيئة.

ومع أواخر القرن الرّابع الهجري وإبّان القرن الخامس الهجري، زخرت تلك النّصوص بالتّصوير البياني الرّائع؛ فابن الربيب مثلا وظّف الكناية عندما أراد أن يعبرّ عن تكاسل الأندلسيين وإهمالهم الكتابة عن مآثر بلدهم، وذلك في قوله: "كل امرئ قائم في ظله لا يبرح، ثابت على كعبه لا يتزحزح"[2].

كما استعمل ابن دفرير الاستعارة قائلا: "استفز أهل موالاتنا الشنآن"[3]، إذ جعل الشنآن إنسانا يستفز فحذف المشبه به "الإنسان" وأبقى صفة من صفاته وهي الاستفزاز وقد وظّف التشبيه أيضا في قوله:"فكنا في الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفي داء بداء ويفر من صلّ خبيث إلى حية صماء"[4]، إذ شبه طلب الإعانة من ذلك الوزير الخائن وأهل موالاته بالمرض المزمن الذي لا شفاء له، ولم يكتف بذلك بل أضاف تشبيها آخرا هو أن تلك الاستعانة بمثابة فرار الإنسان من حية خبيثة إلى أفعى أخبث، فأراد أن يبين من هذه المماثلة، فقدان الأمل من تقديم الإعانة.

[1] المعز لدين الله الفاطمي، عارف تامر، ص 65.
[2] الذخيرة، ابن بسام، مج1، ص 135.
[3] الخريدة، الأصفهاني، مج1، ص 180.
[4] نفسه، ص نفسها.

ومن المحسنات البديعية نجد التقابل كقول أبي اليقظان: "لزوم طاعته والزّجر عن معصيته"[1]، فلزوم متناسبة مع الزجر عن، وطاعته متناسبة مع معصيته وهما يؤديان معنى واحدا ألا وهو التمسك بتقوى الله. ومثل هذا التقابل نجده عند ابن الربيب في قوله: "فشجع عندكم الجبان، وأقدم الهيبان، ونبه الخامل، وعلم الجاهل"[2]، فالبرغم من تقابل هذه الألفاظ وتشاكلها كالشجاعة والجبن أو الإقدام والهيبة أو التنبيه والخمول أو العلم والجهل فإنّها أفضت إلى معنى واحد وهو فضل الأندلس على أبنائها.

أمّا الطّبـاق فنجـده بكثرة في تلك النصـوص، ففي خطبة أحمد بن منصور نجد التباين بـيـن (الأرض≠السماء)،(الله≠الشياطين)،(يهلك≠ينجي)،(يضلل≠يهدي)، (العالم≠الجاهل)، (حلال≠حرام) ، وفي وصية ابن النحوي نجد الطباق بين (سره≠ جهره)، (ظاهره≠ باطنه)، (الأوّل≠ الأخير)، إلى غير ذلك من الطّباقات الّتي أوضحت الفرق بين الكلمات وحملت معاني مختلفة.

وبالمقابل نجد توظيف الترّادف، مثل قول فضل بن نصر التّاهرتي: :"وصل كتابك فجدد شوقا إلى رؤيتك، وهيّج صبابة إلى الاجتماع بك"[3]، فتجديد الشوق مترادف مع هيجان الصبابة، والرؤية مترادفة مع الاجتماع؛ إذ وفّق في إحداث هذا الترادف بين الجملتين والّذي يحمل معنى واحدا وهو التعبير عن اشتياقه لصديقه وتمني لقائه.

[1] الأزهار الرياضية الباروني، ص 142.

[2] الذخيرة، ابن ابسام، ص 134.

[3] رياض النفوس، المالكي، ص 420.

ويقول ابن النحوي: "هو الحفيظ الّذي لا يهمل، الوكيل الّذي لا يغفل، العليم الّذي لا يجهل"[1]. إذ وظف الترادف بتكرار اللّفظة بما يشبهها فأبدع في ذلك لأن الحفظ مترادف مع عدم الإهمال، والتوكل مترادف مع عدم الإغفال، والعلم مترادف مع عدم الجهل وكلّها تدل على الاعتراف بخصائص الربوبية.

وخلاصة القول، إنّ هؤلاء الكتّاب أبدعوا في توظيف ألفاظهم وتوزيعها داخل تلك النّصوص، سواء بتقابلها أو بتضادها أو بترادفها فراوغوا اللّغة، ممّا ساعد على تقوية القدرة الإيحائية لتلك النصوص.

كما نجد السّجع الّذي جاء تلقائيا في النّصوص النّثرية الرستمية، كقول أبي اليقظان: "وعليكم معشر المسلمين باتباع الماضين من أسلافكم، والمتقدمين من أئمتكم الصالحين من أهل دعوتكم، فاقتفوا آثارهم، واهتدوا بهداهم، واحذروا الزيغ عن طريقهم والميل عن مناهجهم"[2].

غير أنّ السّجع كثر بصورة مستقطبة للانتباه في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وما النّصوص الّتي دوّنت آنذاك إلاّ دليل على ذلك، كقول ابن العالمي "ولمّا كنت في مضمار سلفك جاريا، ولنا مواليا، وفي قضاء طاعتنا متباهيا، رأينا أن نثبت مبانيك، ونؤكد أواخيك، ونوجب لك ولخلفك ما أوجبه سلفنا لسلفك تمييزا لهم عن الأكفاء، ومجازاة لهم على محض الصفاء والولاء"[3].

[1] عنوان الدراية، الغبريني، ص 332.
[2] الأزهار الرياضية، الباروني، ص 143.
[3] الخريدة، الأصفهاني، ص 181.

فالكتّاب نوعوا في الفواصل، **بحيث كل جزء يحتوي على حرفين مسجعين أو ثلاثة**، وهذا ما يتطلبه النثر، عكس الشّعر الّذي يتطلب وحدة القافية.

وما يمكن قوله، إنّ الطبيعة شاركت الأدباء الجزائريين أحزانهم وأفراحهم، فاستمدوا منها صورهم الّتي زادت المعاني قوة و بيانا، فأضفت **لمسة جمالية لتلك النّصوص خصوصا** في الشّعر.

الفصل الرّابع
الاقتباس والتّضمين

أ- الشّعر:

1- الأثر الإسلامي:

ممّا لانقاش فيه، أنّ الشّعراء الجزائريين نشأوا في بيئة دينية ملمة بثقافة عربية إسلامية واسعة، ولذلك تأثّروا بالقرآن الكريم، فوظفوا تعابيره واستوحوا معانيه فهذا بكر بن حماد يقول:

تَبَارَكَ مَنْ سَاسَ الأمُورَ بِعِلْمِـهِ وَ ذَلَّ لَهُ أَهْلَ السَّمَـوَاتِ وَ الأَرْضِ
وَ مَنْ قَسَّمَ الأَرْزَاقَ بَيْنَ عِبَـادِهِ وَ فَضَّلَ بَعْضَ النَّاسِ فِيهَا عَلَى بَعْضِ
فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الحِرْصَ فِيهَا يَزِيدُهُ فَقَوْلُوا يَزْدَادُ فِي الطُّولِ وَ العَرْضِ [1]

ففي البيتين الأول والثّاني، يبجّل عظمة الخالق في تسيير الأمور، وقدرته المطلقة بما فضّل بعض النّاس على بعض، وهو بذلك يستوحي البيت الأول من قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٍ﴾[2]، ويستمد البيت الثّاني من قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾[3]. أمّا البيت الثّالث الذي يتحدى فيه المتكالبين على بقايا الدّنيا بأن يغيروا قضاء الله وقدره إن استطاعوا، فهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَ الإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَ الأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾[4]، ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾[5].

---

[1] الدر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش، ص 77.
[2] سورة الملك: الآية (1).
[3] سورة النحل: الآية (71).
[4] سورة الرّحمن: الآية (33).
[5] سورة التوبة: الآية (51).

وفي الإنذار بالموت بغتة، يقول بكر بن حماد:

بَيْنَا نَرَى المَرْءَ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ حَتَّى نَرَاهُ عَلَى نَعْشٍ وَ أَعْوَادِ[1]

فقوله مستوحى من قوله تعالى﴿**حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً**﴾[2].

وفي وقفته بقبر ابنه مخاطبا إيّاه بألاّ يحزن لمفارقته الدّنيا قائلا:

فَلاَ تَفْرَحْ بِدُنْيَا لَيْسَ تَبقَى وَ لاَ تَأَسَفْ عَلَيْهَا يَا بُنَيَّا[3]

فهنا إشارة إلى قوله تعالى﴿**لِكَيْلاَ تَأسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَ لاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾[4].

إلى غير ذلك من الاقتباسات الّتي حفل بها شعر بكر بن حماد.

وفي قول الشّاعر التّاهرتي راثيا تيهرت واصفا ما حلّ بها من خراب ودمار شامل:

كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ تيهرت دار معشر فَدَمَّرَهَا المَقْدُورفِيمَنْ تَدَمَّرَا[5]

فهو متأثر بقوله تعالى﴿**تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّمَسَاكِنُهُمْ**﴾[6].

وعندما يهجو الشاعر أهل بلدة ما واصفا حالتهم فإنّه لا يجد أبلغ من معاني القرآن، كقول سعيد بن واشكل التّاهرتي:

تَرَى أَهْلَهَاصَرْعَى ذوى أمّ ملذم يَرُوحُونَ فِي سُكْرٍ وَ يَغْدُونَ فِي سُكْرِ[7]

وهو بذلك يستمد قوله من قوله تعالى﴿**فَتَرَى القَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُنَخْلٍ خَاوِيَةٍ**﴾[8]. ومن قوله تعالى﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[9].

---

[1] الدر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش، ص 81.

[2] سورة الأنعام: الآية (44) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَاهُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

[3] الدر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش، ص 88.

[4] سورة الحديد: الآية (23).

[5] البيان المغرب، ابن عذاري، ص 199.

[6] سورة الأحقاف: الآية (25).

[7] المسالك و الممالك، البكري، ص 62.

[8] سورة الحاقة: الآية (7) ﴿وَسَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَ ثَمَانِيَةَأَيَّام حُسُومًا فَتَرَى القَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

[9] سورة الحجر: الآية (72).

وفي قول محمد بن المنيب هاجيا أبا يزيد بن مخلد الخارجي:

يَرْنُو بِطَرْفٍ خَلِيعٍ نَظَرَ المُحَاصِرِ للمُحَاصِرِ[1].

إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[2].

ويقول ابن رشيق في مرثيته للقيروان واصفا الأعداء:

نَقَضُوا العُهُودَ المُبْرَمَاتِ وَ أَخْفَرُوا ذِمَمَ الإِلَهِ وَ لَمْ يَفُوا بِضَمَانِ[3]

لقد أضفى صفات الكفر والفسق على الأعداء من نقض العهود وإخفار الذمم مستمدا ذلك من قوله تعالى ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لاَ يَتَّقُونَ(56)﴾[4]، و قوله تعالى ﴿كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾[5].

كما يستمد ابن رشيق فكرة التّسامح والعفو والاتسام بالصفات النبيلة في قوله:

خُذِ العَفْوَ وَ ائْلَ الضَّيْمَ وَ اجْتَنِبِ الأَذَى أَغْضِ تَسُدْ وارفق تَنَلْ وَلَسْتُ بِمُحْمَدْ[6]

من قوله تعالى ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

---

[1] أخبار ملوك بني عبيد و سيرهم، لمحمد بن علي بن حماد، ص 217.

[2] سورة الشورى: الآية (45).

[3] معالم الإيمان، الدباغ، ج1، ص 18.

[4] سورة الأنفال، الآيتين (55)، (56).

[5] سورة التوبة: الآية (8).

[6] ديوانه، ص 64.

وحينما يعتبر الشاعر بفناء الأشياء وزوالها ولا خلود إلاّ لله، فإنّه يقتبس أفكاره من القرآن، كقول ابن حمديس:

يَهْدِمُ دَارَ الحَيَاةِ بَانِيهَا فَأَيُّ حَيٍّ مُخَلَّد فِيهَا[2]

فقوله مأخوذ من قوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾[3].

وفي تذكيره بالموت وأنّه متربص بنا يقول:

لاَ تَأَمَنَنَّ مَنِيَّةً إِنَّ عَصَاهَا تَقْرَعُكْ[4]

فهو يستوحي قوله تعالى: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**﴾[5].

كما استأنس الشّعراء الجزائريون بقصص القرآن ومثّلوا بها، ومن ذلك قول بكر بن حماد:

أَشْقَى مُرَادَ إِذَا عُدَّتْ قَبَائِلُهَا وَ أَخْسَرُ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مِيزَانَا
كَعَاقِرِ النَّاقَةِ الأُولى الَّتِي جَلَبَتْ عَلَى ثَمُودَ بِأَرْضِ الحِجْرِ خُسْرَانَا[6]

لقد شبه قاتل الإمام علي بعاقر ناقة ثمود الّذي توعده القرآن بالعذاب الشديد في قوله تعالى: ﴿**فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ المُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** (78)﴾[7].

---

[1] سورة الأعراف: الآية (199).
[2] ديوانه ، ص 461.
[3] سورة الرحمن: الآية (26).
[4] نفسه، ص 306.
[5] سورة النّساء: الآية (78).
[6] الدر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش، ص 64 65.
[7] سورة الأعراف: الآيتين (77)، (78).

ويقول ابن هاني في وصف فراقه للزاب وجعفر:

خَليلَيَّ أَيْنَ الزَّابُ منِّي وَ جَعْفَرُ وَ جَنّاتُ عَدْنٍ بِنْتُ عَنْهَا وَ كَوْثَرُ

فَقَبْلِي نَأَى عَنْ جَنَّةِالخُلْدِ آدَمُ فَمَا رَاقَهُ فيِ سَاحَةِ الأَرْضِ مَنْظَرُ[1]

فهو يستمد تشبيهه هذا من قصة سيدنا آدم- عليه السّلام حينما وسوس له الشّيطان، والّتي أوردها القرآن الكريم في قولهِ تعالى: ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الجَنَّةَ وَ كُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** (36)﴾[2].

وقد اقتبس بعض الشعراء نصوصهم من الحديث الشريف، كقول بكر بن حماد مؤمنا بقضاء الله وقدره:

لَقَدْ جَفَّتِ الأَقْلاَمُ بالحَقِّ كُلِّهِمْ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ خَائِبٌ سَعِيدُ[3]

إنّه متأثّر بحديثه –صلّى الله عليه وسلم **(جَفَّتِالأَقْلاَمُ وَطُوِيتْ الصُّحُفُ)**[4].

---

[1] الرّوابط الثقافية، محمد طمار، ص 111.

[2] سورة البقرة: الآيتان (35)، (36).

[3] بكر بن حماد، محمد الأخضر السائحي، ص 153.

[4] سنن الترميذي، تحقيق أحمد محمد شاكرو آخرون، ج4، مطبعه مصطفى الباي الحلي، مصر،ط2، 1975م، ص667. و تمام الحديث:و(اعْلَمْ أَنَّ الأمة لو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنفَعُوكَ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَجَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ جَفَّتْ الأَقْلاَمُ وَ طُوِيتْ الصُّحُفُ).

وبالمقابل ضمّنوا أشعارهم بالألفاظ الواردة في القرآن مثل: سبحان رب، صبر جميل، الأنبياء، الشهداء، السّبع الشّداد، الرّواسي، الوادي المقدس، جنّة وحريرا، كوثر، جنة الخلد، جنات عدن، الصّراط، الفردوس، ذو العرش ... .

كما وظّفوا بعض الشّخصيات الّتي ذكرها القرآن للاعتبار والاتّعاظ مثل: قارون، قوم نوح وعاد وثمود ...، إضافة إلى استحضارهم الشخصيات الدينية الإسلامية للاقتداء مثل: موسى بن عمران و الرسول –صلى الله عليه و سلّم وعلي كرم الله وجهه وفاطمة الزهراء –رضي الله عنها وجعفر الطّيّار ... .

2 الأثـــر الأدبـــي:

لقد تذوق الشعراء الجزائريون شعر المشارقة ، فاطّلعوا على نصوصهم، وتأثّروا بألفاظهم ومعانيهم، وضمّنوها أشعارهم إذ يشعر كل من يقرأ القصيدة «أن شعراء المغرب قد انطلقوا من إحساس بالانتماء إلى إطار الشّعر العربي بشأن الأمصار، وكأنّما أصبحت الموضوعات والأساليب والصّور تراثا مشتركا بين الأقطار الإسلامية لا يختص بها قطر دون قطر ... »[1]

فالمتأمل لوقفة بكر بن حماد بالقبور، مخاطبا بمناداة الموتى في قوله:

قِفْ بِالقُبورِ فَنَادِ لِلْهَامِدِينَ بِهَـــا ... مِنْ أَعْظُمٍ بَلِيَتْ فِيها وَ أَجْسَـــادِ
قوم تَقَطَّعَتْ الأَسْبَابُ بَيْنَهُـــمْ ... مِنَ الوِصَالِ وَ صَارُوا تَحْتَ أَطْوَادِ
رَاحُوا جَمِيعًا عَلَى الأَعْوَادِ وَ ابْتَكَرُوا ... فَلَيْسَ وحُوا وَلَنْ يَغْدُوا لَهُمْ غَادِ[2]

[1] محاضرات في الشعر المغربي القديم، عبد العزيز نبوي، جامعة عنابة قسم اللغة العربية و ادابها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983م، ص 111.
[2] الدر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش، ص 81.

يرى أنّ ذلك من باب التّعجيز فلا يمكن استنطاق الموتى وإنّما تلك المناداة من باب الوعظ وتذكير النّفس بمصير النّاس ونهايتهم الحتمية، والتّدبر فيما آلوا إليه بعد موتهم، وقد أخذ معاني هذه الأبيات من قول أبي العتاهية*:

إيت القُبورَ فَنَادهَا أَصْوَاتَا فَإِذَا أَجَبْنَ، فَسَائلِ الأَمْوَاتَا
أَيْنَ المُلُوك بَنُو المُلُوك، فَكُلُّهُمْ أَمْسَى، وَ أَصْبَحَ فِي التَّرَاب رفَاتَا
كَمْ مِنْ أَبٍ وَ أَبِي أبٍ لَكَ تَحْتَ أَطْ بَاقِ الثَّرَى قَدْ قِيلَ كَانَا فَمَاتَا[1]

ويظهر تأثّر بكر بن حماد واضحا بأبي العتاهية، إذ يقول في رثاء ابنه بنبرة حزينة:

كَفَى حُزْنًا بِأَنَّنِي مِنْكَ خُلْو وَ أَنّكَ مَيِّت وَ بَقِيتُ حَيَّا
وَ لَمْ أَكُ آيِسًا فَيَئِسْتُ لَمَّا تُوُمِّلَ التُّرَاب فَوْقَكَ مِنْ يَدَيَّا[2]

لقد استمد هذين البيتين اللّذين يقطران حزنا من قول أبي العتاهية في رثاء علي بن ثابت:

كَفَى حُزْنًا بِدَفْنِكَ، ثُمَّ إِنِّي نَفَضْتُ تُرَابَ قَبْرِكَ مِنْ يَدَيَّا[3]

ويقول في مقدمته الغزلية من مقطوعته الشعرية الّتي يعتذر فيها لأبي حاتم:

وَ مُؤنِسَةٍ لِي بِالعِرَاقِ تَرَكْتُهَا وَ غُصْنَ شَبَابِي فِي الغُصُونِ نَضِيرُ
فَقَالَتْ كَمَا قَالَ النَّوَاسِيُّ قَبْلَهَا عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَاكَ تَسِيرُ[4]

*هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد، أطبع أهل زمانه شعرا (130هـ 211هـ).

[1]ديوان أبي العتاهية، تقديم: كرم البستاني، دار بيروت للطباعة و النّشر، 1986م 1406هـ، ص 83.

[2]الدر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش، ص 87.

[3]ديوان أبي العتاهية، ص 492.

[4]الدر الوقاد، محمد بن رمضان شاوش، ص 83.

لقد استعان بأخذ عجز بيت كامل من قصيدة أبي نواس الّتي مدح فيها الخصيب أمير مصر حيث يقول:

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَحْمَلِي عَزِيز عَلَيْنَا أَنْ نِزَلكَ تَسِيرُ[1]

وعندما يتذكر الشاعر مآثر الأولين و يحنّ إليهم فإنّه يلجأ إلى المقدمة الطللية الجاهلية ليجد مبتغاه، يقول الشّاعر التّاهرتي:

خَلِيلَيَّ عُوجَا بالرُّسُومِ وَ سَلِّمَا عَلَى طَلَلٍ أَقْوَى وَ أَصْبَحَ أَغْبَرَا[2]

فما وقفته بالأطلال وإلقاء السّلام عليها إلاّ استحضار لصورة الماضي الزّائل، وبذلك استوحى معانيه وألفاظه من قول النّابغة الذبياني*:

وعُجُوا، فَحَيُّوا النُّعْمَ دِمْنَةَ الدَّارِ مَاذَا يُحَيُّونَ مِنْ نُؤْيٍ وَ أَحْجَارِ؟
أَقْوَى، وَ أَقْفَرَ مِنْ نُعْمٍ، وَ غَيَّرَهُ هُوجُ الرِّيَاحِ بِهَابِي التُّرْبِ، مَوَارِ[3]

ويقول داعيا لتيهرت بسقيا تزهو لها الأيام:

سَقَى اللهُ تِهَرْتَ المُنَى وَ سُوَيْقَةً بِسَاحَتِهَا غَيْثًا يَطِيبُ بِهِ المَحْلُ[4]

فهذا البيت متضمن لقول قيس بن ذريح**:

---

[1] ديوان أبي نواس، دار البعث للنشر و الطباعة، د ط 1985م، ص 16.

[2] البيان المغرب، ابن عذاري، ص 199.

* من شعراء الجاهلية.

[3] ديوان النابغة الذبياني، اعتنى به و شرحه: حمدوطماس، دار المعرفة بيروت لبنان ط2، 2005م، 1426هـ، ص 47.

[4] البيان المغرب، ابن عذاري، ص 198.

** هو قيس لبنى من شعراء الجاهلية.

سَقَى طَلَلَ الدَّارِ الَّتِي أَنْتُمْ بِهَا حَيًا ثُمَّ وَبْل صَيْف وَ رَبِيعُ[1]

فالمعنى واحد وهو الدّعاء بالسقيا لمكان كان يجمعهما بالحبيبة.

[1] ديوان قيس بن دريح، اعتنى به و شرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة بيروت لبنان، 2004م 1425ه، ص 83.

وفي قوله متحسرا على تشتت الشمل وفراق الحبيبة:

كَأَنَّ لَمْ يَكنْ وَ الدَّار جَامعــة لَنَــا وَ لَمْ يَجْمَعْ وَصْلَنَا لاَ، وَ لاَ شَمْلُ
فَلَمَّا تَمَادَى العَيْشُ وَ انْشَقَّت العَصَا تَدَاعَتْ أَهَاضِيبُ النَّوَى وَ هِيَ تَنْهَلُ[1]

فكأنّنا نسمع قول قيس بن ذريح شاكيا إلى الله ألم الفراق والبعد والتشتّت:

إِلَى اللهِ أَشْكُو نِيَّةشَقّــت العَصَــا هِيَ اليَوْمَ شَتَّى وَ هِيَ أَمْس جميعُ[2]

كما استمد ابن هاني ذمّه للدّنيا الّتي منحته الوعود الكاذبة والأماني المزيفة في قوله:

وَعَدَتْنِي الدُّنْيَا كَثِيْرًا فَلَــمْ أَظْ ـفَرْ بِغَيْرِ المِطَالِ وَالتّسْوِيفِ [3]

من بيت عنترة بن شدّاد* الّذي يقول فيه:

وَتُوعِدُنِي الأَيَّامُ وَعْدًا تَغُرُّبِي وَ أَعْلَمُ حَقا أَنَّهُ وَعْدُكَاذِبِ [4]

ويقول ابن قاضي ميلة مادحا ثقة الدّولة مهنئه بالعيد الّذي استمد منه حسنه:

هَنِيئًا لَكَ العِيدُ الَّذِي مِنْكَ حُسْنُهُ يَرُوقُ وَ مِنْ أَوْصَافِكَ الغُرّ يُوصَفُ[5]

---

[1] البيان المغرب، ابن عذاري ص 198.
[2] ديوان قيس بن ذريح، ص 83.
[3] ديوان ابن هاني، ص 214.
* من شعراء الجاهلية و فحولها.
[4] ديوان عنترة بن شداد، مطبعة الآداب لصاحبها أمين خوري، بيروت لبنان ط4– ص 17.
[5] وفيات الأعيان، ابن خلكان، مج5، ص 162.

فهذا البيت تضمين لقول المتنبي*:

هَنِيئًا لَكَ العِيدُ الّذِي أَنْتَ عِيدُهُ وَعِيد، لِمَنْ سَمَّى وَ ضَحَّى وَ عَيَّدَا[1]

وقد لجأ بعض شعراء الغزل إلى استعمال صيغ الحوار وأساليب القصة «لإشاعة بعض الحركة والحيوية في التّصوير»[2]، وما يمثل كلامنا هذا، قول ابن رشيق:

وَ قَلّة مَاذَا الشُّحوبُ وَ ذَا الضَّنَا فَقُلْتُلَهَا قَوْالْمُشَوَّق المُتَيمَ
هَوَاكِ أَتَانِي وَ هُوَ ضَيْف أَعِزّهُ فأطْعَمْتُهُ لَحْمِي وَ أَسْقَيْتُهُ دَمِي[3]

وقول أبي حفص عمر بن فلفول:

وَ قَالُوا نَأَى عَنْكَالحَبِيبُ فَمَا الَّذِي تَرَاهُ إذا بَانَ الحَبِيبُ المُوَاصِلُ؟
فَإِنْ أَنْتَ أَحْبَبْتَ التَّصَبرَ بَعْدَهُ وَ لَمْ تَسْتَطِعْ صَبْرًا فَمَا أَنْتَ فَاعِلُ
فَإِن الهَوَى مَهْمَا تمَّكَنَ فِي الحَشَا وَ حَلَّغَافَ القَلْبِ لَيْسَ بِزَايِلُ
فَكَمْ رَامَ أَهْلُ الحُبِّ فَتلْك سلوة وَ زَادَهُمْ عَنْهَا هَوَى مُتَوَاصِلُ
فَقُلْتُأَلاَ للصَّبْرِ مَفْزَعُ عَاشِق و للصَّبْرِأَحْوَى إنْ غَلَى غَائِلُ
سَأَصْبِرُ حَتّى يَفْتَحَ اللهُ فِي الهَوَى بِوَصْلِ حَبِيبٍ طَالَ فِيها الطَّوَائِلَ[4]

*من شعراء العصر العباسي (303هـ 354هـ).

[1]ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة و النّشر، 1404هـ 1983هـ، ص 372.

[2]أدب المغرب العربي قديما، عمر بن قينة، ص 80.

[3]ديوانه، ص 132.

[4]الخريدة، العماد الأصفهاني، مج2، ص 179.

فقد اعتمد الشاعران الطريقة الحوارية الّتي عرف بها عمر بن أبي ربيعة في غزلياته، كقوله:

قُـلْتُ بِـالخَـيْفِ مَـرَّةً لَجَـوَارٍ نَـوَاعِـمِ
قُلْـنَ بِـاللهِ لَلَّـتِـي سَمِـعَتْ قَوْلَ ظَالِمِ
إِقْبِلِـي العُنْزَ مِنْ فَتًى صَادِقٍ غَيْرِ آثِمِ[1]

ولم تخرج النّصوص الشعرية الجزائرية القديمة عن هيكل القصيدة العربية، فبعض النصوص طرق فيها أصحابها غرضا واحدا، وبعض النصوص تنوعت فيها المقدمات فتنوعت موضوعاتها، مثل القصيدة الّتي هجا فيها بكر بن حماد يحي بن معين واستهلها بمقدمة زهدية في قوله:

لَقَدْ جَفَّتِ الأَقْلاَمُ بالخَلْقِ كُلِّهِمْ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ خَائِبٌ وَ سَعِيدُ
تَمُرُّ اللَّيَالِي بالنُّفُوسِ سَرِيعَةً وَ يُبْقِي رَبِيٌّ خَلْقَهُ وَ يُعِيدُ[2]

والقصيدة الّتي رثى فيها ابن هاني أم جعفر بن علي حيث افتتحها هو الآخر بمقدمة زهدية إذ يقول:

أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ قَرِيبُ المَدَى وَ كُلُّ حَيَاةٍ إِلى مُنْتَهَى[3]

كذلك القصيدة الّتي مدح فيها ابن قاضي ميلة ثقة الدولة وبدأها بمقدمة غزلية:

يُذِيلُ الهَوى دَمْعِي وَ قَلْبِي المُعَنَّفُ جْبِي تجُفُوني الوَجْدَ وَ هُوَ المُكَلَّفُ
وَ إِنِّي لَيَدْعُونِي إِلَى مَا شَغَفْتُهُ وَ فَارَقْتُ مَغْنَاهُ الأَغَنُّ المُشَنَّفُ[4]

---

[1] ديوانه ، ص 263.
[2] بكر بن حماد، الأخضر السائحي، ص 153.
[3] ديوانه ، ص 27.
[4] وفيات الأعيان، ابن خلكان، مج5، ص 159.

ب النّـثــر:

أ- الأثــر الإسلامـــي:

لقد ظهر الأثر الإسلامي في النّثر بصورة أقوى من الشّعر، لأنّ الكاتب **يحاول جاهدا محاكاة أسلوب القرآن ونهج** طريقته، ومثالنا على ذلك قول أحمد بن منصور:"وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله اصطفاه لنفسه وليا، وارتضاه لخلقه نبيا، فأوجده على حفظ ما ضمّنه قويا وبأداء ما استودعه مليا وبالدّعاء إلى ربّه خفيا"[1]. إذ نسجها على طريقة سورة مريم الّتي يقول فيها الله تعالى: ﴿كهيعص(1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّاءَ(2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًا (4)﴾[2].

كما أنّ الرسالة الموجهة من أفلح إلى نفاث الّتي وردت دون بسملة ونصّت على هدر دمه **إذا** تمادى في العصيان، فيها تأثر بسورة التوبة التي **لم ترد بالبسملة لأنها تضمنت غضب** الله على الكفار والبراءة منهم.

وقد طغت الروح الدينية بصورة مستقطبة للانتباه على النّصوص النثرية الرستمية، فالرسالة الّتي ذكر فيها الإمام عبد الوهاب أركان الإسلام وشرائعه لا **تخلو من الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم والحديث الشّريف، كقوله مثلا:** "وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل"[3] تضمين لقوله تعالى﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ

---

[1] **أخبار الأئمة** الرستميين، ابن الصّغير، ص 108.

[2] سورة مريم، الآيات، (1)،(2)،(3)،(4).

[3] الإسلام و تاريخه من وجهة نظر إباضية، ابن سلاّم الإباضي، ص 107.

مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتَامَى و الْمَسَاكِينِ و ابْنِ السَّبِيلِ وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[1].

والشّيء عينه، نجده في خطبة أحمد بن منصور، فعندما قال:«خلق الأماكن والأزمان، ثمّ استوى إلى السّماء وهي دخّان، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين، فقدرها أحسن تقدير واخترعها من غير نظير، لم يرفعها بأعمدة لم تدرك بالمعاينة ولم يستعن عليها بأحد استكبارا عن الشركة والمعاونة، وزّينها للنّاظرين وجعل فيها رجوما للشّياطين، فتبارك الله أحسن الخالقين»[2].

فهو هنا يريد إظهار معجزة الله وتحديه للبشر بإثبات طاعة السّماء والأرض له سبحانه وتعالى، كما يبين ّ القدرة الإلاهية في الخلق الرباني لتسيير الكون، والّتي لا تضاهيها أي قدرة ضاربا المثل بالصورة الّتي بنيت بها السّماء، فحاول بذلك استمالة المصلّين والتّأثير فيهم، مستوحيا أفكاره ومعانيه من القرآن الكريم، إذا اقتبس قوله "ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها للأرض إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين" من سورة فصّلت الآية الحادية عشرة، وفي قوله: "فقدرها أحسن تقدير واخترعها من غير نظير" أخذها من قوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السموات و الأَرْضِ وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُنْ لَه شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[3]. وقوله "لم يرفعها بأعمدة تدرك بالمعاينة ولم يستعن عليها بأحد استكبارا عن الشركة والمعاونة" ضمّنها من قوله تعالى﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ

[1] سورة البقرة، الآية (215).
[2] أخبار الأئمة الرستميين، ص 106 107.
[3] سورة الفرقان: الآية (2).

تَرَوْنَهَا﴾[1].واستوحى قوله: «وزّينها للنّاظرين وجعل فيها رجوما للشياطين» من قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾[2]،كما استمد قوله «تبارك الله أحسن الخالقين» من قوله تعالى﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[3].

أما رسالة أبي اليقظان فهي أيضا مقتبسة ألفاظها من القرآن، ففي قوله موصيا بتقوى الله ولزوم طاعته: «فإن أفضل ما يتواصى به العباد ويتخاضوا عليه تقوى الله، ولزوم طاعته، والزجر عن معصيته»[4] فقد استوحاها من قوله تعالى:﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾[5].وفي قوله: «الترغيب فيما يورث الثّواب من القول الطّيب والعمل الصّالح»[6] أخذها من قوله تعالى:﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[7].

إلى غير ذلك من الاقتباسات والتضمينات الّتي غلبت على نصوصهم أكثر من كلامهم لما كانوا يجدون فيها من تزكية وحلاوة لتلك النّصوص خصوصا وأنّهم كانوا ينطلقون من الثّقافة الدينية البحتة.

وبالنّسبة للنّصوص النّثرية في القرنين الرّابع والخامس الهجريين فقد قلّ الاقتباس فيها من القرآن، وكانوا يوظفونه حسب ما تقتضيه المعنى، كقول المعز لدين الله الفاطمي« إنّا لله وإنّا

[1]سورة لقمان: الآية (10).
[2]سورة الملك: الآية (5).
[3]سورة المؤمنون: الآية (14).
[4]الأزهار الرياضية، الباروني، ص 142.
[5]سورة التغابن، الأية (16).
[6]الأزهار الرياضية، الباروني، ص 142.
[7]سورة فاطر، الآية (10).

إليه راجعون»[1]، إذ ظهر إيمانه واضحا بقضاء الله وقدره وأنّ كلّ إنسان مصيره الموت، فأخذ عبارته من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[2].

وعندما أراد ابن الربيب أن يعبرّ عن تكاسل الأندلسيين وإهمالهم الكتابة في تدوين مآثر بلدهم في قوله "يخاف إن صنف أن يعنف أو تخطفه الطّير وتهوي به الرّيح في مكان سحيق"[3] ضمّن قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ، وَ مَنْ يُشْرِكْ بِهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[4].

وفي قول ابن النحوي: "خلق الأشياء"[5] ليدل على عظمة الخالق استضاء بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[6].

إضافة إلى توظيفهم الألفاظ الدينية مثل: الله ،الرسول، القرآن، المتقين، المؤمنين، تقوى الله، إيمان، توكّل، الهدى، إمام، نبي الرحمة، هادي الأمة، المسلمين، كما وظفوا أسماء الله الحسنى مثل: الحفيظ، الوكيل، العليم ... .

[1] المعز لدين الله الفاطمي، عارف تامر، ص 66.
[2] سورة البقرة: الآية (156).
[3] الذخيرة، ابن بسام، ص 135.
[4] سورة الحج، الآية (31).
[5] عنوان الدراية، الغبريني، ص 332.
[6] سورة الزمر، الآية: (62).

2 الأثــر الأدبــي:

لقد ظهر التّأثر واضحا بمن سبقهم من الأدباء في كتابة النّصوص النّثرية الجزائرية، ففي خطبة الإمام عبد الوهاب بن رستم عشية تولية السّمح بن عبد الأعلى على طرابلس الّتي يقول فيها:

"قد علمتم معشر المسلمين أنّ السّمح وزيري وأخص النّاس بي وأحبهم إليّ وأنصحهم لدولتي، وبذلك لا أصبر على فراقه، وقد آثرتكم على نفسي تتميما لرغبتكم، فها أنا قد وليته عليكم، فأحسنوا الطّاعة له والانقياد لأوامره، ما سار فيكم سيرة المسلمين ولم يحد عن جادة العدل والإنصاف، ولم يرتكب ما يؤذن بسخط الرب وبمخالفتنا"[1].

فهذه الخطبة كأنّها خطبة أبي بكر الصّديق –رضي الله عنه الّتي ألقاها عشية توليه الخلافة، يقول فيها: "أيّها النّاس إنيّ وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني وإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم"[2].

وفي خطبة التحكيم لأحمد بن منصور الّتي يستهلها قائلا:"الحمد لله نستعينه ونستغفره ونؤمن به ونستهديه ونستنصره ونبرأ من الحول والقوة إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمّدا عبده ورسوله"[3].

---

[1] الأزهار الرياضية، الباروني، ص 380.

[2] فن الخطابة و تطوره عند العرب، إيليا حاوي،دار الثقافة،بيروت،لبنان، ص 94.

[3] أخبار الأئمة الرستميين، ابن الصغير، ص 106.

لقد ضمّنها من خطبة الرسول –صلى الله عليه وسلّم في حجة الوداع إذ يقول فيها: "الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهدي الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله»[1].

ممّا يدلّ على اطّلاع الأئمة الرستميين على أدب الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم والخلفاء الرّاشدين، فتأثّروا بهم إذ "كانوا ينطلقون من منبع واحد ليصبوا في جدول واحد، منبع الثّقافة العربية الإسلامية، وجدول المجتمع الإسلامي»[2].

أمّا بالنّسبة للرسائل فلم تخرج عن نمط النّماذج الّتي سادت عصورا زمنية قبلهم أيضا من مقدمة ومضمون وخاتمة، إذ كانت هذه الرسائل تستفتح «"بالحمد لله "أو" أمّا بعد فالحمد لله"، وهذه طريقة عبد الحميد و ربما ابتدأوا بالبسملة وأردفوها بالدّعاء كقول سهل بن هارون في رسالة البخل: "بسم الله الرحمن الرّحيم أصلح الله أمركم و جمع شملكم"، ومن ابتداءاتهم قولهم "كتابي إليك" ويتبعونها بالدّعاء أو لا يتبعونها»[3].

والرّسائل الجزائرية لم تخل من هذه المقدمات إلاّ الّتي وردت ناقصة، أمّا المواضيع فكانت في العهد الرستمي تصب في قالب ديني وعظي وأحيانا ديني سياسي متعصب للنزّعة المذهبية كما كان سائدا في العهد الأموي، وفي القرنين الرّابع والخامس الهجريين أصبحت تصب في قالب أدبي محض، وفيما يخص الخواتم، فبعضها اختتم بالدّعاء والصّلاة والسّلام على الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم وبعضها الآخر اختتم بالنّصح والوعظ والإرشاد والطّلب.

[1] جواهر الأدب، أحمد الهاشمي، ج2، ص 100.

[2] مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم، العربي دحو، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 95.

[3] أدباء العرب في الأعصر العباسية، بطرس البستاني، ص 132.

وقد تأثرت الوصايا هي أيضا بأسلوب هذه الرّسائل كوصية أبي زكرياء الّتي يحذر فيها تلامذته من قبول الهدايا مقابل عمل ما، فيقول:

«إياكم وقبول صنائع النّاس وهداياهم وجميلهم، فإنّه قيل كن عبدا لله ولا تكن عبدا للنّاس»[1].

لقد جعل نتيجة للسبب متأثّرا في طريقة صياغتها بوصية علي **–كرم الله وجهه لابنه** الحسن التي يقول فيها: "يا بنيّ إيّاك ومصادقة الأحمق، **فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك، وإيّاك ومصادقة البخيل، فإنّه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه، وإيّاك ومصادقة النّاجر، فإنّه يبيعك بالتّافه، وإيّاك ومصادقة الكذّاب، فإنّه كالسّراب يقرّب عليك البعيد، ويبعد القريب»[2].**

كما استوحى ابن النحوي قوله: «هذا ما أودع العبد يوسف الرب»[3] من قول ابن مسكاويه: "هذا ما عاهد عليه أحمد بن عبد ربه"[4].

وصفوة القول، إنّ اقتباس الأدباء الجزائريين لمعاني القرآن وتضمين عباراته دل على تأثّرهم بواقعهم الدّيني الإسلامي وتعاليمه وتلاوتهم للقرآن، كما أعرب تأثّرهم بالسّابقين عليهم في نسج نصوصهم عن اهتمامهم بثقافة غيرهم ورسوخها في ذهنهم، فتفنّنوا في استثمارها بطريقتهم، كون **النّصوص** "تدخل في شجرة نسب طويلة ذات صفات وراثية **وتناسلية فهي تحمل جينات أسلافها، كما أنّها تتمخض عن بذور لأجيال نصوصية تتولد عنها»[5].**

---

[1] سير الأئمة و أخبارهم، أبو زكرياء، ص 25.

[2] علي بن أبي طالب: **ج البلاغة –فؤاد أفرام البستاني**، ص 63.

[3] عنوان الدراية، العبريني، ص 332.

[4] **معجم الأدباء، يا قوت الحموي،ج2، طبعة مرجوليوث، 1929م، ص 95.**

[5] ثقافة الأسئلة، عبد الله الغذامي، دار سعاد الصباح، الكويت، ط2، 1993م، ص 113.

وما يمكن أن نخلص إليه، إنّ تلك الخصائص أبرزت قدرة الأدباء الجزائريين في تدوين نصوصهم، وتوشيتها بوسائل فنية متنوعة ممّا دلّ على تمكّنهم من الفصاحة وناصية البيان وثقافتهم الواسعة.

الخاتمة

في هذا البحث حاولنا تسليط الضوء على الأدب الجزائري في بداياته الأولى، وكشف النّقاب عن بعض الشخصيات التيّ استطاعت أن تفرض وجودها من خلال ما خلفته من إنتاج أدبي، وبما أننا في آخر اللمسات، فقد رصدنا أهم النّتائج التي تمخض عنها البحث، والتيّ هي كالآتي:

- إن الجزائر زخرت بماض عريق ضاهت به الأمم الأخرىإذ بالرّغم من أنّها تخلّلتها بعض الفتن والحروب آنذاك، فإنّها استطاعت أن تثبت شخصيتها العربية الإسلامية وسيادتها السياسية ومكانتها الثقافية بنشر اللغة العربية لغة الدّين وتأسيس دولتين عظيمتين عربيتين إسلاميتين مستقلتين، أولهماالدّولة الرّستمية التيّ استقلت عن الخلافة العباسية وتأسست بقيادة عبد الرّحمن بن رستم في النّصف الثاني من القرن الّثاني الهجري وكانت عاصمتها تيهرت، وثانيهما الدّولة الحمادية المستقلة عن بني زيري بقيادة حماد بن بلكين في القرن الخامس الهجري، وكانت عاصمتها القلعة ثمّ بجاية الّتي تأسست على يد النّاصر بن علناس في النّصف الثّاني من القرن الخامس الهجري.

- كما كشفت عن مدى نشاط أبنائها وحيويتهم في تطوير الثّقافة الجزائرية وتمثيل أواصرها، وذلك بتشجيعهم لشد الرّحال إلى المشرق والأندلس طلبا للعلم، ممّا ساعد على تنمية فكرهم وتغذيته، فاحتلّوا مكانة عالية في الأقطار العربية بمجالستهم العلماء والأدباء وذوي الجاه والّسلطان، وأخذ العلم منهم، وبالمقابل كانت الأرض الخصبة لاستقطاب الكم الهائل من الأدباء والفقهاء والمؤرخين الّذين تشرفت بهم، وأنتجوا آثارا علمية وأدبية قيّمة، ممّا دلّ على التّبادل الفكري والمعرفي.

- إنّ النّشأة الأولى لأدب جزائري عربي كانت في العهد الرستمي ، في حدود ما عثرنا عليه من نصوص ، وبما أنّ أثر الفتوحات الإسلامية كان راسخا في النّفوس إبّان القرنين الثّاني

و الثّالث الهجريين ، فإنّه غلبت المرجعية الدينية على تلك النّصوص الأدبية لاسيما في الجانب النّثري.

- كما اتسمت بعض النّصوص الأدبية في العهدين الرّستمي والفاطمي بالنّزعة المذهبية.

- إنّ ما جاء به الأدباء الجزائريون من أغراض شعرية وفنون نثرية، كان امتدادا للحركة الأدبية المشرقية، لكن هذا لا ينفي أنّهم أبدعوا في تدوين نصوصهم، إذ نسجوها بلغة بسيطة واضحة بعيدة عن التّعقيد، عبرّت عن مواقفهم المختلفة من الحياة وتجاربهم النفسية التيّ عاشوها ممّا دلّ على فصاحتهم وذلاقة لسانهم ، وحلّوها بإيقاع بعث حيوية في تلك النّصوص وتماشى وفق المواقف والمعاني، كما نمّقوها بالصّور الفنية الّتي تفنّنوا في نقلها من عالم الطّبيعة إلى عالم الأدب بطريقة تخيلية ، أبرزت براعتهم في تشكيل الصّور و دلّت على امتلاكهم مهارة الخلق و الإبداع وحسن توظيفهم لأدوات البيان المختلفة خصوصا في الجانب الشّعري، إضافة إلى إثرائها بالثّقافة الدينية العربية سواء باقتباس آيات القرآن وتضمين عباراته أو باستحضار أقوال الأدباء الّذين سبقوهم من خلال احتذاء للّص كاملا ، بيتا شعريا كان أم قولا نثريا أو أخذ المعنى و النّسج على منواله.

وما يمكن قوله، بعد هذه الرّحلة، هو أنّنا لا ندّعي توصلنا إلى كلّ ما يرجى منّا، لكن أملنا أن نكون قد أسهمنا في إحياء هذا الأدب إحياء بسيطا وأخلصنا عملنا لله.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم: رواية حفص

1 اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، يوسف حسين بكر، دار الأندلس، ط3.

2 إحياء علوم الدين، الإمام أبي حامد بن محمد الغزالي مج3، دار الفكر، طبعة مصورة عن طبقة لجنة نشر الثقافة، 1975م.

3 أخبار الآئمة الرستميين تحقيق، د محمد ناصر، بخار إبراهيم بكير، المطبعة الجميلة، 1986م.

4 أخبار ملوك بني عبيد وسيرهم، ابو عبد الله محمد بن علي بن حماد، تحقيق تهامي نقرة عبد الحليم عويس، دار الصحوة القاهرة.

5 أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، بطرس البستاني، دار الجيل، بيروت، لبنان 1979م.

6 أدباء العرب في الأعصر العباسية، بطرس البستاني، دار الجيل، بيروت، لبنان 1979م.

7 الأدب الجزائري القديم: دراسة في الجذور، عبد الملك مرتاض، دار هومة، 2003م.

8 الأدب الجاهلي: قضايا و فنون و نصوص، حسني عبد الجليل يوسف، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، ط1، 2001م.

9 أدب صدر الإسلام د و اضح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، ط1، 1414 هـ 1994م.

10 الأدب في عصر دولة بني حماد، أحمد بن محمد أبو رزاق، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1979م.

11 أدب المغرب العربي قديما، عمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط3، 1994م.

12 إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، محمد بن رمضان شاوش و الغوتي بن حمدان،مج1، داوود بريكسي ، تلمسان، ط1، 1422هـ 2001م.

13 أروع ما قيل في الزهد، د يحي الشامي، دار الفكر العربي بيروت ، ط1، 1992م.

14 الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، سليمان بن عبد الله الباروني باشا، ج2، دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة، الجزائر، ط2، 1423هـ 2002م.

15 الإسلام وتاريخه من وجهة نظر إباضية، ابن سلام الإباضي، تحقيق:ر،ف شفارتز و سالم يعقوب، دار اقرأ ، ط1، 1405هـ 1985م.

16 الإمتاع و المؤانسة، أبو حيان التوحيدي، مكتبة مشكاة الإسلامية، د ط ، د ت.

17 البديع في البديع في نقد الشعر، أسامة بن منفذ، تحقيق: علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ 1987م.

18 البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، ابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1986م.

19 بكر بن حماد: شاعر المغرب العربي في القرن الثالث الهجري، محمد الأخضر السائحي، وزارة الثقافة، 2007م.

20 البلاغة و الأسلوب، محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية، 1984م.

21 البيان المغرب في أخبار الاندلس و المغرب، ابن عذار ىالمراكشي، تحقيق ومراجعة ج س كولان إليفي بروفنسال، ج1، دار الثقافة بيروت ،1948م.

22 تاريخ الأدب الجزائري ، محمد الطمار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.

23 تاريخ الأدب الجزائري، محمد الطمار، تقديم: أ عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، 2006م.

24 تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي،ج3، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1974م.

25 تاريخ الجزائر بين القديم و الحديث،مبارك الميلي،تقديم وتصحيح: محمد الميلي ،ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

26 تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي،ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995م.

27 تاريخ المغرب الكبير، محمد دبوز، ج3، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه،1963م.

28 ثقافة الأسئلة، عبد الله الغذامي، دار سعاد الصباح، الكويت،ط2، 1993م.

29 جدوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الحميدي، الدار المصرية، 1966م.

30 الجزائر في التاريخ من الفتح إلى بداية العهد العثماني، رشيد بورويبة، موسى لقبال و عبد الحميد حاجيات و عطا الله دهينة و محمد بلفراد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

31 الجزائر في مرآة التاريخ،عبد الله شريط و محمد الميلي، مكتبة النهضة، قسنطينة،ط1، 1995م.

32 جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب، أحمد الهاشمي،مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، 2004م.

33 جوابات الإمام أفلح بن عبد الوهاب، جمعية أبي إسحاق أطفيش لخدمة التراث، غرداية، 1422هـ 2001م.

34 حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها، عبد الرحمن باغي، بيروت، 1961م.

35 خريدة القصر و جريدة العصر، العماد الأصفهاني، تحقيق: المرزوقي محمد و العروسي مطوي و الجيلالي بن حاج يحي، قسم شعراء المغرب ، مج2، ط2، 1986م.

36 الخطابة و إعداد الخطيب،د عبد الجليل شلبي،دار الشروق القاهرة،ط2 ،1986م.

37 الخطابة العربية في عصرها الذهبي ، إحسان النص، دار المعارف، مصر، ط2، 1119م.

38 الخطابة في صدر الإسلام، طاهر درويش،ج1، دار المعارف، مصر، ط2، 1968م.

39 الخوارج في المغرب الإسلامي، محمد إسماعيل، بيروت 1976م.

40 دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليلاي، عبد الملك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

41 الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد، محمد بن رمضان شاوش، المطبعة العلوية، مستغانم، ط1، 1966م.

42 دولة بني حماد، د عبد الحليم عوين، دار الشروق ط1، 1980م.

43 دولة بني حماد: ملوك القلعة وبجاية، إسماعيل العربي، الجزائر، 1980م.

44 الدولة الرستمية: دراسة في الأوضاع الاقتصاديةو الحياة الفكر ية، بخار إبراهيم بكير، مطبعة لافوميك الجزائر.

45 دول الخوارج و العلويين، بوزياني الدراجي، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط1، 2002م.

46 ديوان ابن حمديس ، طبعة و صححه: جلستينو سكيابارللي مطبعة رومية الكبرى، 1897.

47 ديوان ابن رشيق، جمعه وحققه وشرحه: محي الدين ديب، إشراف: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1418ه 1998م.

48 ديوان ابن هاني الأندلسي، تقديم: كرم البستاني، دار بيروت للطباعة و النشر،1980م.

49 ديوان أبي حاتم الطائي، طبعة ليدن، 1984م.

50 ديوان أبي العتاهية، تقديم: كرم البستاني، دار بيروت للطباعة و النشر، 1406ه 1986م.

51 ديوان أبي نواس، دار البعث للنشر و الطباعة، 1985م.

52 ديوان الأعشى، تحقيق: د محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، بيروت، 1974م.

53 ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار صادر، بيروت.

54 ديوان جميل بن معمر، تحقيق: د إميل يعقوب، دار الكتاب العربي بيروت، 1992م.

55 ديوان الشافعي، تحقيق: زهدي يكن، دار الثقافة، بيروت، 1961م.

56 ديوان عمر بن أبي ربيعة، طبعه وصححه : بشير يمون، ط1، 1934م.

57 ديوان عنترة بن شداد، مطبعة الآداب لصاحبها أمين خوري، بيروت، لبنان، ط4.

58 ديوان قيس بن ذريح، اعتنى به وشرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2004م.

59 ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة و النشر، 1404ه 1983م.

60 ديوان النابغة الذبياني، اعتنى به وشرحه: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان،ط2، 1426ه 2005م.

61 الذخيرة في محاس أهل الجزيرة، أبي الحسن علي بن بسام السشتريني، تحقيق: إحسان عباس،ق4، مج2، دار الثقافة، ط1، 1399ه 1979م.

62 ذاكرة الجزائر: صفحات من تاريخ المقاومة الشعبية عبر العصور، المتحف المركزي،1984م.

63 الرؤية المعاصرة في النقد، محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية للطباعة و النشر.

64 رثاء الابناء في الشعر العربي إلى نهاية ق5ه، د محيمر صالح، مطبعة المنار،ط2.

65 الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، محمد الطمار، ديوان المطبوعات الجامعية، ط3، 2007م.

66 سابق البربري: شاعر من المغرب، عبد الله كنون، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، 1969م.

67 سنن الترميذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر و آخرون، مج4، مطبعة مصطفى الباي الحلبي، مصر ،ط2، 1975م.

68 سير مشايخ المغرب ، أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن حسان بن عبد الله، ج2، تحقيق وتعليق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1985م.

69 شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، يحي بن شرف الدين النووي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ط2، 1982م.

70 صحيح البخاري، الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ضبطه ورقمه وذكر تكرار مواضعه د مصطفى ديب البغا ، ج5، دار الهدى – عين مليلة ، 1992م.

71 الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1983م.

72 الصناعتين، أبو هلال الحسن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفصل إبراهيم، منشورات يحي الباجي،ط2.

73 ضحى الإسلام، أحمد أمين،ج2، مكتبة النهضة العربية المصرية،ط7.

74 طبقات المشايخ بالمغرب ، الشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني، ج1، تحقيق وطبع: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر.

75 عبد المؤمن بن علي: موحد بلاد المغرب، صالح بن قربة، مديرية الدراسات التاريخية و إحياء التراث، الجزائر.

76 العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، عبد الكريم يوسف جودت، المؤسسة الوطنية، للكتاب، الجزائر، 1984م.

77 العمدة في محاس الشعر و آدابه، الحسن بن رشيق، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م.

78 عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، أبو العباس الغبريني، تحقيق وتعليق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة بيروت.

79 فن الخطابة، احمد محمد الحوفي، دار نهضة للطباعة و النشر مصر ط4.

80 فن الخطابة وتطوره عند العرب، إيليا حاوي، دار الثقافة بيروت، لبنان.

81 الفن و مذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط9، 1946م.

82 قضايا الإبداع الفني، محمد مصطفى أبو الشوارب ومحمود المصري، دار الوفاء ، ط1، 2005م.

83 القول الشعري: منظورات معاصرة، رجاء عيد ،الإسكندرية، منشأة المعارف.

84 الكامل في التاريخ ،ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم، ج8، دار الكتاب العربي، ط4، 1934م.

85 كتاب رياض النفوس في طبقات علماء إفريقية و القيروان، أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي، حققه: بشير البكوش، راجعه: محمد العروسي مطوي، ط2، 1414ه 1994م.

86 كتاب سير الأئمة و أخبارهم، أبو زكرياء، تحقيق: إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2.

87 كتاب مسائل نفوسة، الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، تحقيق وترتيب: إبراهيم طلاي، المطبعة العربية ،1991م.

88 كيف صارت الجزائر عربية مسلمة، أحمد بن النعمان، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.

89 لسان العرب، ابن منظور، تقديم: العلامة الشيخ العلايلي، إعداد و تصنيف: يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، لبنان.

90 الموجز في تاريخ الجزائر، يحي بوعزيز،ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، 1999م.

91 محاضرات في الشعر المغربي القديم، عبد العزيز نبوي، جامعة عنابة، قسم اللغة العربية و آدابها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986م.

92 محاضرات في موسيقى الشعر د زبير دراقي **و شريفي عبد اللطيف، ديوان المطبوعات الجامعة.**

93 مدخل إلى الأدب العربي، سليمان معوض، المؤسسة الحديثة **للكتاب، طرابلس، لبنان،** 2008م.

94 مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم، العربي دحو، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

95 المسالك و الممالك،ج المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، أبو عبد الله البكري، دار الكتاب الإسلامي.

96 **موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو مصرية، ط6، 1988م.**

97 **مشكلة الفن، زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، 1988م.**

98 **معجم الأدباء ، ياقوت الحموي، طبعة مرجو ليوت، 1929م.**

99 معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة و النشر، بيروت، ط3 ،1403ه 1986م.

100 **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،** وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الدعوة إستانبول، تركية،1406ه 1986م.

101 المعز لدين الله الفاطمي، عارف تامر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1402ه 1982م.

102 معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، عبد الرحمن الدباغ، أكمله وعلق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن ناج التنوخي، ج1، مكتبة الخانجي مصر.

103 المغرب العربي : تاريخه وثقافته، رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،ط2، 1981م.

104 المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، تحقيق وتعليق: **شوقي ضيف، دار المعارف مصر،ط2، 1119م.**

105 المعلقات العشر، فوزي عطوي، تقديم يونس سلامة، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، 1969م.

106 المقدمة: تاريخ العلامة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان 1982م.

107 من حديث الشعر و النثر، طه حسين، دار المعارف، ط2، 1119م.

108 الموسوعة الثقافية العامة في الأدب العربي فواز الشعار، دار الجيل، بيروت،لبنان.

109 النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون،ج2، ط2.

110 النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1931م.

111 النقد الأدبي القديم في المغرب العربي: نشأته وتطوره – دراسة وتطبيق، د محمد مرتاض، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000م.

112 النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار النهضة، مصر، 1973م.

113 ج البلاغة، فؤاد أفرام البستاني، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط9، 1983م.

114 وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، مج5، دار صادر بيروت، 1968م.

المجلات

115 مجلة الأصالة، العدد45، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، 1387ه 1977م.

116 مجلة الفضاء المغاربي، العدد الثاني، مجلة دورية يصدرها مخبر الدراسات الأدبية و النقدية وأعلامها في المغرب العربي، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان.

فهرس الموضوعات

- الإهداء.....
- شكر وعرفان.....
- مقدّمة.....أ
- **المدخل: نبذة موجزة عن الحالات السياسية و الدينية و الثقافية من مطلع القرن 2ه إلى نهاية القرن5ه**.....03
  - أ الحالة السياسية و الدينية.....03
  - ب الحالة الثقافية.....15
- **الباب الأول: الشعر الجزائري القديم من مطلع القرن 2ه إلى نهاية القرن5ه**.....26
  - **الفصل الأول**: الوصف.....28
  - **الفصل الثاني**: الغزل.....40
  - **الفصل الثالث**: المدح.....47
  - **الفصل الرابع**:الهجاء.....63
  - **الفصل الخامس**: الزهد.....76
  - **الفصل السادس**: الرثاء.....87
  - **الفصل السابع**: شعر الحكمة.....100
- **الباب الثاني: النثر الجزائري القديم من مطلع القرن 2ه إلى نهاية القرن5ه**.....109
  - **الفصل الأول**: فنّ الترسل.....112
  - **الفصل الثاني**: فنّ الخطابة.....137
  - **الفصل الثالث**: فنّ الوصايا.....155
  - **الفصل الرابع**: فنّ التأليف.....164

- **الباب الثالث: الخصائص الفنية للأدب الجزائري القديم**
من مطلع القرن 2ه إلى نهاية القرن 5ه.....174
- **الفصل الأول: اللغة**.....175
أ الشعر.....175
ب النثر.....181
- **الفصل الثاني: الإيقاع**.....186
أ الشعر.....186
ب النثر.....191
- **الفصل الثالث: الصورة الفنية**.....195
- أ الشعر.....195
ب النثر.....201
- **الفصل الرابع:الاقتباس و التضمين**.....206
أ الشعر:.....206
1 الأثر الاسلامي.....206
2 الأثر الأدبي.....211
ب النثر:.....217
1 الأثر الاسلامي.....217
2 الأثر الأدبي 221
- **الخـاتمـــــة**.....226
- **المصادر و المراجع**.....228

الملخص : يتناول هذا البحث الحديث عن الأدب الجزائري القديم من مطلع القرن الثاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري ضمن ثلاثة أبواب انصبت على أهم الأغراض الشعرية غداة هذه الفترة، وعلى أبرز الفنون النثرية، وعلى الخصائص الفنية لهذا الأدب شعرا ونثرا وأمّا المنهج الموظّف في هذه الرسالة فهو المنهج الوصفي القائم على التحليل.

الكلمات المفتاحية : شعر ، نثر، جزائري، قديم، خصائص فنية : وصف وتحليل.

Résumé: La présente étude parle de la literature algérienne ancienne dès le début du deuxième siècle à la fin du cinquième siècle de l'Hégire dans les trois portes axés sur les buts les plus importants de la poésie à la suite de cette période, et la prose d'arts le plus important, et sur les caractéristiques techniques de cette littérature, la poésie et la prose, et la méthodologie employée dans cette thèse est une approche descriptive basée sur l'analyse.

Mots clés: poésie, prose, Algérien, ancien, caractéristiques techniques - description et analyse.

Abstract: This study talk about the oldest Algerian literature from the beginning of the second century to the end of the fifth century AH within three doors focused on the most important purposes of poetry in the wake of this period, and the most prominent arts prose, and on the technical characteristics of this literature, poetry and prose, for the methodology employed in this dissertation is descriptive approach based on analysis.

Key words: poetry, prose, Algerian, Old, technical characteristics - description and analysis.

الملخّص

إنّ الأدب الجزائري جزء لا يتجزّأ من الأدب العربي، لما يزخر به من أدباء شعراء وكتّاب جادت أقلامهم بالقصائد الشعرية والكتابات النثرية، في حقب زمنية معيّنة وضمن مستوى حضاري معيّن، وبما أنّ موضوع البحث "الأدب الجزائري القديم من مطلع القرن الثاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري – جمع ودراسة – " فإنّه يتناول الحديث عن نبذة موجزة على الحياة السياسية والدينية والثقافية آنذاك، فالأدب الجزائري نشأ في ظل الصراعات السياسية والحروب والفتن سواء بين القبائل والمدن الخارجية، أو بالتنافس على مناصب الرئاسة، أضف إلى ذلك تعدد المذاهب والفرق الدينية كالإباضية والصفرية والشيعة والمعتزلة والمالكية ...فنظمت قصائد شعرية ودونت نصوص نثرية ذات نزعات مذهبية.

كما نشطت الحياة الثقافية وذلك بإنشاء أكبر المراكز كتيهرت والمسيلة والقلعة وبجاية والتّي ضاهت قرطبة والقيروان، إضافة إلى تشجيع الأدباء للقيام برحلات علمية ومجالسة كبار الفقهاء والمحدثين كرحلة بكر بن حماد الذي كان سفيرا للعلاقات الثقافية بين مختلف البلدان في العهد الرستمي، ورحلة ابن رشيق المسيلي في العهد الصنهاجي ...

وهلمّ جرا، وكما استفاد هؤلاء الأدباء الذين ارتحلوا طلبا للعلم ومثلوا الروابط الثقافية، فإنّه وفد على أرض الجزائر الخصبة في تلك الفترة الكثير من الأدباء والفقهاء والمؤرخين الذين تشرّفت بهم هذه البلاد على غرار ابن الصغير وابن هاني وابن حمديس، بل هناك من ألّف كتبا قيّمة يشهد لها التّاريخ.

وبما أنّ الشعر يسبق النّثر في التوثيق أو كاد، فقد تطرّقت في الباب الأول للأغراض الشعرية من وصف وغزل ومدح وهجاء وزهد ورثاء وحكمة ما وسعني ذلك، فالشاعر الجزائري نظّم في هذه الأنواع الشعرية من الشعر الغنائي لعوامل أهمّها :

- جمال طبيعة الجزائر وعمرانها، جعل الشعراء الجزائريين يتغنون بها ويبدعون في وصفها، فتعدّدت مواضيع الوصف وتنوّعت، وبالرّغم من أنّها كانت مقتصرة على وصف جو الطبيعة في العهد الرستمي، وكان الوصف سطحيا أحيانا كمقطوعة بكر بن حماد في وصف برودة الجو في تيهرت، فإنّها في العهدين الفاطمي والصنهاجي تعددت بين وصف للحيوان والفواكه والزهور بطابع منمّق، فأبانت عن شاعرية ابن هاني والطبني وابن قاضي ميلة وابن رشيق غير أنّ الوصف بلغ أوجه وتنوع في أواخر العهد الحمادي،

وارتقى إلى درجة فنّية متميّزة، وما قصائد ابن حمديس في وصف القصور البجائية إلاّ دليل على ذلك.

2 جمال المرأة أو هجرها وبعدها عن الحبيب، سمات جعلت الشعراء الجزائريين يتغزّلون بها أو يشكون فراقها، فكان الغزل في القرنين الثاني والثالث الهجريين غزلا عفيفا يعبّر عن الهجر والبعد ووصف المرأة وصفا طبيعيا، ولكن مع أواخر القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس الهجري انتشر الغزل الفاحش الذي يهتمّ بجسد المراة أكثر من روحها بل تعدّى إلى التغزّل بالغلمان عند ابن رشيق.

3 الإشادة بمناقب الأمراء والخلفاء وبطولاتهم وحروبهم، وتقريب الشعراء إليهم، فمدحوهم بقصائد قيّمة، وكان المدح في تلك الفترة بعضه تكسبيا، وبعضه الآخر منافحا عن مذهب أو مدافعا عن الممدوح وخصاله، إذ أنّ كل شاعر مدح بطريقته الخاصة.

4 صفات الشّخص الدنيء ومثالبه جعلت الشعراء يهجونه ويلحقون به شتائم ولعنات شتى، إذ سلّوا ألسنتهم على الأعداء والأدباء والمدن، وبيّنوا المساوئ الفردية بل تعدّى الهجاء عند البعض إلى اللّوم والتحريض والسخرية على غرار بكر بن حماد وابن هائي...

5 انتشار الإسلام ساهم في نشر عقائد الدين وحكمه والتّرهيب من الدنيا والتّرغيب في الآخرة، والتّذكير بالموت والاعتبار من الأمم السّابقة، فكان الشعراء الجزائريون زهادا واعظين موجّهين، يذكّرون النّاس بالموت للتزوّد بالتقوى، والابتعاد عن ملذات الدّنيا مصدر الغواية، فطرقوا مواضيع مختلفة صبت في قالب واحد وهو تذكير النفس بالموت وتجهيزها من أجل الاستعداد للآخرة دار البقاء، ممّا دلّ على على تشبعهم بنزعات زهدية دينية واستفادتهم من الإسلام كثيرا.

6 كثرة الحروب والفتن وتدمير المدن جعلت الشعراء يبكون ذويهم وأهلهم ومدنهم وعلماءهم وحيانا حتّى نفوسهم في مراث حزينة، فتنوّعت مواضيع الرثاء وتعدّدت لما تركته الموت من حزن عميق وأثر كبير في نفوس الشعراء الجزائريين.

7 تجارب الحياة المختلفة واستخلاص العبر منها جعلت الشعراء ينظّمون نتفا وقصائد شعرية نابعة من تأملاتهم واعتباراتهم وتجاربهم الخاصّة.

وخلاصة القول، إنّ الشعراء الجزائريين لم يبتكروا غرضا شعريا خاصا بهم، وإنّما ساروا على درب من سبقهم، لكنّهم

أبدعوا ويجب التنويه بأنّ الدّولة الرستمية لها الحق أن تفخر ببكر بن حماد الذي شرّق وغرّب بشعره، وكان شاعر الزهد والرثاء بلا منازع، أمّا الفاطميون فقد نافح عنهم ابن هاني الأندلسي الذي حمل معه شاعريته في غربته وكان مادحا من الدرجة الأولى، كما أنّ ابن رشيق المسيلي هو الآخر مثّل أواصر الثقافة بين البلدان واستفاد كثير ا من رحلاته العلمية، ومانونيته في رثاء القيروان إلا دليل على ذلك، حيث اعتبرت من أروع مراثي المدن، وكان للحماديين الشرف أن يستوطن بلادهم شاعر مثل ابن حمديس الصقلي الذّي استطاع أن يفرض وجوده في الدولة الحمادية، وتغنى بجمال طبيعتها وعمرانها، فكان سيّد الوصف المبدع.

أمّا الباب الثاني فقد خصصته للنّثر الجزائري آنذاك وما احتواه من فنون نثرية أهمها الرسائل والخطب والوصايا والتّأليف، فتطرّقت للمفاضلة بين الشعر والنثر وتوصّلت أنّ لكل منهما خصائص فنّية تميّز أحدهما عن الآخر، لكن تجمع بينهما الموهبة الفنية، والقدرة على إبداع النصوص للتأثير في نفوس المتلقين.

وفيما يخص الفنون النثرية التي تأتي في مقدمتها الرّسائل، فبالرغم من قلة النماذج التّي عثرنا عليها، فإنها أوضحت لنا نوعية المواضيع المعالجة في تلك الفترة، إذ تطوّرت من معالجة المواضيع الدينية في القرنين الثاني والثالث الهجريين بأسلوب غلبت عليه البساطة والسّهولة إلى معالجة المواضيع الأدبية في القرنين الرابع والخامس الهجريين بطريقة فنية دلّت على مهارة أولئك الكتاب الإبداعية وتمكنهم من اللّغة وناصية البيان.

أمّا الخطب فقد امتزجت فيها النزعة المذهبية بالأفكار الدينية نظرا لتعدّد المذاهب آنذاك، فظهر ذلك التعصب المذهبي لدى الخطباء الرستميين والفاطميين، أمّا الخطب في العهدين الزيري والحمادي لم نعثر عليها، لكن من المحتمل أن تكون عالجت مواضيع أدبية بطريقة فنية.

ولقد عالجت الوصايا هي الأخرى مواضيع دينية في حدود ما عثرنا عليه من نصوص، إلاّ أنّها في نهاية القرن الخامس الهجري ارتقت وما وصية أبي الفضل إلاّ دليل على ذلك.

أمّا فيما يخصّ التأليف، فمن المعلوم أنّ الجزائر زخرت بكتّاب ألّفوا في جميع المجالات الدينية والسياسية والعلمية والأدبية، غير أن التدوين كان ضئيلا في حدّ ما عثرنا عليها من مؤلّفات، لكن تلك الكتب يرجع لها الفضل الكبير، لأنّها كانت سندنا في هذا البحث والتي من بينها : كتاب أخبار الأئمة الرستميين لابن الصّغير، وسير الأئمة وأخبارهم المعروف بتاريخ أبي زكرياء، فاعتمدا الرواية الشفوية كمصدر أوّل والمشاهدة كمصدر ثان.

أمّا الباب الثالث، فقد تطرقت فيه للخصائص الفنية التّي ميزت هذا الأدب شعرا ونثرا، فلكل أدب خصائص فنية يتميز بها تبعا لظروف العصر وطبيعة البيئة التّي يعيش فيها الأديب، لكن هذا لا ينفي من وجود خصائص مشتركة لا يمكن لأي أديب الاستغناء عنها، وبما أننا عثرنا على عدد قليل من النصوص الجزائرية التّي قيلت في تلك القرون الطويلة، فإنّه يتعذّر علينا تحديد جميع الخصائص، لذلك وقفنا

عند أبرز الظواهر الفنية التي ميّزت هذا الأدب، والمتمثّلة في : اللغة والإيقاع ولصّورة الفنية والاقتباس والتّضمين.

فالأدباء الجزائريون شعراء وكتّاب وظّفوا اللّغة التي انسجمت مع مضمونها ومع طبيعة ظروف الحياة المختلفة لما استوحوه من مواقفهم وتجاربهم، فكانت لغتهم سهلة واضحة بيّنة الغرض، كما اغترفوا من الإيقاع الفنّي بنوعية الداخلي والخارجي، وحاولوا جاهدين إحداث تلك التفاعلات الإيقاعية، من أجل إحداث متعة أدبية وفنية في نفس المتلقي، مما يدل على مقدرتهم النسجية، وقد شاركت الطبيعة الأدباء الجزائريين أحزانهم وأفراحهم، فاستمدوا منها صورهم التّي زادت المعاني قوة وبيانا، فأضفت لمسة جمالية لتلك النصوص خصوصا في الشّعر، كما اقتبسوا معاني القرآن وضمنوا عباراته ممّا دلّ على تأثرهم بواقعهم الديني الإسلامي وتعاليمه وتلاوتهم للقرآن، كما تأثّروا بالسّابقين عليهم في نسج نصوصهم ممّا أعرب عن اهتمامهم بثقافة غيرهم ورسوخها في ذهنهم، فتفنّنوا في استثمار ها بطريقتهم.

وصفوة القول، إنّ تلك الخصائص الفنية أبرزت قدرة الأدباء الجزائريين في تدوين نصوصهم وتوشيتها بوسائل فنية

متنوعة ممّا دلّ على تمكّنهم من الفصاحة وناصية البيان وثقافتهم الواسعة.

وخلاصة لكل ما سبق ذكره، إنّ هذا البحث حاول التأسيس لأدب جزائري في بداياته الأولى، وكشف النقاب عن بعض الشخصيات التّي استطاعت أن تفرض وجودها من خلال ما خلفته من إنتاج أدبي، فالجزائر زخرت بماض عريق ضاهت به الأمم الأخرى، إذ بالرّغم من أنّها تخللتها بعض الفتن والحروب آنذاك، فإنّها استطاعت أن تفرض وجودها بإثبات شخصيتها العربية الإسلامية وسيادتها السياسية ومكانتها الثقافية بنشر اللّغة العربية لغة الدين وتأسيس دولتين عظيمتين اولهما الدولة الرستمية التّي تأسّست بقيادة عبد الرحمن بن رستم وكانت عاصمتها تيهرت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري والتي استقلت نهائيا عن الدولة العباسية، وثانيهما الدولة الحمادية المستقلة عن بني زيري بقيادة حماد بن بلكين في القرن الخامس الهجري، وكانت عاصمتها القلعة ثم بجاية التّي تأسست على يد الناصر ابن علناس في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري.

كما كشفت عن مدى نشاط أدبائها وحيويتهم في تطوير الثقافة الجزائرية وتمثيل أواصرها بتشجيعهم لشد الرحال

إلى المشرق والأندلس طابا للعلم، مما ساعد على تنمية فكرهم وتغذيته، فاحتلوا مكانة عالية في الأقطار العربية، وبالمقابل كانت الصدر الرحب لاحتضان الكم الهائل من الأدباء والفقهاء والمؤرخين الذين تشرفت بهم، ممّا دلّ على التّبادل الفكري والمعرفي.

أمّا فيما يخص النشأة الأولى لأدب جزائري عربي كانت في العهد الرستمي، في حدود ما عثرنا عليه من نصوص، وبما أن أثر الفتوحات الإسلامية كان راسخا إبان القرنين الثاني والثالث الهجريين، فإنّه غلبت عليه المرجعية الدينية على تلك النصوص الأدبية لاسيما في الجانب النثري، كما اتسمت بعض النصوص في العهدين الرستمي والفاطمي بالنزعة المذهبية، وبالرّغم من أن ما جاء به الأدباء الجزائريون من أغراض شعرية وفنون نثرية كان امتدادا للحركة الأدبية المشرقية، لكن هذا لا ينفي أنّهم أبدعوا في تدوين نصوصهم.

INTRODUCTION

Algeria benefits of an authentic Arab-Islamic heritage, just as the developed nations, the country that has men who carried the torch of culture and intellectual enlightenment, literary, and contributed to the enrichment of all historical fields, cultural, political, social and literary, but it is unfortunate that we do not know much about that heritage, especially in the literary field in which many works have been forgotten because of the teaching of oriental and Andalusian literature in college and high school, neglecting Algerian literature, we have not received any text of an Algerian writer before the modern era, which led us to believe that this literature does not exist, but the belief remains once specialized in ancient Moroccan literature and record the magnitude of the efforts of our eminent professors to overcome difficulties and illuminate dark aspects to make us love l the Algerian literary heritage and bring it to life in a cultural level and through successive periods of time.

So I felt a desire and conviction to study the subject of "the former Algerian literature of the early second century to the end of the fifth century hidjeri - collect and study -"

This study aims to collect as many as possible of literary texts and analyzes the development of the most important technical characteristics to provide a simplified picture of this literature and revived during this period of time, which was a breakthrough for the various arts and literature in the second and third centuries, and took full shape in the fourth and fifth centuries, in response to questions i asked to different members of social groups, including:

Who are the famous writers this period. What are the most important goals poetic prose and the arts, who treated? Is Algerian literature arose self-made, or if it is similar to the oriental literature?

What motivated me to enter this great and serious subject is my passionate desire to look at literary heritage because it proves our identity, in addition to the need for researchers to these subjects to offset some outstanding concepts in their spirits, and my teacher, Dr. Mohammed Mortad initiative, encouraged me to write about it, and especially because I was facing a very difficult moment with the death of my father who wanted to see this work,

And like any research, i faced some difficulties and obstacles which marked described as follows: Bas du formulaire

-Lack of time, because research in the Algerian literature requires years and years due to lack of scientific equipment, I could not divide the literary texts of poetry was, or accessories types as I found myself in front of a handful number of writers in every century.

- The burning of libraries, during the wars and sabotage monuments of the Algerian civilization of the tribes of Bani Hilal, are all factors that led to the loss of the most valuable books

- Some owners of old books and manuscripts refused to deliver us fearing its loss, but they forget they wasted heritage by their own hands, burying them in basements to make s food for mice.

The existence of some references and sources in a difficult places where I cannot aced

But these difficulties are resolved by the hope and the spirit of perseverance to continue to seek and present it in this image, in addition to the help and support of my teacher Mr. Dr. Mohammed Mortad and valuable encouragement in the research community, it is not surprising that one of the pioneers of thought had devoted his life to the service Magreben literary heritage in general, and Algerian one in particularly

To make my work more documented, it was based on the most important and significant sources and my research aims to bring to live the Algerian literary heritage, including the ancient book of Algerian literature of the Professor Abdul Malik Mortad allocated to the literature in The Rustamids Time , the Book of literature at Rustamids age , the literature book in the time of Bani Hammad Mohammed bin Ahmed Aboul Razak witch touched a group of prose texts and poetry ones , the book of poetry of Bakr bin Hammad bin Mohammed Chaouch Ramadan and former book of News Rustamids imams ibn Saghir, and biographies of imams and their news from Abu Zakaria's , book Enoufous Riad of Maliki, and many other sources contributing to the enrichment of this research.

I followed for the completion of this approach and to reach the desired objective, a descriptive approach based on the analysis, which helped me read poetry and prose and described in terms of form and content, with an analysis of what was in the ideas and meanings and attributes of aesthetics and rhetoric put a plan consisting of an introduction and a preamble, 03 chapters according to the nature of the subject and the reference, in addition to conclusion, and a list of sources and references, and Subject Index.

In preamble I discussed the political, religious and cultural aspects from the beginning of the second century until the end of the fifth century AH.

I booked the second chapter to the Algerian prose at that time, when in the 3rd chapter I discussed the techniques that characterized the literature and poetry of prose.

At the end my conclusion describes the most important results. and all I can say is that I try to open doors by my work and my attempt is a result of efforts done with all my heart, and I hope that my message could cover a part of the subject with the benediction of god

Thank you

CONCLUSION

In this article, we tried to approach the Algerian literature from its earliest beginnings to reveal some of the characteristic persons who were able to impose their presence through their legacy in literary production, including the final touches and identify the most important researchs results, which are as follows:

Algeria has a rich past can challenge other nations because even though it was broken by certain conflicts and the many wars at the time, she was able to assert its Arab character and Islamic, political sovereignty and cultural diffusion of Arabic as a principal language and to create two Arab and Islamic independent states which are:

The state of Rustamids that takes its independence from the Abbacide State under the leadership of Abderrahmane Ben Rostom during the second half of the 2nd, century , it's capital was TIHART

The state of HAMADIA that takes its independence from BENZIRI under the leadership of HAMMAD Ben Belkine during the 5th, century Hedjri , it's capital was Kolaa then Bedjaya under the leadership of Ben Alnas during the second half of the 5th century

In addition, it revealed how the Algerians were active in the development of Algerian culture and the representation of its links, by encouraging themselves to move to the east and Andalusia requesting knowledge which contributed to the development of their thoughts to occupy prestigious positions in Arab countries. They were staying with big scientists to take from them some knowledge and in other side Algeria was welcoming scientists and

writers from all the parts of the worlds and that confirms the existence of cultural exchange

The first creation Algerian Arabic literature was during the Rustamids state according what we find as texts, and considering that the impact of Islamic conquests was firmly in the soul during the second and third centuries hedjerie

We notice that the religious reference is dominating the literary texts, especially in the side of the prose.

- We notice also that some literary texts in Rustamids time were covenants and Fatimid sectarian tendency.

What brought the Algerian writers of poetry and arts of prose, was an extension of the Eastern literary movement, but that does not deny that they excelled in the written of their texts as they wrote it in a simple language expressing their different positions of all aspects of life and their psychological experiences

They improve also their text in beautiful images invented they transfer it from the natural world into the world of the imaginative literature, and that demonstrated their ingenuity in imaging shows with the competence of creativity and innovation and good used of different reporting tools , particularly in the poetic side, in addition to the enrichment with Arabic culture, either by the inspiration from religious verses of the Qur'an and including its words or invoking the words of writers who preceded them and used the full text, in poetic or prose texts.

What we can say after this trip, is that we are not pretending that we rich our aims and realized what was expecting from us but we hope that we have participate to the revival this literature in a small simple manner by our participation.

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

مجلة الفضاء المغاربي

مجلة دورية محكمة يصدرها
مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها
في المغرب العربي

العددان الثامن و التاسع

السنة الحادية عشرة - شعبان 1435هـ/ ماي2014 م

رقم الإيداع القانوني
508-2003
الترقيم الدولي
ISSN: 1112- 4067

فهرس

افتتاحية العدد	مدير المجلة	7
الأدب المغربيّ		
أ- الشعر القديم		
فنّ المولّديّات في الشعر المغربيّ القديم	د. محمّد مرتاض	15
هجاء المدن والأقاليم في الشعر المغربيّ القديم	أ.نور الدين سعيداني	35
شعر أبي حمّو الزّياني بين المحاكاة والإبداع	د. نورية بن عدّي	47
ب- الشعر الحديث		
الاتّجاه الإصلاحيّ في شعر محمّد العيد آل خليفة	أ.عمارة حياة	57
البنية الإيقاعيّة في الذّبيح الصّاعد	أ. رحماني ليلى	67
النّقد الأدبيّ		
قفّ الشّاي- دراسة وتحقيق-	د. محمدن بن أحمد بن المحبوبي	85
المنهج الخلقيّ عند ابن رشيق	أ.شميسة بن مداح	101
ج- المصطلح		
إشكالية مصطلح الحداثة والمعاصرة في الشعر الجزائريّ	د. محمد مهداوي	111
المصطلح الصوفي الأشعريّ في منظومة أحمد بن عبد الله الجزائريّ	أ. وليد زهري	117
د- قراءات		
قراءة في الشعر الخلقيّ الزيانيّ	د. مولاي عبد الرحيم البودخيلي	125

قراءة في رسائل ابن الرّبيب	د. شافع نصيرة	137
هـ- رسائل جامعية		
أدب الأطفال في الجزائر- دراسة لأشكاله وأنماطه بين الفصحى والعامية (1990 - 2004	زهراء خواني	145
خطاب الأنوثة في الكتابات العربيّة المعاصرة. مقاربة في نقد السّرد النّسائي العربيّ المعاصر	حرّة طيبي	153
دراسة بيو-أنثروبولوجية لزواج الأقارب وعلاقاتهم بمنطقة مسيردة في أقصى الغرب الجزائريّ - مقاربة مقارنة مع مجموعات سكنية متوسطية	نجلاء مرتاض	155
ابن رشيق المسيلي شاعراً	وردة محصر	161
النّزعة الأخلاقيّة في الشعر الزّياني	سيدي عبد الرحيم مولاي البودخيلي	169
الأدب في العصر الزياني الثاني (749/952هـ)	نوريّة بن عدّي	173
حيز طلبة الدراسات العليا		
الاغتراب في الشّعر الجزائريّ الحديث	أمينة بوعلامات	181
النّهضة الشعريّة الجزائريّة في عهد ثورة التّحرير	نورة بن جبّار	193
المنهج الخلقيّ في النقد العربيّ القديم	حاج ميمون نسيمة	201
الشّعر وملكة الذّوق عند ابن خلدون	بلعربي جليلة	213
قراءة في كتاب «عن الترجمة»لبول ريكو- ترجمة حسين خمري	حاج علي فطومة	225
شعر الزّهد عند بكر بن حمّاد التّاهرتي	أمينة بن عديس	231
ملامح التّأثير الحضاريّ الإسلاميّ في الشّعر الأمويّ	وسيلة شرقي	239
الرقابة على الأفلام السينمائية المسترجعة : أداة حماية أو حصار؟	قرين زهور	247

شعر الزهد عند بكر بن حمّاد

أمينة بن عدّيس

جامعة تلمسان

لقد اكتسب شعر الزّهد في العهد الإسلامي طابعا خاصّا، فبعد نزول القرآن الكريم، ترسّخت فكرة التّرهيب من الدّنيا الزّائلة و التّرغيب في الآخرة دار البقاء لدى العديد من الشّعراء إذ أسهموا بقصائد زهدية عالجت أفكارا مختلفة كاندثار الأمم السّابقة، ومرور الزّمن بسرعة، وتزكية النّفس، وهلمّ جرّا، لتصبّ في قالب واحد؛ ألا وهو التّذكير بالموت وما بعده من أجل الاستعداد للحياة الأبدية.

وقد سار على درب هؤلاء العديد من الأدباء والشّعراء من بينهم شعراء بني رستم، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إنّ شاعر الزّهد الأوّل في العهد الرستمي هو بكر بن حمّاد، و الذّي قال عنه عبد الملك مرتاض :» لقد عُرف بكر بن حماد بشاعر الزّهد حتّى إنّنا قد لا نغالي إذا أطلقنا عليه أباعتاهية الجزائر، إذ لا نعرف شاعر برع في هذا النّوع الأدبي في بلاد المغرب كلّها، على عهده على الأقل، مثل براعته هو، وإن كنّا لنحسب أنّه يعدّ أيضا من أكابر شعراء القرن الثّالث للهجرة كلّه في أقطار المغرب إن لم يكن أكبرهم إطلاقا».[1]

التعريف ببكر بن حمّاد:

ولد بكر بن حمّاد بن سهل بن أبي إسماعيل الزّناتي التّاهرتي، أبو عبد الرّحمان بتيهرت سنة 200ه و نشأ فيها ثمّ انتقل إلى القيروان لتلقي العلوم، ومنها توجّه إلى المشرق، وكان له اتصال بالخليفة العبّاسي المعتصم بالله، كما جالس الكثير من الأدباء و اللّغويين و الشّعراء كدعبل الخزاعي وعلي بن الجهم وصريع الغواني وغيرهم ، وعاد إلى القيروان قبل سنة 239ه وجلس بها لإملاء الحديث و الأدب في جامعها الكبير، و أخيراً رجع إلى تيهرت حيث وافته المنية سنة 296ه.[2]

شعر الزّهد عند بكر بن حمّاد:

انبثق شعر الزّهد عند بكر بن حمّاد من تأملاته في هذه الحياة، وتذكرّه في حال من كانوا أحياء وما آلوا إليه إذ ظهر ذلك و اضحا في قصائده، وفي هذا المعنى يقول[3]:

قِفْ بِالْقُبُورِ فَنَادِ الْهَامِدِينَ بِهَا * مِنْ أَعْظُمٍ بَلِيتْ وَأَجْسَادِ

قَومٌ تَّقَطَّعَتِ الأَسْبَابُ بينهُمُ * من الوصالِ وصاروا تَحْتَ أَطْوَادِ

رَاحُوا جَمِيعًا عَلَى الأَقْدَامِ وَابْتَكَرُوا * فَلَنْ يَرُوحُوا وَلَنْ يَغْدُو لَهُم غادِ

وَاللهِ لَوْ رُدُّوا وَلَو نَطَقُوا * إِذاً لَقَالُوا: التُّقَى مِنْ أَفْضَلِ الزَّادِ[4]

إنّ الشّاعر يخاطب نفسه متعظا من تلك القبور الّتي حوت أشخاصا تقطّعت أسباب الوصال بينهم، لأنّ من سكن القبر لا يستطيع إجابة من يناديه، فرجوعه ميئوس منه. لذا، فالّشاعر يحذّر الغافلين من الانسياق وراء ملذّات الدّنيا وشهواتها، كون أولئك الموتى لو عادوا لأجابوا أنّ التّقوى هي زاد الإنسان في أخراه ومؤنسه في وحشته. والمعنى نفسه تقريبا يكرّره في مقطوعة أخرى:[5]

نَهَار مُشْرِق وَظَلاَمُ لَيْلٍ * أَلَحَّا بِالْبَيَاضِ و بِالسَّوَادِ

هما هَدّماَ دعَائِمَ عُمْرِ نُوحٍ * ولقمان وشدّاد وعاد

فَيَا بكر بن حمّاد تعجّب * لِقَومٍ سَافَروا مِنْ غَيْرِ زادِ.[6]

إنّه في هذا النّصّ يتأمّل حال الأمم السّابقة الّتي ظنّت أنّها خالدة لكن غدرها الزمن وكان مصيرها الموت، ضاربا الأمثلة بقوم نوح عليه السّلام ولقمان وشدّاد وعاد، ليخاطب نفسه متعجّبا من أولئك الّذين سافروا من غير زاد.

فما وقفة الشّاعر بالقبور وتأمّله في أحوال الماضين و الأمم السّابقة إلاّ تذكير النّفس بأنّ الموت الّذي هلك الأصدقاء و الجيران و الأحباب، هو الّذي هصر تلك الأمم العالية المجد، فتساوى الجميع وسكنوا القبور، ولا زاد لهم إلاّ التّقوى و العمل الصّالح.

وكيف لا يعظ نفسه، مادام هناك موت يطلب الجميع بمن فيهم هُوَ، فالكلّ واقف ينتظر الرّحيل إلى مكان لا رجعة منه، ولا بدّ لرائحه أن يحمل على نعش يغطّيه التّراب فيفارق الأهل والأصدقاء، لأنّ الموت يهدّم كل ما يبنيه الإنسان وكلّ شيء لا محالة زائل، بحيث يقول في قصيدة وقفة بالقبور مذكّرا نفسه وماذا ينتظره :

أَيْنَ الْبَقَاءُ وَهَذَا الْمَوْتُ يَطْلُبُنَا * هيهات هيهات يَا بَكْرُ بْنَ حَمّادِ[7]

ويقول أيضا:

وَكُلُّنَا وَاقِف مِنْهَا عَلَى سَفَرٍ * وَكُلُّنَا ظَاعِنُ يحدُو بِهِ الْحَادِي

فِي كُلِ يَـوْمٍ نَـرَى نعْشًـا نُشَيّعُهُ * فَرَائحُ فَـارَقَ ألأَحْبَـاب أوْغَـادِ

المَوْتُ يَهَـدِمُ مَـا نَبْنِيـه مـنْ بَـذخِ * فَمَـا إنْتِظَـارُك يَـا بَكْـرُ بْـنَ حَمّـادٍ؟![8]

كما نجده في قصيدة ذكر الموت، يقرّ بعصيان نفسه عصيانا شديدا و انْغماسها في الشّهوات فطال مروقها ولم تسمع لنصحه، وسيقودها الزّمن إلى حتفها الحقيقي فتجترع مرارة فعلها وتأكلها الدّيدان في باطن الثرى، يقول في هذا المعنى:[9]

لَقَدْ جمَحَت نَفسِي فَصَدّتْ وَ أعْرَضَتْ * وَقَدْ مَرَقَتْ نَفْسِي فَطَال مُرُوقُهَا

فَيَا أسَـفِي مِنْ جُنْحِ لَيْلٍ يَقُودُهَـا * وَضَـوْءِ نَهَـارٍ لَا يَـزَالُ يَسُـوقُهَـا

إلَى مَشْهَـدٍ لاَ بدّ لِي مِنْ شُهُـودِهِ * وَمِـنْ جَـزَعٍ لِلْمَـوتِ سَـوْفَ أذُوقُهَـا

سَـتَأكُلُهَا الدّيـدانُ فِي بَاطِـنِ الثّـرَى * وَيَذْهَـبُ عَنْهَـا طِيبُهَـا وَخُلُوقُـها[10]

ويواصل واصفا الموت على أنه سحب مظلة بدأت بالهطول من حوله ولمع بروقها لتقترب منه، فيذكّر نفسه علها تعتبر وتتدارك ما فاتها بعدما بلغ خمسة وسبعين عاماً ثم يجعل للموت أيدٍ تريد أن تخنقه كل يوم وليلة لتأخذ روحه، فيقول:

بَيْنا نَرَى المَرْءَ فِي لَهْوٍ وَ فِي لعِبٍ * حَتّى نَرَاهُ عَلَى نَعْشٍ وَ أعْوَادِ[13]

و يقول:

تَبِيتُ عَلَى فِرَاشِكَ مُطْمَئِنًا * كَأَنَّكَ قَدْ أَمِنْتَ مِنَ المَعَادِ
فَيَا سُبْحَانَ مَنْ أَرْسَى الرَّوَاسِي * وَ أَوْتَدَهَا مَعَ السَّبْعِ الشِّدَادِ[14]

ونظرا لتشبّعه بالثّقافة الإسلامية، وحفظه للقرآن الكريم و الحديث، يظهر إيمانه واضحا بقضاء الله وقدره في تسيير الأمور جميعها، بل يتحدّى الإنسان المتهافت على الدّنيا بأن يغيّر قضاء الله إن استطاع؛ فيقول:[15]

تَبَارَكَ مَنْ سَاسَ الأُمُورَ بِعِلْمِهِ * وَذَلَّ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَ الأَرْضِ
وَمَنْ قَسَّمَ الأَرْزَاقَ بَيْنَ عِبَادِهِ * وَفَضَّلَ بَعْضَ النَّاسِ فِيهَا عَلَى بَعْضِ
فَمَنْ ظَنَّ أنّ الحِرْصَ فِيهَا يَزِيدُهُ * فَقُولُوا لَهُ يَزْدَادُ فِي الطُّولِ وَ العَرْضِ[16]

هذه هي الرّوح الزهدية الّتي التزم بها بكر بن حمّاد في قصائده، ودلّت على تجهيزه لنفسه من أجل الاستعداد ليوم المَعاد، و إيمانه بحكم الله وقدره فأعرض عن الدّنيا الزّائلة، و أقبل على التّدبر و التّمعّن في الآخرة مذكراً بالموت وما ينتظره في دار البقاء.

وهدا ما دكره محمود علي مكّي في قوله: « وقد انصرف بكر بن حمّاد بآخرة من عمره عن عرض الدّنيا واقتصر على النّظم في الزّهد و المواعظ وذكر الموت «.[17]

المعجم اللّغوي:

يعدّ القرآن الكريم المنهل الأساسي الّذي ينتقي منه شاعر الزّهد ألفاظه ويقتبس معانيه، ولهذا نلحظ عند بكر بن حمّاد تأثرا واضحا بالقرآن كقوله:

والله لَوْزُدُوا وَلَو نَطَقُوا * إذا لقَالُوا : التُّقَى مِنْ أَفْضَلِ الزّاد

مقتبسة من قوله تعالى:{ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}[18]

قوله:

مَنْ قَسَّمَ الأَرْزَاقَ بَيْنَ عِبَادِهِ * وَفَضَّلَ بَعْضَ النَّاس فِيهَا عَلَى بَعْضِ

مأخوذة من قوله جلّ وعلا: { وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ}[19]

وقوله أيضا:

وَأَيْدِي المَنَايا كُلّ يَومٍ وَلَيْلَةٍ * إذا فُتِقَتْ لا يُسْتَطَاعُ رُتوقُهَا

إشارة إلى قوله تعالى :{ أَوَ لَمْ يَرَ الّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَ الأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا}.[20]

إلى غير ذلك من الاقتباسات و التناصّات القرآنية التّي أدّت المعنى المقصود وزانته، ممّا يدلّ على مواظبة بكر بن حمّادٍ على تلاوة القرآن وحفظه.

كما استعمل لغة التّأمل في هذا الوجود و الاعتبار منه لتذكير النّفس بما ينتظرها مثل قوله: قِفْ بالقُبورِ، نَادِ الْهَامِدِين، يا بكرِ بن حمّاد تعجّب، فما انتظارك، هيهات هيهات....

إضافة إلى استعماله لغة التّذكير و الإنذار بالموت كقوله:

بَيْنَا نَرى أَلْمَرْءَ فِي لَهْوٍ وفِي لَعِبٍ * حَتّى نَرَاهُ عَلَى نَعْشٍ وَ أَعْوَادِ

وقوله : سحاب المنايا، هطلت حولي، أيدي المنايا، على حين غفلة، يأتيك في البيات.

وقوله أيضا:

تَبِيتُ عَلَى فِراشِكَ مُطْمَئِنًا * كَأَنّكَ قد أمِنْتَ مِنَ الْمِعَادِ.

ولقد اختار لغة التحسّر و النّدم حينما قال :

لَقَدْ جَمَحَتْ نَفْسِي فَصَدّتْ وَ أَعْرضَتْ * وَقَدْ مَرَقَتْ نفسي فَطَالَ مُرُوقَها
فَيَا أَسَفِي مِنْ جُنْحِ لَيْلٍ يَقُودُهَا * وَضَوْءِ نَهَارٍ لَا يَزَالُ يسوقها
إلَى مَشْهَدٍ لاَ بُدَّ لِي مِنْ شُهُودِهِ * وَمِنْ جُرعٍ لِلْمَوْتِ سَوْفَ أَذُوقُها

إنها لغة التّأسف والاعتراف بالذنب والنّدم على تلك النّفس الّتي سايرت الأهواء، وسيتعاقب عليها الّليل و النّهار ليبلّغاها أجلها فتلقى حتفها وتجازى على فعلها.

كما مال في زهده إلى الألفاظ الدّالة على مصير الإنسان ونهايته الحتمية، والتي تحمل دلالات الموت، ومن ذلك قوله: قوم سافروا، الهامدين، القبور، تقطّعت الأسباب ،راحوا جميعا، أين البقاء، الموت يطلبنا، كلّنا واقف منها على سفر، فارق الأحباب، نعش و أعواد، مشهد لا بد من شهوده، باطن الثّرى.......

مجلة الفضاء المغاربي ـــ
إلى غير ذلك من الألفاظ الّتي جعلت لغته سهلة واضحة سلسلة الفهم، و التّي استوحاها من تجاربه في الحياة، وموقفه منها.

الصّورة الشّعرية:

تعتبر الصّورة الشّعرية « أساس العمل الأدبي »[21]، لذلك اهتمّ بها شعراء الزّهد، من بينهم بكر بن حمّاد، فعبّر عن انفعالاته وعواطفه مستعملا التّصوير الفنّي ليقرّب المفاهيم الغامضة من المتلقّي ويجعله يتخيّل المشهد أمامه فيعيش تلك الحالة.

والملاحظ في شعر بكر بن حمّاد أنّه أكثر من صور الموت نكتفي بذكر واحدة منها، ولنتأمل هذه الصّورة التّي نمّقها قائلا:

سَحَابُ المَنَايا كلّ يَوْمٍ مظلّة * فَقَدْ هَطَلَتْ حَوْلِي وَلَاحَ بُرُوقُهَا

شبه الموت بالمطر إذ حذف المشبّه به ورمز إليه بأحد لوازمه فاستعار لفظة « سحاب» وما تحدثه هذه السّحب بظلها عندما تبدأ بالهطول حوله ويلمع بروقها فتؤثّر عليه وتقترب منه شيئا فشيئا لتأخذ روحه كونها تزوره باستمرار، فسحابة الموت شبيهة جدّا بسحابة المطر الغزير الذي يؤثّر على الطّبيعة فيحدث كوارث طبيعية تؤدّي إلى هلاك الإنسان.

إنّ هذه الصّورة الرائعة لبكر زادت المعنى بيانا وقوّة ورهبة؛ ولاسيّما أنّه بنى صوره الشّعرية على قناعته الدّينية وثقافته الإسلامية.

الإيقاع:

اختار شاعرنا البحر الطويل في قصيدة: « ذكر الموت» ومقطوعة « تفضيل بعض النّاس»، كما انتقى البحر البسيط لقصيدة « وقفة بالقبور» بالإضافة إلى استعماله بحر الوافر في مقطوعة « اندثار الأمم « وكلّها من البحور الخليلية المألوفة في الشعر العربي الملائمة لغرض الزّهد، لأنّها ترتبط بالموضوعات الجليلة ذات الطّابع التّأملي واستخلاص العبر، والتّذكير بالموت، فجلّها موضوعات تتطلّب الوقفة الطويلة، و النّفس الطّويل، وبثّ الفكرة العميقة.

كما استعمل القافية المطلقة المشبعة للنفس، وصحب تلك القافية «الدّال « رويا في « وقفة بالقبور» و» اندثار الأمم» و « الهاء ممدودة بألف « في ذكر الموت، وهما حرفان يتكيفان مع

المواقف المختلفة ، أضف إلى ذلك انتقاءه لحرف « الضّاد» رويا في « تفضيل بعض النّاس» وهو الحرف الأقل استعمالا في القصيدة العربية.

وصفوة القول إنّ بكر بن حمّاد استطاع أن يبلغ في شعر الزّهد درجة متميّزة، وذلك نابع من تأثّره الديني بالقرآن الكريم وتشبّعه بالثّقافة الإسلامية التّي استمدّها من رحلاته العلميّة الكثيرة، ومجالسته للعلماء والمحدثين، فحقّ للجزائر أن تفخر بشاعرها الفحل الزّاهد العابد « بكر بن حمّاد».

هوامش واحالات

1- الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور د- ط دار هومة 2005، ص65.

2- ينظر معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية ط 3 1983م،ص58 – 59.

3- البحر البسيط.

4- الدر الوقاد من شعر بكر بن حمّاد، محمد بن رمضان شاوش المطبعة العلوية مستغانم - ط-1 1986م، ص80.

5- البحر الوافر.

6- رياض النفوس، أبو بكر المالكي، ج1، ط. القاهرة 1958م، ص162.

7- الدر الوقاد، ص 81.

8- المصدر نفسه، ص 82.

9- البحر الطّويل.

10- الدر الوقاد، ص 78.

11- المصدر نفسه، ص 79.

12- المصدر نفسه ، ص ن.

13- المصدر نفسه، ص 81 – وقفة بالقبور.

14- رياض النفوس، ص -162اندثار الأمم.

15- البحر الطّويل.

16- الدّر الوقّاد، ص 77.

17- بكر بن حمّاد شاعر المغرب العربي في القرن 3هـ محمد الأخضرعبد القادر السّائحي د- ط،2007، ص 87.

-18 سورة البقرة الآية (197).

-19 سورة النّحل الآية (71).

-20 سورة الأنبياء الآية (30).

-21 النقد الأدبي القديم في المغرب العربي :نشأته وتطوره (دراسة وتطبيق) د: محمد مرتاض، نشر: اتحاد الكتاب العرب – دمشق ص 132.

Université ABOU BEKR BELKAID – Tlemcen

REVUE

L'ESPACE MAGHREBIN

REVUE PERIODIQUE
DIRIGEE ET PUBLIEE PAR LE
LABORATOIRE D'ETUDES LITTERAIRES
ET CRITIQUES ET DES GRANDES
FIGURES DANS LE MAGHREB ARABE

Numéros 8 - 9

N° légal d'édition
508-2003

Numérotation nationale
ISSN: 1112- 4067

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة قاصدي مرباح ورقلة

الذاكرة

دورية أكاديمية محكمة تصدر عن مخبر
التراث اللغوي و الأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري
كلية الآداب و اللغات

العدد الخامس ماي 2015
الترقيم الدولي : ISSN2335-125X

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المحور الأول : الأعلام	
من قضاة توات (سيدي الحاج البلبالي(1155هـ . 1244هـ) عبد القادر بقادر جامعة ورقلة	17-8
نسمات وإشعاعات من مدينة الواحات – ورقلة – الشيخ حمزة خذران ومدرسته القرآنية كمال علوش جامعة ورقلة	30-18
العلامة محمد الصغير الأخضري البسكري حياته وآثاره يوسف بن حسين خنفر جامعة ورقلة	51-31
الشيخ: أمحمّد بن يحي الخلوفي " منارة العلم وقداسة السّر" حكيم بوغازي جامعة غليزان	72-52
أحمد التيفاشي وإسهاماته العلمية مليكة بن عطاء الله جامعة ورقلة	89-73
المحور الثاني : دراسات في المخطوط	
قراءة وصفية في خزانة المخطوطات بالمطارفة،ولاية أدرار أسماء بوبكري جامعة أدرار	101-90
التراث الكُنتي المخطوط قراءة في الدور الحضاري لزاوية كنتة، وأهم أعلام التراث الكنتي المخطوط خديجة عنيشل	116-102

جامعة ورقلة	
"متن الجوهر المكنون في الثلاثة فنون".للشيخ عبد الرحمن الأخضري– دراسة وصفية أحمد حاجي جامعة ورقلة	123-117
المحور الثالث : دراسات لغوية و أدبية	
المنحنى العاطفي للذات الحربية الأسيرة قصيدة " يا سايلني" للشاعر الشعبي محمد بلخير مداح الشيخ بوعمامة نموذجا عبد اللطيف حني جامعة الطارف	144-124
الجنوب الجزائري في شعار (مقاربة في صور) محمد السعيد بن سعد المركز الجامعي غرداية	158-145
حقل "المحمود في الخيل" من خلال كتاب "أوصاف الخيل " للعلامة البكري بن سيدي عبد الرحمان التلاتي (ت1339ه) – دراسة في ضوء نظرية الحقول الدلالية فاطمة برماتي إدريس بن خويا جامعة أدرار	176-159
التفرد الفني في بناء قصيدة المدح النبوي عند الجزائريين (قراءة في التسخير الفني والجمالي) معتوق جميلة جامعة أدرار	202-177
الخصائص الفنية للخطابة في العهد الرّستمي – أحمد بن منصور أنموذجا– أمينة بن عديس جامعة تلمسان	214-203
المنجز الشعري المعاصر واتجاهاته بمنطقة غرداية مسعود خرازي	240-215

جامعة غرداية	
أثر الاتّجاه الصّوفي في تفسير القرآن عند فخر الدين الرّازي زهرة بن يمينة جامعة مستغانم	264-241
لهجة تلمسان بين الأمس و اليوم نادية بولقدام جامعة تلمسان	284-265
آليات توليد المصطلح الاقتراض اللغوي آلية جودي مرداسى جامعة باتنة	300-285
تجليات القرائن اللفظية في شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك مبروك بركات مركز البحث العلمي والتقني لتطوير الغة العربية وحدة البحث ورقلة	318-301
ازدواجيّة المنطق المتناقض في التربية وأثرها في سلوك أبنائنا. سليم سعداني جامعة الوادي	335-319
ظاهرة الإبدال بين الصوامت مقاربة صوتية دلالية في ضوء علم الأصوات الوظيفي عمر بوبقار جامعة ورقلة	355-336
البطل في الآداب العالمية: من الأسطورة إلى الحداثة (مقال) نسيمة زمالي جامعة تبسة	401-356

الخصائص الفنية للخطابة في العهد الرّستمي

- أحمد بن منصور أنموذجا-

أمينة بن عديس

جامعة تلمسان

تعد الخطابة من أهم الفنون النثرية، لكونها الوسيلة المثلى لمخاطبة الجماهير وإقناعهم بصيغ أدبية متميّزة، إذ عالجت مواضيع الحرب و القتال و السلم في العصر الجاهلي، و تطورت تطوّرا ملحوظا بمجيء الإسلام، فحدث تغيّر في أسلوبها، و أصبح من أغراضها الدّعوة إلى الدّين، و الأمر **بالمعروف** والنهي عن المنكر مدعّمة ذلك بالاستشهاد من القرآن الكريم و الحديث الشّريف، و لمّا اختلف المسلمون بعد مقتل عثمان بن عفّان– رضي الله عنه– تعدّدت الفرق المذهبية كالخوارج والشيعة والمعتزلة، فارتقّت الخطابة رقيا كبيرا لاعتماد كل حزب على نشر نحلته و تأييد دعوته، و من أشهر خطباء ذلك العهد الرّسول – صلّى الله عليه و سلّم– والخلفاء الراشدون.[1]

و لقد سار على درب هؤلاء العديد من الشّعوب المسلمة من بينهم خطباء بني رستم الذين عالجوا مواضيع دينيّة أكثر ممّا عالجوا مواضيع أدبية، لكون العلوم الدينية كانت أكثر شيوعا من العلوم الأخرى آنذاك، « فكانوا ينطلقون من منبع واحد، ليصبّوا في جدول واحد، منبع الثقافة العربية الإسلامية وجدول المجتمع الإسلامي»[2].

و ما يؤكّد كلامنا هذا خطبة أحمد بن منصور الذي يعد من أشهر خطباء الدولة الرستمية الإباضية المذهب الّتي تأسست على يد عبد الرحمن بن رستم في

النصف الثاني من القرن الثاني الهجري،وبالرغم من اننا لانعلم عن هـذا الخطيـب سوى اسمه بسبب ضياع أنفس الكتب آنذاك وإحـراق

مكتبة المعصومة فإن ابن الصغير أشار إليه في كتابه قائلا:"...وحضرت لخطبـائهم خطبا كثيرة،أولهم ابن أبي إدريس والثاني أحمد التيه والثالث أبو العباس بن فتحـون والرابع عثمان بن الصفار والخامس أحمد بن منصور"[3]، أما خطبتـه فقـد مثّلـت الخصائص الفنيّة للخطابة الدينية في العهد الرّستمي، و لذلك يمكن أن نطبّق عليهـا الخصائص الفنيّة الّتي وضعها إحسانِ النّص للخطابة الدّينية و منها:[4]

1 – الأثر الإسلامي.

2–السجع والتوازن.

3–الأسلوب العاطفي.

4–الأسلوب التصويري.

1– الأثر الإسلامي

لـقد ظهـر الأثـر الإسلامـي في الخطـب الدّينـية بصـورة أقـوى مـن الخـطب الأخرى، فالخطيب قبل كل شيء هو الإمام، و من هنـا طغـت الرّوح الدّينية على تلـك الخطـب، و مـن المعروف أيضا أنّ الخطـب الدّينيـة تستهلّ بالبسملة و الحمدلة والتّمجيد و الصّلاة "وقيل لخطب زياد بن أبيه بالبتراءلأنّها تخلو من الحمدلة والصّلاة على الرسول–صلى الله عليه وسلم–"[5].

كما أنّ خطب الجمعة إذا لم تقترن بالحمدلة و الشّهادة فهي جذماء[6].ومن تم فإن خطبة أحمد بن منصور ليست بالبتراء و لا بالجذماء إذ استهلّها بالحمدلة و التنويه بعظمة الله وقدرته – جـلّ وعلا – في تسيير الكون، مذكّرا من حين لآخر بنعم الله

على خلقه كنعمة القرآن الكريم، و الّذي يبيّن فيه الله تعالى جميع الشّرائع و الأحكام، حامدا الله على تلك النّعم، معترفا له بالربوبية و الجبروت، مقرّا بنبوّة محمّد – صلّى الله عليه و سلّم – الّذي استطاع أن يهدي كثيرا من الخلق إلى الصّراط المستقيم، ثمّ ختم الجزء الأوّل بالصلاة و السّلام على الرّسول

و من مظاهر الأثر الإسلامي كذلك الاستشهاد بالقرآن الكريم، إذ نجد هـذه الخطبة لا تخـــلو من الاستشهاد بالقرآن الكريم، فاستشهد بآيتين من القرآن هما:

1* ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الأَمْرَ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُم فِي شَـــيءٍ فَرُدّوه إِلَى اللهِ وَ رَسُولِه إِنْ كُنْتُم تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ اليَومِ الآخِـرِ ذَلِكَ خَيْر وَ أَحْسَنَ تَأوِيلًا**﴾.[7]

2* ﴿**وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلاّ لِتُبَيّنَ لَهُمْ الّذِي اخْتَلَفُوا فِيه** ﴾.[8]

كما استشهد بسورة الإخلاص حيث قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدْ(1) اللهُ الصَّمَد(2) لَـمْ يَلِـدْ وَلَم يُولَد(3) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدْ(4)** ﴾ [9] و الّتي احتوت على أربع آيـــات، و بالتّالـــي يكـــون عـــدد الآيات الّتي استشهد بها في خطبتـــه ســـت آيات.

هكـــذا دعّـــم الخطيب كلامه بالآيات القرآنية الّتي أدّت المعنى المقـــصود و زانتـــه، و مـــن ناحـــية أخرى ضمّن خطبته عبـــارات و كـــلمات هي اقتباس مـــن القرآن الكريم، كقوله :" ثمّ استوى إلى السمـــاء وهيّ دخّان فقال لها و للأرض ائتيا طوعا أو كرها قالت آتينا طائعـــين "فهي مقتبسة من ســـورة فصّـــلت الآية الحادية عشرة. أو كقوله :" وَ زَيّنَهَا لِلنّاظِرِين وَ جَعَلَ فِيهَا رُجُومًا لِلشّيَاطِين"، الّتي أخذها من قولـــــه تعالى: ﴿**وَلَقَدْ زَيّنّا السّمَاءَ الدّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَ جَعَلْنَاهَا رُجُومًـــا لِلـــشّيَاطِين** ﴾.[10]و أيضا قوله ،" لِيَعْلَمَ أَنْ قَـــدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْـــصَى كُلّ شَيْءٍ عَدَدَا "[11] و نجد كذلك اقتباسا في قوله :

" حتّى استقام من أراد الله توفيقه" من قوله تعالى:﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلاَ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاّ بِالله عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾.[12]

و من مواطن الاقتباس كذلك قوله:" أرسله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدّين كلّه و لو كره المشركون " إذ أخذها من قوله تعالى : ﴿**هُوَ الّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَ دِينِ الحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلّه وَ لَوْ كَرِهَ المُشْرِكُون** ﴾[13] إذ وردت هذه الآية في سورتين من القرآن الكريم الأولى التوبة والثانية الصف.

يضاف إلى هذا ترديد الخطيب عبارة " لا حكم إلاّ لله " الّتي كانت من شعارات الخوارج و هي مقتبسة من ثلاث آيات قرآنية و هي قوله تعالى : ﴿**إِنَّ الحُكمَ إِلاَّ لله عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكّلِ المُتَوَكِلُون**﴾ "[14] و قوله أيضا :﴿ **إِنَ الحُكْمَ إِلاَ لله أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ ذَلِكَ الدّينُ القَيّم وَ لَكِنْ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُون** ﴾[15] و كذلك قوله:﴿**إِنِ الحُكمَ إِلاّ لله يَقُصُّ الحَق وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِين**﴾"[16]

فواضح إذن أن هذه الخطبة جاءت مليئة بالاقتباس، إذ طغى عليها بصورة ملفتة للانتباه.

و من مظاهر الأثر الإسلامي أيضا محاكاة أسلوب القرآن والنسج على منواله، و مثال ذلك قوله: و أشهد أن محمّدا عبده ورسوله اصطفاه لنفسه وليّا وارتضاه لخلقه نبيّا فأوجده على حفظ ما ضمّنه قويّا و بأداء ما استودعه مليّا و بالدّعاء إلى ربّه خفيّا "، إذ نسجها على طريقة سورة مريم، و لا بأس أن نورد بعض آياتها حيث قال تعالى :﴿ **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيّاء(1) إِذْ نَادى رَبّهُ نِدَاءًا خَفِيّاً(2) قَالَ رَبِّ إِنِي وَهَنَ العَظْمُ مِنّي وَ اشْتَعَلَ الرّأْسُ شَيْبًا(3) وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا(4)** ﴾.[17]

وما يمكن قوله في هذا السياق هو أن الخطيب ربما جعل كلامه على نظام الفواصل ،إمعانا لمحاكاة أسلوب القرآن لا من أجل إحداث المتعة الأدبية.

والمفيد أنّ خاصية الأثر الإسلامي تدلّ على مدى مواظبة الخطباء الرّستميين على تلاوة القرآن و حفظه، نظرا لغلبة الاستشهادات و الاقتباسات في خطبهم أكثر من كلامهم، و ذلك لأنّهم كانوا يجدون فيها تزكية و حلاوة لتلك النصوص، خصوصا وأنهم كانوا ينطلقون من الثقافة الدينية البحتة

2- السّجع و التّوازن :

الظاهر أن السّجع في هذه الخطبة جاء تلقائيا دون صنعة أو تكلّف، و ذلك راجع إلى التّأثر بأسلوب القرآن الكريم و النّسج على منواله إلاّ أنّه أحدث إيقاعا في الخطبة، كقول أحمد بن منصور : " الحمد لله الّذي ابتدأ الخلق بنعمائه، و تغمّدهم جميعا بحسن آلائه، فوفق كلّ أمر منهم في صبائه، على طلب ما يحتاج إليه من غذائه، و سخّر له من يكلوه إلى وقت استغنائه، ثمّ احتجّ على من بلغ منهم بالآيات وحذر إليهم بأبنائه، و أعذر إليهم بإبلائه، الّذي لم يزل بصفاته و أسمائه ". و كذلك قوله :" و زيّنها للناظرين، وجعل فيها رجوما للشّياطين، فتبارك لله أحسن الخالقين، تعالى أن تطلق في وصفه آراء المتكلّفين،أو أن تحكم في دينه أهواء المتقلّدين بل جعل القرآن إماما للمتّقين وهدى للمتنازعين، وحكما بين المتقابلين "

3- الأسلوب العاطفي :

يحاول الخطيب جاهدا أن يحوّل الأفكار إلى عواطف لكي يستميل المتلقيّن و يؤثّر فيهم، و بما أن التأثّر بالقرآن الكريم واضح و ظاهر بشكل ملفت للانتباه، فإنّ العاطفة الدّينيّة هي الّتي هيمنت على الخطبة، فاستعمل الخطيب بذلك الأسلوب العاطفي إذ كان "انعكاسا لهذا الشّعور الدّيني القوي الّذي غمرت به قلوب الأتقياء و

العباد الصالحين، و كان صدق عقيدتهم الدّينية يملأ نفوسهم فرقا من عذاب الله و ما أوعد به المشركـين والفلسفـيين".[18]

فأحمد بن منصور عندما قال :" قدّرها أحسن تقدير، و اخترعها من غير نظير، لـم يرفعها بأعمدة تدرك بالمعاينة، و لم يستعن عليها بأحد اسـتكبارا عـن الـشركة و المعاونة، و زيّنها للنّاظرين، و جعل فيها رجوما للشياطين، فتبارك الله أحسن الخالقين ". فهو لم يرد بذلك إظهار الصّورة الّتي بنيت بها السّماء، و إنما كان يريد من ذلـك إظهار القدرة و البراعة الإلهية في الخلق لتسيير الكون، والّتي لا تضاهيها أي قدرة، فحاول بذلك استمالة الحاضرين و التأثير في نفوسهم مبيّنا لهم معجزة الله و تحدّيـه للبشر لكون الخلق الربّاني لا يضاهيه الخلق البشري.

كما تتوفرهذه الخطبة على الصّيغ الإنشائية و أساليب التّوكيـد خاصّـة التكرار، فعندما تحدّث عن حمده و شكره لله كرّر عدّة كلمات، و ذلك ما نستشفه من خلال قوله :" أحمده حمدا يبلـغ رضاه ويحسـن ألاه، وأستعينه على ما استحفظنا من ودائعه، و حفظنا ما استودعنا من ودائعه، و أومن به إيمان من أخلص له عبادته و استشعر طاعته، و أتوكّل عليه توكّل من انقطع ثقة به و رغبة فيما لديه و أشهد أنّ لا اله إلا الله وحده لا شريك له شهادة معترف له بالربوبية و التّوحيد " فهو لمّا كان في موقف الحمد كرّر كلمة أحمده حمدا، و عندما أظهر إيمانه لله أكّده بقوله :" أومن به إيمان " كما أنّه لمّا فوّض أمره لله قال :"أتوكّل توكّل و أشهد شهادة ليوضّح وحدانية الله"

فالخطيب إذن استعمل التّكرار لتأكيد الشّـكر و الحـمد و التّوحيـد لله ، كمـا استعمـل التّـرادف لتأكيـد المعنـى إذ نجـده بيـن (المتخالفـين=المتـنازعين)،(نعمـائه=آلائـه)، (يـضلل=لاهـادي) (الأحـد=الفـرد)، (شرور=سيئات) و إضافـة إلى التّرادف نجـد التبـاين بكثـرة

و ذلك لتوضيح الفرق بين الكلمتين كالتباين بين (الأرض≠السماء)، (الله≠الشياطين)، (يهلك≠ينجي)، (يضلل≠يهدي)...

4- الأسلوب التّصويري:

حظ الخيال قليل في الخطب الدّينية، لأنّ الخطيب يكون في موقف العابد الدّاعي لا في موقف النّاسج المصوّر، لذلك يستمدّ تلك الصّور من القرآن الكريم، فمثلا أحمد بن منصور عندما قال :" استوى إلى السّماء و هي دخّان، ففال لها و للأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا آتينا طائعين " فهذه العبارة كما أسلفنا مقتبسة من القرآن الكريم، إذ جعل الله سبحانه و تعالى الأرض و السّماء كالإنسان الذي يتحدّث و يثبت الطّاعة لله، فوظّفها الخطيب في خطبته للدّلالة على عظمة الخالق. كما يمكن أن نضيف إلى هذه الخصائص، الخاصية الّتي غلبت على النّثر في تلك الفترة ألا و هيّ خاصيّة النّزعة المذهبيّة.

5- النّزعة المذهبيّة الخارجية:

من الشّائع و المعروف تعدّد المذاهب آنذاك،إذ كان كلّ مذهب متعصّبا لحزبه، فالشّعار الّذي رفعه الخوارج و هوّ "لا حكم إلاّ لله "في حادثة التّحكيم الشّهيرة، يظهر واضحا في خطبته حين يقول:

1-لا حكم إلاّ لله إتباعا لكلام الله و سنّة رسوله و خلافا لأهل البدع.

2-لا حكم إلاّ لله خلعا ونبذا و فراقا لجميع أعداء الله.

3-لا حكم إلاّ لله و لو كره الجبّارون الكافرون بغير ما أنزل.

4-من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون و الظّالمون.

و ما يمكن أن نخلص إليه هو أن أحمد بن منصور اتّسمت خطبته بالوضوح وعدم الاهتمام بالتّصنع في أساليب البيان بل غلبت عليها النّزعة المذهبيّة والتّعصّب لتلك النّزعة و الدّعوة إلى الدّين، ممّا بيّن أنّ الخطب في العهد الرّستمي تميّزت بامتزاج الأفكار الدّينيّة بالدّعاوي المذهبية

ملحق خطبة التحكيم: قال أحمد بن منصور في يوم من أيام الجمعة:

الحمد لله الّذي ابتدأ الخلق بنعمائه، و تغمّدهم جميعا بحسن آلائه، فوفّق كل أمر منهم في صبائه على طلب ما يحتاج إليه من غذائه، و سخّر له من يكلوه إلى وقت استغنائه، ثم احتجّ على من بلغ منهم بالآيات و حذّر إليهم و أعذر إليهم بإبلائه (كذا) الّذي لم يزل بصفاته و أسمائه، لا يشتمل عليه زمان، و لا يحيط به مكان، خلق الأماكن و الأزمان ثم استوى إلى السّماء وهي دخان، فقال لها و للأرض ائتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين فقدّرها أحسن تقدير، واخترعها من غير نظير، لم يرفعها بأعمدة تدرك بالمعاينة، و لم يستعن عليها بأحد استكبارا عن الشركة و المعاونة، و زيّنها للنّاظرين، و جعل فيها رجوما للشياطين، فتبارك الله أحسن الخالقين، تعالى أن تطلق في وصفه آراء المتكلّفين أو أن تحكم في دينه أهواء المتقلّدين، بل جعل القرآن إماما للمتقين و هدى للمؤمنين و ملجأ للمتنازعين، و حكما بين المتخالفين، و دعا أولياءه المؤمنين إلى إتباع تنزيله وأمرهم عند التّنازع في تأويله بالرّجوع إلى قول رسوله -صلّى الله عليه وسلّم- بذلك نطق حكم كتابه إذ قال جلّ ثناؤه:﴿ **يأيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول و أولى الأمر منكم**...إلى قوله...و **أحسن تأويلا** ﴾ و تعهّد نبيّه -صلّى الله عليه وسلّم- عند رجوع الأمّة في تأويل ما أشكل عليها إليه بأن يبيّن لهم معنى ما أنزل عليه فقال:﴿ و **ما أنزلنا عليك الكتاب ألاّ لتبيّن لهم الّذي اختلفوا فيه** ﴾، و لم يكلّ لهم تعالى إلى القول في دينه بآرائهم، و لا أذن لهم في مسامحة أهوائهم فتكون الأحكام مبتدعة، و الآراء

مخترعة، و الأهواء متّبعة بل أحصاها كلّ شيء عددا،وضرب لكل شيء أمرا، ليهلك من هلك على بيّنة، و يحيي من حيي عن بيّنة.

أحمده حمدا يبلغ رضاه و يحسن ألاه و أستعينه على ما استحفظنا من ودائعه و حفظنا ما استودعنا من شرائعه و أومن به إيمان من أخلص له عبادته و استشعر طاعته، و أتوكل عليه توكّل من انقطع إليه ثقة به و رغبة فيما لديه و أشهد أنّ لا اله إلاّ الله وحده لا شريك له شهادة معترفا له بالربوبيّة و التّوحيد، مقرّا له بالعظمة و التّحميد خائفا من إنجاز ما قدّم إليه من الوعيد، و أشهد أنّ محمّدا عبده و رسوله اصطفاه لنفسه وليّا و ارتضاه لخلقه نبيّا فأوجده على حفظ ما ضمّنه قويّا وبأداء ما استودعه مليّا، و بالدّعاء إلى ربّه خفيّا، و متوقّفا عن ورود المشكلات و مشمّرا عند انجلاء الشّبهات، لا يرعوى لمن عدله و لا يلوى على من خذله و لا يطيع غير من أرسله، يصدع بالأمر و يطفئ نار الكفر و لا تأخذه في الله لومة لائم، و لم يحرف عنه لرغم راغم أرسله على حين فترة من الرّسل و درس من السّبل و تضامن من أهل الملل والنّاس فريقان : عالم متكبّر و جاهل مستظهر فالعالم الّذي سبق له الخذلان ينزعه الشّيطان ويجمع به الطّغيان فيستنكف عن الدّخول في دين الإيمان، و الجاهل مستتكع في غيّه متحيّر في أمره، منتظرا ما يكون من غيره فلم يزالا يعكفان على الأزلام و يعتصمان بالأصنام و الرّسول عليه السّلام يرعى رعى السّوام و يدعوهم إلى دار السّلام فلم يزل -صلّى الله عليه و سلّم- يعظهم بالآيات و يقرعهم بالمعجزات حتّى استقام من أراد الله توفيقه من سائر أهل الديّانات فبلغ المحكمات و أوضح المشكلات و زجر عن القول في الدّين بالشّهوات، فختم الله به النّبيّين و أكمل به الدّين و أوجب به الحجّة على العالمين، صلّى الله عليه و على آله الطيّبين و إخوانه من المرسلين و أوليائه من المؤمنين.

ثمّ جلس فقام و حكّم قائلا:

" الحمد لله نستعينه و نستغفره و نؤمن به و نستهديه و نستنصره و نبرأ من الحول و القوّة إليه و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيّئات أعمالنا من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلا هادي له، و نشهد أنّ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له و أنّ محمّدا عبده رسوله، أرسله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدّين كلّه و لو كره المشركون، الله ربّنا و محمّد نبيّنا و الإسلام ديننا و الكعبة قبلتنا و القرآن إمامنا، رضينا بحلاله حلالا و بحرامه حراما لا نبتغي عنه بدلا و لا عنه حولا و لا نشتري به ثمنا، لا حكم إلاّ لله إتّباعا لكلام الله وسنّة نبيّه عليه السّلام و خلافا لأهل البدع، لا حكم إلاّ لله خلعا و نبذا و فراقا لجميع أعداء الله، لا حكم إلاّ لله و لو كره الجبّارون الحاكمون بغير ما أنزل الله و أشهد أنّ من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون و الفاسقون اللّهم صلّ على محمّد و على آل محمّد و بارك على محمّد و على آل محمّد كما صلّيت و باركت ورحمت على إبراهيم و على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد، اللّهم صلّ على العصبتين المباركتين من المهاجرين و الأنصار و التّابعين لهم بإحسان، اللّهم ارحم الشّراة في سبيلك أهل الفضل في الإسلام و صلّ على الخليفتين المباركين بعد نبيّك محمّد أبي بكر و عمر إمامي الهدى بما عملا به من كتابك و ما أثراه من سنّة نبيّك، اللّهم و أصلح الأمير ابن محمد، أصلحه و أصلح على يديه ووفّقه للخير... و أعنه عليه وافتح له من عندك أعوانا و أنصارا على طاعتك، اللّهم أعزز به الإسلام و أذلل به الكفر و أهله أنصره نصرا عزيزا، و افتح له فتحا يسيرا، و هب له من عندك سلطانا نصيرا، كفى بك وليّا و كفى بك نصيرا، اللّهم اغفر لنا و لإخواننا الّذين سبقونا بالإيمان و لا تجعل في قلوبنا غلاّ للّذين آمنوا، ربّنا إنّك رؤوف رحيم " ثم قرأ قل هو الله أحد و نزل.

أخبار الأئمّة الرّستميين، ابن الصغير، تحقيق د: محمد ناصر و إبراهيم بحّاز بكير،المطبعة الجميلة 1986م ص 106 و ما بعدها.

الهوامش:

القرآن الكريم: رواية حفص.

1-أحمد حسن الزيات-تاريخ الأدب العربي- دار الثقافة -لبنان- ط28 (د-ت) ص192 .

2- العربي دحو- مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم - ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ص95.

3-ابن الصغير-أخبار الأئمة الرستميين،تحقيق د :محمد ناصر و إبراهيم بخار بكير،المطبعة الجميلة1986 ص105

4- إحسان النص-ا لخطابة العربية في عصرها الذّهبي -، دار المعارف مصر، ط2-1119 ص220 وما بعدها.

5- ابن منظور-لسان العرب- مج 1 من أ إلى ر-تقديم العلاّمة الشيخ عبد الله العلايلي- إعداد وتصنيف: يوسف خياط دار لسان العرب -بيروت-لبنان- د-ت ص156.

6- إحسان النص- الخطابة العربية في عصرها الذّهبي- ص214 .

7-سورة النساء: الآية(59).

8-سورة النحل: الآية(64).

9-سورة الإخلاص.

10-سورة الملك: الآية(5).

11-سورة الجن: الآية(28).

12-سورة هود: الآية(88).

13-سورة التوبة: الآية(33)، سورة الصف الآية(9).

14- سورة يوسف: الآية(67).

15- سورة يوسف الآية(40).

16- سورة الأنعام: الآية(57).

17- سورة مريم: الآيات(2)،(3)،(4).

18 - إحسان النص -الخطابة العربية في عصرها الذّهبي- ص213